فيصل الدويش

وإخوان من طاع الله



تأليف
محمد جلال كشك

اعتنى بِهِ
نَاصِر رُضْوَان

مكتبة الرضوان

الهارف

فيصل الدويش

وإخوان من طاع الله

تأليف

محمد جلال كشك

اعتنى به

ناصر رضوان

عنوان الكتاب: فيصل الدويش وإخوان من طاع الله.

نوع المطبوع: كتاب.

اسم المؤلف: محمد جلال كشك.

التاريخ: ١٨/ ٥/ ٢٠١٧

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ / ٢٠٢٥م

رقم الإيداع	/ ٢٠١٧
الترقيم الدولي	ISBN

مكتبة الرضوان

٥ شارع الفقي – كوم حمادة – البحيرة – مصر

جوال وواتساب: ٠٠٢٠١٠٠٣٩٣٢٨١٠

البريد الإلكتروني: nasseregypt1973@gmail.com

الهارف

فيصل الدويش

وإخوان من طاع الله

تأليف

محمد جلال كشك

اعتنى به

ناصر رضوان

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهد يستقبل كشك



□ سموه لدى استقباله لجلال □

تشرف الكاتب والصحفي المعروف الاستاذ جلال كشك بمقابلة صاحب السمو الملكي الامير فهد بن عبد العزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء، حيث قدم لسموه نسخة من كتابه الجديد «السعوديون والحل الاسلامي»، وقد تقبل سموه هدية الزميل شاكرا.

تمهيد

فيصل الدويش.. اسمه ونسبه:

فيصل بن سلطان بن الحميدي بن فيصل بن وطبان بن محمد الدويش، شيخ قبيلة مطير وسليل أمرائها. كان أبرزهم وطبان بن محمد الدويش، وتلاه حسين بن وطبان الدويش، ثم فيصل بن وطبان الدويش، ثم محمد بن فيصل بن وطبان، ثم الحميدي بن فيصل، وتلاه ماجد بن الحميدي، ثم سلطان بن الحميدي المتوفى عام ١٩٠٧م[١]، وخلفه فيصل بن سلطان الدويش حتى وفاته في شهر أكتوبر ١٩٣١م، يقول الكولونيل ديكسون عن الدوشان: «إن فيصل الدويش وشيوخ الدوشان في مطير من قبله يمكن مقارنتهم بصانعي الملوك في إنجلترا في القرون الوسطى»[٢].

و«فيصل بن سلطان، أخو جوزاء، الهارف، صاحب المكانة العظيمة في الجزيرة العربية، وزير الإمام وزعيم حركة الإخوان، أشهر شيوخ وفرسان العرب في القرن الرابع عشر الهجري. شارك في بداية شبابه في معارك عديدة بزغ فيها نجمه، ولمع ذكره، وعرف بين القبائل. اشتهر بكثرة الحداء، ذو شخصية قوية وفروسية نادرة، جعلت شيوخ وفرسان قبيلته ينظرون إليه نظرة إعجاب وإجلال»[٣].

(١) انظر تراجمهم جميعًا في «تاريخ قبيلة مطير من عام ١٣٥٠-١٣٧١هـ»، خالد بن هجاج الهفتاء، ومنصور بن مروي الشاطري.

(٢) «الكويت وجاراتها»، هيرالد ديكسون -ترجمة جاسم مبارك الجاسم، ط١، ١٩٦٤م، الجزء الثاني، ص٣٤١.

(٣) «تاريخ قبيلة مطير من عام ١٣٥٠-١٣٧١هـ»، خالد الهفتاء ومنصور الشاطري.

تاريخ مولده ونشأته:

كانت ولادته ما بين عامي ١٨٧٢ و١٨٧٥م في بادية الصمّان[١]، ووالدته هي الشقحا بنت حزام بن حثلين أمير قبيلة العجمان[٢]، ترعرع في كنف والده وأعمامه، ونشأ على الشجاعة والفروسية، فبرزت فيه صفة البطولة والقيادة في وقت مبكر.

صفاته الخَلْقية والخُلُقية:

يذكر من رأي الدويش أنه كان أبيض اللون، واسع العينين[٣]، وكان عندما يمشي يعطي انطباعًا أنه أحدب، وبه عرجة خفيفة إثر إصابة قديمة، كان يتحلى بطبع التواضع لمحدثيه، لا يرضى الهوان، يميل في أكثر الأحيان إلى الصمت، وكان رجلًا صارمًا، لا يضاهيه أحد في هيبته، شديد التمسك بالثوابت الدينية وعادات البادية[٤]. يظهر مشاعره إن كانت سارة أو حزينة دون أن يخفيها، لا يخون عهدًا يعاهد به، رغم أنه لدغ من هذا الحجر مرارًا، وهو من الأفذاذ في الدهاء وحسن التدبير، وكانت بسالته وجلده أسطورة، وشجاعته المنكرة للذات تلهم أتباعه الطاعة التامة[٥]،

---

(١) أرض غليظة دون الجبل، وفيها قيعان واسعة وخباري تنبت السدر، وهي منطقة مترامية الأطراف في وسط شبه الجزيرة العربية، انظر «الكويت وجاراتها» لهيرالد ديكسون، وكذلك «دليل الكويت» ج. ج. لوريمر.

(٢) قبيلة العجمان: قبيلة عربية من قبائل شبه الجزيرة العربية، تنتسب إلى قبائل يام من همدان، انظر: كتاب «راكان بن فلاح بن حثلين» للمؤلف سلطان بن حثلين.

(٣) «الأعلام»، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين، خير الدين الزركلي.

(٤) «الكويت وجاراتها»، ديكسون، ص٣٤٠.

(٥) «توحيد المملكة العربية السعودية»، محمد المانع، ص١٢٤.

وكان طموحه منحصرًا في نشر الدعوة الدينية السلفية[(١)(٢)]، وشكّل الدويش ضغطًا نفسيًّا لمستشاري ابن سعود من العرب والأجانب، حيث كان كثير من هؤلاء يُكنّون الكراهية له، لكنهم لا يجرؤون على إظهارها، ولا يستطيعون مواجهته في عز مجده وقوته، ولكن لما قُضي عليه ظهرت البغضاء وما تخفي الأنفس، ومنهم حافظ وهبة وأمين الريحاني ويوسف ياسين وفلبي وغلوب باشا، وغيرهم الكثير.

عبقريته الحربية:

كانت عبقرية الدويش الحربية تتمثل في مباغتة عدوه مع بزوغ الفجر، فإذا كان مغزاه بعيدًا فإنه يأمر أتباعه بتناول العشاء بعد صلاة العصر، ثم الانطلاق بعد غروب الشمس والسير ليلًا لمسافات في بعض الأحيان تزيد على مئة كليو متر، مدركًا لحسابات الزمن والمسافة، فيصعب على عدوه رصد تحركاته، وكانت تسبقه في الهجوم مجموعات استطلاع تمشط له الطرق التي سيسلكها، وفي بعض الأحيان يبعث جواسيس للإقامة مع خصمه، وعندما يهجم يكون هجومه عنيفًا لا يُبقى ولا يذر، وعنصر المباغتة جزء مهم في استراتيجيته الحربية، وله مقدرة فائقة على تحويل الهزيمة إلى نصر، إذا تولى الهجوم بنفسه، وحدث ذلك في معارك جوّ لبن والبكيرية ومعركة ضم حائل.

ومن عبقريته الحربية مصطلح «الراجفة»، وهو اصطفاف المقاتلين كصفوف المصلين، ويطلقون رصاص بنادقهم في آن واحد من أجل إفزاع العدو، ولاختبار

---

(١) السلفية: منهج يدعو إلى فهم الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة. انظر: «أصول وتاريخ الفرق الإسلامية»، مصطفى محمود.

(٢) «العربية السعودية»، فلبي -ترجمة د. عاطف فالح يوسف، ص٩٧.

قدرة بنادقهم على الرمي، والضربة الأولى دائمًا تكون للخيالة حين يندفعون بقوة وسرعة مفاجئين عدوهم. وفي غزواته لا يمس الرجل المُسن والأطفال والنساء، وكذلك المقاتل المصاب[١].

يقول فلبي: «في عام ١٩١٨ قام الأمير تركي بن عبد العزيز[٢] بحملة عسكرية وحشد ستة بيارق قوامها نحو ٤٠٠٠ رجلًا تقريبًا عند آبار «قبه»، وفي المراحل المبكرة جدًا أرسل فيصل الدويش وهو قائد الإخوان المهيب في الأرطاوية ورئيس أركان في جيش الأمير تركي رسالة عاجلة إلى ابن سعود يناشده فيها على تحذير الأمير تركي من نشر قواته على مساحة واسعة جدًا، ربما يستغل ابن رشيد الفرصة ويشن هجومًا على القصيم، بينما ينشغل تركي في عمليات ضد القبائل المتناثرة في الصحراء»[٣].

قال حنيف بن سعيدان:

كـــم واحـــــد يـــنـــوي وفـــيـــصـــل دمـــــاره

عــلــى الــنــقــا مـــا فـــيـــه ســـرٍق ولابـــوق

هجرته: اتخذ من الأرطاوية هجرة بعد كون جراب سنة ١٣٣٣هـ

قال ابن خميس في كتابه (معجم اليمامة) مانصه (وللأرطاوية شأن كبير في انتفاضة الأخوان فهي أول هجرة أنشئت للأخوان عام ١٣٣٠ هـ كان يخرج منها أيام فتوحات الملك عبدالعزيز ألفا مقاتل أ وكان بها رأس الأخوان المفكر فيصل

(١) انظر: «السعوديون والحل الإسلامي»، جلال كشك، و«حرب في الصحراء»، غلوب باشا -ترجمة عطية الظفيري، و«تاريخ الكويت السياسي»، حسين الشيخ خزعل، و«قبيلة الرشايدة»، رباح مبارك مذكر الرشيدي.

(٢) تركي بن عبد العزيز: أكبر أبناء الملك عبد العزيز، توفي بالحمى الإسبانية ١٩١٩.

(٣) العربية السعودية، فلبي، ص٥٤.

الدويش وأسرته،شهدت عصراَ من الإنتفاضة الدينية عجباَ يصور لنا عهد الصدر الأول من المسلمين، وينقل الى عالم الزهد والروحانية والنسك بشكل لايخطر بالبال ان يكون في هذا القرن من الزمان مساجدها تضج بالقارئين والمسبحين ليل نهار،وشيوخها يحملون الألواح في اعناقهم يتعلمون أبجدية القراءة والكتابة، وحلق الدرس متصلة مدة النهار وأطراف الليل، وفي السحر لا يخلو بيت من بكاء بين يدي الله وتهجد وتلاوة قرآن ويتحرون أن يكونوا في لباسهم وسمتهم ونطقهم واعمالهم على ماكان عليه سلف هذه الأمة الأول، وأغلى مايتمناه أحدهم أن يلقى ربه شهيداَ في سبيله،يقتسمون زادهم ويواسون معسرهم ويعينون على نوائب الحق،تعج بالزوار والوافدين من مختلف هجر الأخوان، وأحاديثهم وأعمالهم أحاديث وأعمال قوم انقطعوا لله ونكبوا ماسواه خلفهم ظهرياَ)..

قال أحد الشعراء بمناسبة بناء فيصل بن سلطان الدويش بيتا من الطين بالأرطاوية:

زل الطرب والتبدوي فات
من يوم فيصل بنا طينه
لا واهني من قرا النصبات
وبمصحف قد عرف دينه

يقول الزركلي:

فَيْصَل الدَّوِيش (١٢٩٩ - ١٣٤٩ هـ = ١٨٨٢ - ١٩٣٠م)

فيصل بن سلطان بن فيصل بن نايف الدويش: آخر شيوخ «مطير» ومن كبار أصحاب الثورات في نجد. وهو من بني الدويش، ويقال لهم: «الدُّوشان» من بني

علوة (بكسر العين وسكون اللام) أصحاب الرياسة في «مطير». ومطير خليط من قبائل متعددة تناسبت وتحالفت وجمعتها عصبية واحدة، تمتد منازلها من الصمّان (غربي الأحساء) إلى سهول الدبدبة فالقصيم فأطراف الحجاز.

وكان فيصل بدويا قحا، فيه شراسة ودهاء واعتزاز بعدده الضخم. قام بزعامة «مطير» بعد أبيه.

صحب ابن سعود (الملك عبد العزيز ابن عبد الرحمن) في صباه، وخالفه سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢م) فقصد أطراف العراق بجماعة من عشيرته، فطاردته السلطات العثمانية، فعاد إلى نجد، بعد سنتين. وأنزله ابن سعود في «الأرطاوية» وهي دار «هجرة» كبيرة للإخوان، بين الزّلفى والكويت. وانتدبه لإخضاع عشائر من نجد خرجت عليه ولجأت إلى أطراف العراق، فمضى إليها ومزقها. وظفر في معركة بينه وبين الشيخ سالم بن مبارك الصباح (سنة ١٩٢٠م) فاحتل «الجهرة» من أراضي الكويت، وكاد يحتل الكويت، وتدخل البريطانيون، فعقد اتفاق العقير (سنة ١٩٢١م) بتعيين الحدود بين الكويت ونجد[١].

وقال إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن:

كان هذا الرجل (فيصل الدويش) أحد قواد البدو الذين يحرزون النصر، ويسير تحت ظل راية ابن سعود، ويسارع في النجدات[٢].

(١) كتاب الأعلام للزركلي جزء ٥ ص ١٦٥ و١٦٦.

(٢) تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان المؤلف: إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن «من علماء أهل القصيم» الناشر: مكتبة الرشد، الرياض - المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

ويذكر حافظ وهبه في كتابه (جزيرة العرب في القرن العشرين)

كان فيصل الدويش حينما يقدم على الرياض يصحبه نحو ١٥٠ رجلا مسلحا يدخلها كقائد كبير وكرجل عظيم له منزله عظمى في نفوس اهل الرياض وعلمائها اذا جلس لايجلس الا بجواراابن سعود (الملك عبد العزيز) يعتبره الملك كصديق قديم وقائد من قواده العظام اما اذا استاذن في الرجوع الى الارطاويه

فان القائمه التي اعتاد تقديمها للملك تبتديء من حبال الآبارونعاله الى السلاح والجواري ومابين ذالك ملابس له ولاولاده ولزوجاته والطيب والعود وكل قائد من قواد الاخوان يطلب هذه الطلبات ولكن قائمته تكون محل الرفض والتحوير

اما قائمة الدويش فلا يدخلها اي تحوير او تعديل

وقد برز الدويش في قيادة المعارك على راس قومه منتصرافي معركة حمض ضد القوات الكويتيه ١٩١٩م واستطاع في معركة الجهراء ١٩٢٠م ان يستولي على المدينة

وقال يحيى الربيعان في كتابه (فيصل الدويش والإخوان) ما نصه:

(هذا الكتاب يتضمن ترجمة لفارس كبير وشجاع مهما اختلفنا أو اتفقنا معه، ظهر في بداية هذا القرن، وترك لنا سجلاً حافلاً بالغزوات، والمعارك الطاحنة، كمعركة الجهراء التي وقعت في ١٠ اكتوبر ١٩٢٠م، وبصرف النظر عن أسبابها ودوافعها ونتائجها، حيث سقط فيها الشهداء من الطرفين، كل هذه الثوابت التاريخية وغيرها، لا تجعلنا نبخس حق هذا الزعيم الصحراوي، الشيخ فيصل بن

سلطان الدويش، كما لا يمكن أن نغفل دوره التاريخي، عندما نتحدث عن تاريخ وسط وشرق الجزيرة العربية بالذات.

لقد شكل هذا الزعيم وقائد الإخوان وهو تجمع اسلامي إصلاحي سلفي إئتلافي قبلي، وجمعهم تحت رايته واستطاع بدهاء سياسي وعزيمة واقتدار أن يؤلف بين قلوب رجال، شتتهم القبيلة فصهرهم في بوتقته موحداً فكرهم وكان بينهم العلماء والمفكرون والحكماء فاستطاعوا تحت قيادته أن يشكلوا فيما بينهم قوة سلفية إسلامية مؤثرة وفاعلة في بوادي شبه الجزيرة العربية كلها مما جعل كل سياسي في تلك الحقبة التاريخية أن يحسب لهم ألف حساب فإما أن يتحاشاهم أو يتحالف معهم.

واليوم عندما يكتب أي باحث أو مؤرخ تاريخ الكويت وشرق الجزيرة العربية فإنه لا يمكن أن يتجاهل هذه الحركة بكل ما لها وما عليها ولو حاولنا اليوم أن نقارن بين تجمع الإخوان السلفي الذي صنعه الشيخ فيصل الدويش وبين الحركات الأصولية والسلفية التي تتنامى كثيراً في أيامنا هذه وتمارس الغلو والعنف والتعصب، وتصادر الرأي الآخر، وأحياناً تعلن عليه الحد بالقتل تحت شعار (علي وعلى أعدائي)، غير آبهين لأرواح الناس الأبرياء الذين تزهق أرواحهم على هامش المستهدف والمقصود لوجدنا أن تلك الظروف الزمنية والإقتصادية والإجتماعية والعلمية السائدة في ذلك الوقت أهون وطأة وأكثر تروياً وأصدق تقوى، من سلف يومنا هذا بكل ما يحمله من أفعال وخفايا، لا تخدم الدين ولا العلم، رغم ما بسط الله لهم من نعم ورخاء، لم تكن متوفرة لغيرهم في ذلك الوقت العصيب.

إن هذا الكتاب يحمل رؤية تسجيلية محضة بعيد عن كل صور الإنحياز والتعصب لعله ينفع القراء والباحثين من قريب أو بعيد[١].

يقول غلوب باشا في كتابة حرب في الصحراء: (هو فيصل الدويش الذي زرع الرعب في الجزيرة العربية في السابق والذي خرج ببيرقة من الارطاوية قبل عام معلنا انة لن يعود حتى يقبض على أبو حنيك[٢] حيا او ميتا)[٣].

قال ديكسون في كتابه (عرب الصحراء) عن فيصل الدويش ما نصه:

(ومن أشهر معارفي من كبار المغيرين فيصل الدويش الشيخ السابق لعموم قبائل مطير والذي كان ملكاً حقيقياً بين البدو وهو الرجل الذي فعل مالم يفعله عربي آخر لمساعدة ابن سعود للوصول إلى السلطة والشهرة وهو نفسه الذي فتح المدينة لإبن سعود وربما يكون بعد ابن سعود نفسه أعظم رجال الإستراتيجية البدو الذين أنجبتهم الجزيرة العربية في هذا القرن.

أما من حيث المظهر فقد كان رجلاً قصيراً عريض المنكبين كبير الأنف والرأس بشكل ملحوظ وكان رجلاً صارماً سكوتاً، ونادراً ما كان يتكلم مع من يحيطون به، ومع ذلك فإن رجال عشيرته الدوشان يحبونه حباً يشبه العبادة، وكذلك رجال قبيلة مطير في جميع مناطق سكناهم فقد كانوا يعتبرونه بطلاً عظيماً وقائداً فذاً، وعندما كان ينهض للسير كان يخيل للناظر أنه محدوب الظهر قليلاً ولكنه

---

(١) المصدر: كتاب (فيصل الدويش والإخوان)، ليحيى محمد الربيعان، الكويت الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

(٢) أبو حنيك هو غلوب باشا نفسه وسبب تسميته أنه عندما بدأ حياته العسكرية (منذ ١٩١٥) بالخدمة مع الجيش البريطاني في فرنسا وبلجيكا في أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم نقل إلى العراق كمهندس حربي، وفي العراق أصيب بالرصاصة التي خلّفت أثرها في حنكه، فأعطته لقبه المشهور.

(٣) حرب في الصحراء صفحة ٣٢.

يعرج بشكل ملحوظ من جراء جرح أصيب به في رجله، وقد مات سجيناً في الرياض عام ١٩٣٢م، تغمده الله برحمته.

وكان أول لقاء لي به في الحادي والثلاثين من شهر أغسطس عام ١٩٢٩م، خلال تمرد الإخوان في ذلك العام على ابن سعود عندما اجتاز الحدود مع جميع القوات المتمردة من قبائل مطير والعجمان وخيموا حول آبار الصبيحية في الأراضي الكويتية، وكان جيشه جائعاً ويفتقر إلى المؤن وكان يأمل أن يسمح له بشراء الطعام من ميناء الكويت، وبلغ عدد خيامه ثلاث آلاف خيمة تقريباً، أما عدد الإبل المرافقة للقوة فلم يكن يقل عن مائة ألف، وكان منظراً مهيباً لن أنساه ما حييت.

وبعد أن أبلغت الجهات المسئولة بعبور هذه القوة الهائلة حدود دولة الكويت أمرني ممثل التاج البريطاني في الخليج أن أرسل تحذيراً لفيصل الدويش العظيم بالإنسحاب من حدود الكويت خلال ثمان وأربعين ساعة وإلا فإن قوات الطيران الملكية البريطانية المرابطة في الشعيبة (البصرة) ستمطره هو ورجاله بالقنابل، فركبت سيارتي واتجهت إلى (ملح) حيث طلبت من فيصل الدويش أن يقابلني (وكان أمير الكويت قد حذرني بشدة من الذهاب للقائه خشية أن يغدر بي)، وفي اللحظة الأخيرة تبعني شيخ الكويت مع أربعة من عبيده، حتى إن أصابني شر، كما قال يصيبه ما يصيبني، وصل فيصل الدويش إلى المكان الذي تواعدنا فيه على اللقاء بمصاحبة كبار رجال الإخوان وهم فئة من الرجال المتعصبين الأشداء الذين كان فيصل يسيطر عليهم سيطرة تامة، وبعد أن أطلعته على الإنذار الذي أحمله أضفت بأنني قد أقنعت قائد القوات الجوية البريطانية أن يتوقف عن الضرب لمدة يومين خوفاً على حياة النساء والأطفال الذين كانوا يرافقونهم، ورجوت فيصل الدويش

أن يعطيني كلمة شرف بأن ينسحب عبر الحدود خلال المدة المحددة حرصاً على سلامة النساء والأطفال، ظل فيصل الدويش متردداً ساعة كاملة، محتجاً بأنه لا يوجد أي خلاف بينه وبين الحكومة البريطانية وأنه هو وقومه كانوا من رعايا دولة الكويت السابقين وأنهم يرغبون بتجديد ولائهم لأمير الكويت، وأنهم كانوا يعانون من نقص شديد في المؤن، وبالرغم من تأثري الشديد لم أتزحزح عن موقفي وتمكنت من إقناعه أخيراً أن يعدني بتنفيذ طلبي، وعندما وعدني بذلك كان قرص الشمس الأحمر يغيب وراء تلال المناقيش البعيدة ويضفي على الأفق حلة من المهابة، وعندها قال فيصل بأنه ينوي الصلاة، وأذن هو نفسه للصلاة وأم الصلاة هو نفسه أيضاً، وكلهم يصطفون وراءه على طريقة الإخوان، وقد وضع كلم منهم بندقيته أمامه على الأرض بحيث تلمس فوهة البندقية وعقبها فوهة وعقب البندقية المجاورة وهكذا، وعند إنتهاء الصلاة استدار فيصل وهو لا يزال على ركبتيه وقال: أعد بشرفي أن أفعل ما طلبته مني، اذهب بسلام، وكان يعني أنه سوف ينسحب خلال ثمان وأربعين ساعة، وأكدت له أنا بدوري عندما نهض من الصلاة واقترب مني، أن طائرة ستمر خلال الفترة المحدودة لإستطلاع قواته، حافظ فيصل الدويش على وعده، وكان وداعنا لحظة مشهودة، فقد شعرت عندها أنني كنت في حضرة زعيم حقيقي للصحراء، ولم أعد أرى فيصل الدويش ثانية إلى حين استسلامه في الجهراء بعد خمسة أشهر في الثامن من يناير ١٩٣٠م، عندما شققت طريقي من خلال قنابل القوات الجوية البريطانية التي كانت تنفجر من حول مخيمه ورجوته أن يستسلم خلال ساعتين للقوات الجوية الملكية البريطانية وأن لا يحاول اختراق

طوق الحصار كما كان ينوي أن يفعل ويحاول التفاهم مع القوات السعودية التي كانت تربض في إنتظاره على الحدود الجنوبية للكويت، وكان موقفه يائساً فقد كانت طائرات السلاح الجوي البريطاني والقوات البرية تطارده لعبوره حدود الكويت مخالفاً بذلك أوامر ممثل صاحب الجلالة ملك بريطانيا، وكان أمله بالنجاة ضئيلاً، أطاع فيصل نصيحتي (مع أن أحداً غيري وغيره لم يكن يعرف الدور الذي لعبته في الموضوع) وانطلق بعد وداع مؤثر إلى معسكر قائد السلاح الجوي الملكي البريطاني وقائد القوات المرابطة في العراق نائب مارشال سلاح الجو الملكي البريطاني (السير س.س. بيرنت) الذي كان يدير العمليات وسلمه سيفه، وقبل نقل فيصل إلى البصرة بالطائرة كسجين (في آخر النهار) عهد لي بزوجته وأخواته الثلاث وطفليه الصغيرين وسبعة وعشرين من قريباته الإناث وهو يوصيني بهم قائلاً: أهلي في ذمتك يا أبا سعود، فاضطلعت بمسئولية إحدى وثلاثين سيدة عربية شريفة وأطفالهن ونزل الجميع ضيوفاً علي في الكويت ما يزيد عن شهر كامل إلى أن أرسل الملك عبدالعزيز آل سعود الشاحنات والخدم لنقلهم إلى عاصمته، وقد قدر لي الملك صنيعي وأرسل يشكرني بحرارة على ما فعلته أنا وزوجتي لهؤلاء السيدات الشريفات، إذ أن ابن سعود في هذه الأمور كان في غاية الشهامة والمروءة.

وقد وجه لفيصل الدويش الكثير من النقد الجارح وأحيانا عبارات الذم المريرة وبخاصة من الناس الذين قاسوا على يديه من سكان العراق، وخوفاً من أن لا ينصفه المؤرخون من بعدي، فإني أسجل هنا بأنني شخصياً لم أرى منه سوى كل ما جميل، وكنت أحد اثنين من الإنجليز (على ما أعتقد) الذين قابلاه وكان لهما

اتصال مباشر معه قبل استسلامه، وكان لي شرف التحدث معه حديثاً ودياً مرتين مما مكنني من تفهم شخصيته.

ومما لا شك فيه أن فيصل كان من كبار قادة الصحراء، وكان قومه يحبونه إلى درجة العبادة[١] وكان يحمل أفكاراً عظيمة لمستقبل الجزيرة العربية، وقد وقع الخلاف بينه وبين ملكه وسيده ابن سعود لأنه كان يحمل أفكاراً جادة ولم يستطع أن يرى الأمور من وجهة النظر السياسية، وكان يلعب لعبة خطرة ومزدوجة بإقامة علاقات ودية مع الإنجليز الكفرة، ولم يستطع التوفيق بين سياسة ملكه وبين العقيدة الوهابية الصارمة كما يفهمها ويدعو إليها الإخوان، ومع أن فيصل الدويش في الفترة الأخيرة عارض ابن سعود إلا أنني أعتقد جازماً بأن الملك سيظل لذكراه ويحترمه أكثر من إحترامه لأي شخص آخر في مملكته إلى أن يموت، وسيظل يتذكر الصبي الذي كان فيصل في أيام طفولته في الكويت، والمحارب العظيم والقائد الفذ الذي صار إليه فيما بعد، وبالإضافة إلى الأنصار الثلاثة والعشرين الكبار الذين ساعدوا ابن سعود في استعادة عاصمته الرياض، فإن فيصل الدويش كان في الحقيقة صديقه المخلص ومستشاره الأمين وقائده الفذ في عشرات المهمات العسكرية التي مكنت ابن سعود من العودة إلى مملكته.

والحق أن فيصل الدويش كان قائداً أعظم من أن ينسى.

وربما كانت أشهر غزوات فيصل الدويش تلك الغزوة التي وصل فيها إلى البحر الأحمر من عاصمته الأرطاوية، وقد قص علي تفاصيل هذه الغزوة

---

(١) هذا تعبير يمثل صاحبه الغير مسلم والمسلم لا يصرف العبادة إلا لله وحده.

ابن مسيلم شيخ الرشايدة في الكويت في السابع والعشرين من يناير ١٩٣٥م، وكنا حينئذ نتحدث عن الغزوات طويلة المدى وسألته إن كان قد قام بشيء مميز في هذا الميدان فأجاب بالنفي، ولكنه أشار إلى رجل في خيمته وأمره أن يخبرني بأمر غزوة فيصل الدويش العظيمة التي قام بها منذ ثمان سنوات واستغرقت أربعة أشهر، فإستجاب الرجل بسرور وأخبرنا كيف غادرت جماعته الأرطاوية بقيادة فيصل الدويش على البحر الأحمر، ثم إتجهت جماعة الغزاة شمالاً وهاجمت تجمعاً لقبيلة بلى، وهاجمت بعض مضارب بني عطية، وعادت أخيراً بمقدار عظيم من أسلاب الإبل عن طريق لينة عن طريق لينة الرخيمية وحفرالباطن والصمان، وقد إستغرقت الغزوة أربعة أشهر بالضبط من بدايتها إلى نهايتها، قطعوا خلالها مالا يقل عن ألف خمسمائة ميل..

(ولكن هذا كان في أيام الإخوان العظيمة) أضاف الرجل وعيناه تلمعان بالفرح[1].

ثناء شيخ قبيلة الحفاة من عتيبة

و حدثني الشيخ فيصل بن طويق عن جده سليمان بن محيميد بن طويق من شيوخ الحفاة من عتيبة قال غزينا مع الشيخ فيصل الدويش ومعه مطير ومعهم قومان من حرب وعتيبة على الجهراء وصبحنا قوات ابن صباح وأول الوقعه على ابن طواله وعربانه من الأسلم من شمر وكسرناهم وزبن ابن صباح سور الكويت، وكان الشيخ فيصل بن سلطان الدويش محنكا وداهية وايضاً متواضعا سمحا لايتعالى على من معه وقسم الغنائم وعدل واعطانا وسمعته يردد هاذين البيتين:

(١) المصدر: كتاب (عرب الصحراء) لديكسون، ترجمة سعود الجمران، الطبعة الأولى، عام ١٩٩٧م.

والـلـه لجيب الحطب واجـمـع الجلة
واهــيــن نـفـس دعـتـنـي فـي مشاهيها
مــن طــاوع النفــس مايعــرض علــى الجنــة
عدوتــه كيــف يمشــي فــي مســاويها[١]

ويقول محمّد بن عثيمين شاعر الملك عبد العزيز يمدح فيصل بن سلطان الدويش ويذكر أعماله المجيدة في فتح حائل[٢]:

وَمـا أَنـسَ لا أَنـسَ [ابـنَ سُلطانَ فَيصَلًا]
لَــهُ مـا بَـقـي مِـنّـي الـثَّـنـاءُ الـمُـنَـمْـنَـمُ
أَخا الحَربِ إِن عَضَّت بِهِ الحَربُ لَم يَكُن
جَــزُوعًــا، وَلا مِــن مَـسِّـهـا يَـتَـأَلَّـمُ
وَزيـــرَ إِمـــامِ الـمُـسـلِـمـيـنَ الــذي لـهُ
مَـشـاهِـدُ فيها مَـعـطِـسُ الـفِـسـقِ يُـرغَـمُ
إِذا نــاكِــثٌ أَو مـــارِقٌ مَــرَقَــت بِــهِ
عَــنِ الـديــنِ نَـفـسٌ لِـلـشَّـقـاوَةِ تَــرْأَمُ
سَـمَـا مُـشـمَـعِـلًّا]فَـيـصَـلٌ[نَـحـوَ دارِهِ
يَـخـوضُ بِـحـارًا بَـعـضُ خُلْجَانِها دَمُ
بِـــأَمِ إِمـــامِ الـمُـسـلِـمـيـنَ وَرَأيِـــهِ
وَلا عِــزَّ إِلّا بِــالإِمــامَــةِ يُـعـصَـمُ
وإِخــوانُــهُ فـي الـلـه لا تَـنـسَ فَضلَهُم
هُــمُ نُــصـرَةُ الإِســلامِ وَالــلَــهُ يَـعـلَـمُ

---

(١) رواية فيصل بن مقعد بن طويق.

(٢) العقد الثمين: ١٥٩-١٦٠.

الهارف

فيصل الدويش

وإخوان من طاع الله

تأليف

محمد جلال كشك

اعتنى به

ناصر رضوان

«..إن حركة الإخوان، هي أنقى حركة دينية معاصرة»...

عَبد العَزيز آل سِعود

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ٤٧ ﴾

صدق الله العظيم

لو سئلت:

ما هو أعظم إنجاز حققه ابن سعود، وما هو أكبر فشل في تجربته، وما هو العنصر الأساسي الذي قامت عليه انتصاراته. وما هو العنصر الأكبر في مأساة محاولته للحل الإسلامي، وما هي أكبر ظاهرة في تجربته تستحق اهتمام الدارسين، والمهتمين بمستقبل العرب والحل الإسلامي؟ وما هي القضية التي تعرضت لإهمال المؤرخين، ولأكبر حملة تشويه في تاريخ السعودية.

لأجبت على ذلك كله بكلمة واحدة:

«الهجر» أو معسكرات الإخوان!

فإذا كان محمد بن عبد الوهاب، بدعوته واستجابة آل سعود قد نقل نجدا من هامش التاريخ لتصبح مركز الأحداث في الجزيرة العربية، فإن حركة الهجر أو الإخوان، هي التي بعثت الوهابية، بعدما نسيت، وتوقع الخبراء البريطانيون زوالها نهائيا، هي التي أثبتت حيويتها الحركية، وقدرتها على تفجير الطاقة الروحية، أكثر من مرة، وأزالت عنها آثار الهزيمة الأولى...

بحركة الإخوان طرح الحل الإسلامي مجددا، بايجابياته من خلال انتصارات الإخوان الخلقية والعسكرية، بالمجتمع العجيب الذي أقاموه، وكأنه من صنع الخيال، بانتصارهم على جميع القوى التي اصطدموا بها.

وأيضا طرحت معهم سلبيات الحل، عندما انتهوا إلى النهاية المؤلمة التي انتهوا إليها حتى نسيت إيجابياتهم وبقيت الطرف التي تروي عن تخلفهم أو تعصبهم!

وقد وصلتنا شذرات متفرقة عن الإخوان والهجر، ولكن ما من دراسة جادة قد أتيحت، عن تلك الحركة العبقرية، والظاهرة التي لم تتكرر، منذ عصر النبوة، وإن

كانت جذورها موجودة في المنهاج الإسلامي، وفي تجربة الوهابية الأولى، وبقدر ما كانت كتابات المعاصرين للظاهرة، أقرب للحقيقة، وأغزر معلومات نسبيا، فإننا نلاحظ أن الكتابات المتأخرة، أغفلت ظاهرة «الإخوان»(١) أو بمعنى أصح حاولت التقليل من شأنها، والتحامل في نقدها.. حتى شوهت الظاهرة تماما، وأصبح من الصعب، إن لم نقل من المستحيل أن يصل المواطن العربي اليوم إلى صورة صادقة عنها، بعدما شاع بين المعلقين العرب ومن نقلوا عنهم، ونقلوا منهم... أنها حركة توطين للبدو، فشلت بسبب أطماع قادتها، وتحت هذا الزعم، دفنت الحقيقة التاريخية، وتقزمت الفكرة العملاقة، وظلم عبد العزيز المبدع والإخوان المؤمنون.

ولكن كما في الأساطير، فإن روح القتيل تظل تطوف حول الجثة، وتطارد المشوهين لها، حتى يعاد دفنها بالتكريم اللائق بها، كذلك التاريخ، لا يمكن إنكاره ولا تشويهه طوال الوقت، بل لابد أن تثأر روحه، وغالبا ما يظهر الشبح في صور مفزعة، مشوهة، بل حتى أكثر تشويها من عملية التزييف التي يمارسها الأحياء...

ولقد شاعت فرية «التوطين» في المؤلفات العربية، عن حركة الإخوان لعدة أسباب هي بعكس أهميتها:

- السطحية والخفة أو الاستعجال التي يتناول بها الكتاب العرب، قضايانا، وخاصة إذا ما كان الطابع التجاري يسيطر على مؤلفاتهم، ومن ثم يستسهلون التعريف الشائع الذي يتيح لهم مدح عبد العزيز دون التعرض لمخاطر التحليل!

---

(١) فحتى عام ١٩٨٠ قال محمد المانع الذي كان يعمل مترجما ومرافقا للملك عبد العزيز خلال أحداث الإخوان أنه قرر أن يسد «الثغرة» التي لاحظها في الكتابة عن «الإخوان وفقر المعلومات عنهم في الكتابات الأجنبية».. وسنرى أنه زاد الثغرة اتساعا، ولم يخفف كثيرا من فقر المعلومات، وإن كانت أفضل دراسة بلا جدال، هي دراسة جون حبيب التي حصل بها على شهادة الدكتوراه من جامعة ميتشيجان، ولكنها لأمر ما لم تنشر فبقيت في أرشيف الجامعة مجرد أطروحة منسوخة على الآلة الكاتبة.

- التأثر بشعارات توطين البدو التي طرحها الأميركيون في الأربعينات، ثم علا صوتها في الخمسينات ممتزجة بأصداء الحديث عن توطين اللاجئين. ومشروعات تعمير الصحراء، ومديرية التحرير... وتمليك عمال التراحيل، أو بدو الريف المصري...!!

فلماذا لا يكون عبد العزيز رائد زراعة الصحراء! وفيصل الدويش أول فلاح متملك!

- وهناك عنصر أكثر خطورة، وهو الذي كتم المعرفة في صدور العارفين، ألا وهو التحرج من الحديث عن الجانب «الثوري» في التجربة السعودية. ولم يكن ذلك مجرد موقف طبيعي من ثورة تحولت إلى نظام، بل أساسا كردة فعل من جانب السعوديين، للنشاط «الثوري» المخرب الذي اجتاح المنطقة منذ الخمسينات، مما خلق نفورا عاما من كل ما ينسب للثورة والثورية والثوار. فلم يكن من المقبول تسمية الوهابية «بالثورة» أو الحديث عن حركة «التحرر» التي تمثلها الظاهرة السعودية في فترات تألقها، ولا حتى عن الجانب العروبي. في تلك الحركة الوهابية -السعودية التي أنجزت أول ثورة، وأول استقلال عربي ثم كانت أول حركة تحقق الوحدة القطرية، وتتمثل الوحدة العربية في تشكيلاتها حتى مرت فترة لم يكن لها سفير واحد من أصل سعودي.

ومع ذلك كانت العروبة والتحرر والثورة[1]، ألفاظا مشبوهة، مكروهة، مستنكرة في قاموس إعلام الدول التي أطلق عليها «المحافظة» أو «التقليدية»،

---

(١) لاحظ مثلا أنه قبل ظهور الوباء العسكري «الثوري» ظهر في القصيم كتاب بعنوان «الوهابية» عام ١٩٣٦-١٣٥٥هـ ولم يثر اعتراضا.

وهي الدول التي نجت من محنة العسكر «الثوريين» «القوميين». وتجلى هذا في الإعلام السعودي، حين كانت السعودية هي التي تحمل العبء الأكبر في التصدي «للثوريين» في المنطقة، الذين جلبوا لشعوبها الخراب ولبلدانها الذلة والخضوع والتجزئة، بل التمزق والتشرذم. وكان «الثوريون» يحاربون الإسلام، ويروجون عنه أنه باعتباره دينا، فلابد أن يكون رجعيا، وخاصة إذا كان هذا الدين هو الإسلام! تلك المعادلة التي وضعت في مخابرات الاستعماريات. ولكن للأسف صدقها الكثير من المسلمين، فلعنوا الثورة(١) والثورية وتبرأوا منها. وما كانوا على استعداد لسماع أي حديث عن الثورية. حتى ولو كان محاولة للتمييز بين الثورة الحقيقية التي جسدها كفاح السعوديين على مدى قرنين لتحرير وتوحيد العرب، إلا فترات النكسات، وبين الثورية الزائفة التي يكتب برنامجها في قصر لعبة الأمم، وينحت شعاراتها وينفذها رجال المخابرات الأجنبية، والتي استهدفت تمزيق العرب وتمكين المغتصب في أرضهم!

وهكذا اختار الإعلام السعودي، والخاطبون وده، والمؤمنون به(٢)، الحل الأسهل، أو قل الهروب، برفض الثورية، والتبرؤ من كل ما يمت لها بصلة، وطمس كل آثارها في التاريخ! ولما كانت «الهجر» أو «اليثربيات»(٣) المناطق المحررة، أو المستعمرات الإخوانية، التي ابتدعها عبد العزيز هي التجسيد لروح الثورة

---

(١) لم تكن الدول «المحافظة» هي وحدها التي تتحرج من «الثورية» بل حتى حركة ٢٣ يوليو ظل «قائدها» مدة يحذف كلمة ثورة، ويسميها «نهضة» أو الحركة المباركة. والعقائديون في الشمال أعجبوا بتعبير انقلاب وانقلابي. حتى فاحت رائحة الانقلابات فانتقلوا إلى تعبير ثوري وثوريين.... الخ

(٢) معظمهم من اللاجئين في المملكة هربوا من «ثورات» في بلادهم، ويحملون تهمة الرجعية، فدافعوا عن «الرجعية» وحرصوا على «تطهير» التاريخ العربي وخاصة السعودي من «الثورية».

(٣) نسبة إلى «يثرب» أو المدينة المنورة التي كانت أول أرض محررة في التاريخ جرى فيها إعداد المؤمنين لتحرير بقية الوطن.

الوهابية، وهي التي اكتشفت الحل العبقري والثوري لمشكلة الثغرة بين تخلف المسلمين، وتفوق الكافرين تكنولوجيا، تلك الثغرة التي كانت العنصر البارز، وإن لم يكن الأساسي في هزيمة الشرق الإسلامي ابتداء من القرن الثامن عشر خلال جميع مواجهاته مع الغرب المسيحي، حتى اكتشف عبد العزيز الحل الثوري، فعبر عليه الثغرة من الناحية العسكرية في الجزيرة، وإن تقطعت به السبل فلم يقدم الحل الشامل لأزمة العالم الإسلامي.

ومن هنا تفادى الكتاب في تلك الفترة الحديث عن هذه التجربة حتى لا «يتهموا» عبد العزيز «بالثورية» والعياذ بالله!

- ولما كانت تجربة عبد العزيز هي التطبيق العملي الوحيد لشعار الثورة المسلحة في تاريخ المنطقة، حتى منتصف القرن العشرين أي إلى قيام الثورة الجزائرية، ومنظمة التحرير الفلسطينية (فتح). وأن كانت التجربة السعودية، تتميز عليهما، ليس بالأسبقية والأصالة وحدهما، بل وبأنها اتبعت أسلوب الأرض المحررة، والقواعد الثابتة مع حرب العصابات. وهو الأسلوب الذي سيطبقه ماوتسي تونغ بعد عبد العزيز بحوالي عشرين عاما والفيتناميون بعد أربعين سنة. لذا كانت هناك محاولات واعية، لطمس الجانب «الثوري» أو «الحركي» من عملية «الهجر»، وتحويلها إلى عملية إصلاح اجتماعي.. توطين البدو، تحويلهم من شراسة البداوة إلى وداعة الفلاحين، الطيبين، وزيادة محصول البلاد من الشعير!!

والهدف طبعا هو حرمان الشعوب العربية والإسلامية من دروس التجربة حتى لا تتكرر عملية التحرير، وحتى لا تشتعل الأرض بجيش التحرير العربي

الذي يصفي الاستعمار القديم والوافد[١].. بل يمكن أن تنتشر التجربة في العالم الإسلامي، فيتحرر هلال النفط، قلب العالم الثالث.

- ثم نصل إلى العنصر، الذي كان السبب المباشر لعمليات التعتيم والتشويه لتجربة الإخوان، وهو التطور المؤسف الذي حدث للحركة، والذي أدى إلى الاصطدامات المعروفة، تلك الاصطدامات التي قضت على الحركة، والتي ثارت بسبب الخلاف الاستراتيجي بين الدولة السعودية وقيادات الإخوان، مما سنشرحه بالتفصيل. ولكن المهم هو أن هذا الخلاف الذي حسم «بالحافر وصنع الكافر»[٢] جعل من المستحيل لفترة طويلة، الحديث بموضوعية عن معسكرات الإخوان، أو مستعمراتهم، أو حتى عن الظاهرة كلها، وضاعف من هذا المحذور تدهور الفكرة عبر السنين، كما يحدث لكل الظواهر التي انتهت تاريخيا، فزادت الحساسية بين النظم من ناحية، ومن يدعون وراثة التجربة أو الفكرة، هؤلاء الورثة المزعومون الذين لم يضيفوا للفكرة جديدا، بل تحولت في ممارستهم إلى طقوس وشكليات، وأهداف غائمة غير واضحة المعالم، مفزعة في تخلفها، ونفورها من مجتمعها...

هذه هي الأسباب التي فرضت التجاهل، أو التزوير والتشويه على كتابات الكثيرين ممن عالجوا موضوع الإخوان.

وأمامي على سبيل المثال، دراسة نالت جائزة الملك فيصل، وادعت أنها تنفرد بدراسة الشعب أو المجتمع كبطل، وهي في نفس الوقت تطفح بكل الأخطاء

---

(١) ورغم ذلك كان للتجربة ولا زال جذورها العميقة في الضمير الإسلامي الحركي. والدليل هو حمل كل الحركات اسم «الإخوان» بل والحديث عن «الهجرة». وقد تكونت في العشرينات «هجرة» في صحراء سيناء. كان فيها عدد من زعماء البعثيين في ما بعد. ومن الثابت أن «إخوان عبد العزيز» كان لهم نشاطهم في بدو سيناء وجنوب فلسطين كما سنرى.

(٢) الحافر هو الفرس، وصنع الكافر هو الأسلحة النارية، وهو قول في نجد يعني حسم الأمر بقوة السلاح.

والتشويهات والافتراءات على حركة الإخوان، بل وابن سعود معا!

تبدأ الدراسة[١] بالبحث عن مصدر تسمية الإخوان، فتستعرض كل التفسيرات التي وردت في شتى المصادر، إلا التفسير الوحيد المعقول وهو أنها مشتقة من قوله تعالى: «**واعتصموا بحل الله جميعا ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها**[٢]»... وهي الآية التي كان عبد العزيز يرددها دائما، كلما خاطب الإخوان، ومن عليهم بأن الله قد هداهم على يديه، فلا لغز، ولا سر وراء التسمية، ولا حاجة بالمؤلف للاستعانة بالسيد جورج خير الله لينقل عنه قوله: «إن التسمية أخذت من قول السلفيين الأوائل: «نحن عباد الله إخوان لمن يطيعه»!

«والأخ» الذي حدث فيلبي لخص المفهوم الصحيح لأصل الاشتقاق أو قل البديهي عندما قال له: «قبل أن نصبح مسلمين –مشيرا إلى البعث الوهابي في عام[٣] ١٩١٠–١٣٢٨ه –وما تلاه من السنين –كنا دائما نتحارب. ولكن الآن والشكر لله وابن سعود استتب السلام بيننا لسنوات طويلة والحمد لله».

أما «الهجر» فهي مشتقة بإجماع المصادر (المتزنة) من الهجرة، اقتداء بهجرة رسول الله ﷺ. ومعروف تأصل مبدأ الهجرة في التصور الإسلامي. لما جاء في القرآن[٤] والأحاديث من حث عليها، والإشادة بالمهاجرين. ولما حققته للإسلام من انتصارات وانتشار. حتى إننا نذهب إلى القول، بأن المفهوم الخاطئ للهجرة في

---

(١) لن نتعرض هنا للتشويهات والأخطاء التي تتعلق بقضايا أخرى.

(٢) سورة آل عمران.

(٣) تحديد عام ١٩١٠–١٣٢٨ كبداية لتاريخ «الهجر» موضع نقاش.

(٤) وردت الهجرة والمهاجرون في ٢٤ موضعا من القرآن. بل واعتبرت مكملة للإيمان: «والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا» الأنفال.

عصور التخلف، هو أحد أسباب انقراض المسلمين من البلدان التي تتعرض لغزو عنصري أو طائفي، إذ يفضل المسلمون «الهجرة»[(١)]!

ولا ينتبهون إلى أن هذا هو «الإدبار» وليست الهجرة الثورية التي بدأها الرسول وأصحابه بالانتقال من مكة إلى المدينة.. أي إلى الأرض المحررة في قلب الوطن..

ومبدأ الهجرة موجود في الحركة الوهابية[(٢)]، وهناك رسالة «لمحمد بن عبد الوهاب» يتحدث فيها عن الذين هاجروا إليه بحريمهم وأولادهم «فلا جاعوا ولا شحذوا». ولا شك أن نسبة كبيرة من «المجاهدين» في جيش السعوديين على عهد محمد عبد الوهاب وسعود الكبير كانت من هؤلاء المهاجرين الذين انضموا للحركة. ولكن المعلومات قليلة عن أسلوب تجميعهم وتنظيمهم، وأغلب الظن أنهم كانوا يتجمعون حيث يوجد الإمام، أو يأتون عند الدعوة للجهاد، ولم تكن هناك مستوطنات ثابتة ومتعددة!

فالهجرة في التجربة الوهابية الأولى والثانية، هي الهجرة بالتصور الإسلامي الصحيح، الهجرة من دار الشرك، من التعلق بالمجتمع المشرك، من كل ارتباط، وكل القيود التي تربط المهاجر بالمجتمع المرفوض، فيحمل إيمانه، وينطلق خفيفا فرحا مؤمنا متحررا إلى الله ورسوله... إلى «يثرب» الجديدة إلى أرض الإيمان..

(١) خاصة وأن الفقه الإسلامي الذي وضعت أصوله في عصور القوة لا يتضمن أحكام خضوع المسلمين لسلطة غير إسلامية باعتبارها حالة مستحيلة الحدوث، كما لا يدرس في مدارس أمريكا الآن ماذا تفعل في ظل احتلال أجنبي مثلا.

(٢) وقد جاء في كتاب الأصول الثلاثة للشيخ أن الهجرة قائمة إلى قيام الساعة، وهو بالطبع يشير إلى الهجرة الثورية، أي إقامة منطقة محررة في قلب الوطن، وليس اللجوء. وقد أخطأت تلميذة فاتيكوس فزعمت أنه بعد فتح مكة أصبح واجبا الهجرة إلى المدينة! ونسيت هي وأستاذها حديث: «لا هجرة بعد الفتح».

إلى دار الهجرة.. إلى الأرض المحررة إلى الجهاد.. إلى «الهجر».. ومنها ينطلق إلى تحرير العالم ونشر تصوره للمجتمع المثالي الذي يحقق خير الدنيا والآخرة.

والريحاني الذي سمع من عبد العزيز، ذهب هذا المذهب أو قريبا منه في تفسير الاسم، فقال: «الهجر جمع هجرة، والهجرة في القاموس، ترك الوطن الذي بيد الكفار والانتقال إلى دار الإسلام. أما وطن البدو فالبادية، والبادية مهد الشرك، فالهجرة منها إذن هي الهجرة إلى الله والتوحيد».

وهو نص صادق الوصف للحالة التي رآها، ولكنه يغفل عنصر الحركية، فهذه الهجرة ليست فرارا من دار الشرك إلى أمن دار الإسلام، بل «خروجا» بالمعنى الثوري، رفضا لدار الشرك والتحول إلى موقع أفضل لتحرير دار الشرك هذه.

أما «عطار» فقد استبعد منها البعد الديني. وطرح تعريفا يتفق مع قانون تحديد الملكية! فقال: «الهجرة هنا أرض يخططها الحاكم للبدو، ويقطعهم إياها للسكنى والعمارة، حتى تكون كالقرى والمدن الثابتة. ومعنى الهجرة الانتقال من أرض إلى أرض **أما**[1] في الإسلام، فقد نقل هؤلاء البدو إلى أرض يستوطنونها، بأسرهم، تكون لهم بمثابة المدن للمتحضرين!»!

وقد وفر علينا مئونة التعليق إذ أشفع قوله هذا بعلامة تعجب بنط ١٦، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له! وإن كان يعز علينا أنه اعتبرها ظاهرة لا علاقة لها بالإسلام والتفسير الإسلامي للكلمة.

أما أطراف تفسير فذلك الذي وصل إليه «ديكسون» على طريقة القول بأن شكسبير هو «الشيخ زبير»... فلأن الأحساء كانت تعرف قديما باسم «هجر[2]»

(١) لا حول ولا قوة إلا بالله...، أما «هذه، أخرجت المشروع كله من دائرة الإسلام».

(٢) ذكر نيبور الرحالة الأحساء وقال: «أنها تعرف أيضا «بهجر» وتصدر الحمير والجمال وقال والين في كتابه «رحلات في الجزيرة العربية» أن «الهجر» Alhagara تمتد من الدهناء للعراق.

لذلك قال إن عبد العزيز اشتق اسمها من «الأحساء».

ولست أستسيغ الإطالة في بحث معنى «الهجر» فهي الهجرة الإسلامية، اقتداء بالهجرة الأولى لرسول الله والمهاجرين معه. ولعل هذا يوضح أهدافها، كما يوضح، أيضا لماذا يحاول البعض تفادي المفهوم واختراع تفاسير أخرى!

أما البحث عن مصدر الفكرة فقد ناقشناه بالتفصيل في مكانه، وإذا كنا نميل الآن، بعد تنقيب وتمحيص إلى أن الهجر، ظهرت براعمها تلقائيا كما هو الحال في كل الإرهاصات الكبرى في التاريخ، إلا أن أية دراسة علمية تستحق هذه الصفة، لا يمكن أن تتحدث عن «حركة» الإخوان إلا بنسبتها لعبد العزيز، فهو الذي أعطاها شكلها ومضمونها، وهو الذي غير بها التاريخ، وأدخلها التاريخ، ومن ثم فكل الجدل حول من كان أولا «الإخوان» أو عبد العزيز هو جدل أكاديمي، مثل الاجتهادات التي تحاول اكتشاف مخترع مغمور سبق المشاهير[١]، أو إثبات وجود الماركسية قبل ماركس، والجدلية قبل هيغل، وكل هذا ممكن، ولكن لا يعني تخطئة اقترانها باسم من طرحها عالميا. خاصة وأن الفكرة، كما قلنا، من صميم التراث الإسلامي، فالفضل لمن أعطاها قوة الدفع. وإذا كانت كل الكتابات قد خلت من أية إشارة إلى تطور الفكرة أو إلى حوار مع عبد العزيز يوضح هذه النقطة، وكأن هناك سرا يتعمد الجميع أخفاءه!.. وربما ننفرد نحن بأول رواية منسوبة المصدر لحوار حول

(١) ويظن البعض أنه بإثبات أسبقية وجود الفكرة على تبني عبد العزيز ينتقص من قدره. بل ويذهبون إلى القول بأن الحركة نمت إلى حد تخويف عبد العزيز. «مما وضعه أمام خيارين، إما أن يقضي عليها أو يصبح زعيما لها، وبالتالي تتاح له فرصة استغلال حماسة أتباعها لتدعيم نفوذه في الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربي، وقد اختار ابن سعود الأمر الثاني رغم تحذيرات عبد الله بن جلوي حاكم الأحساء الذي نصحه بالتخلي عن هذه الحركة التي شبهها بنار تلتهم كل شيء. وفي عام ١٩١٦-١٣٣٤هـ، أصدر ابن سعود أمره بانخراط جميع القبائل في نجد في صفوف الحركة الجديدة. وأن يدفعوا له الزكاة بصفته إمامهم الشرعي». وهو تفسير هزلي لا يشرح لنا لماذا تقبلت هذه الحركة التي «تضخمت»، إمامة عبد العزيز بهذه السهولة!

هذه النقطة وهي الرواية التي حصلنا عليها من الأمير مساعد بن عبد الرحمن (أخو الملك عبد العزيز).

ومن هنا فنحن نؤيد موقف المؤرخين الذين نسبوا الحركة إلى عبد العزيز فلولاه ما كانت، أو على الأقل ما كانت بهذا الشكل الذي عرفه التاريخ والذي نتناوله بالدراسة.

وقد اختلف في تاريخ أول هجرة، وهي الأرطاوية، فذهب فيلبي إلى أن الحركة بدأت سنة ١٩١٢-١٣٣٠هـ، وذلك في معرض تعليقه على ما كتبه س. م. زويمر في كتابه «الجزيرة -مهد الإسلام»، قال فيلبي: «في سنة ١٩١٢-١٣٣٠هـ، كتب زويمر قال: «إن الوهابية تندثر الآن، وإلى الأبد، وأصبحت نجد على اتصال بالعالم عبر التجارة». ولكن والكلام لفيلبي -في هذه السنة بالذات، كانت الوهابية قد بدأت تقف على قدميها من جديد، فمستوطنة الإخوان في الأرطاوية أنشئت في هذه السنة بالذات، وبعد ١٢ سنة سيصبح سلطان وهابي سيدا لمكة مرة ثانية[١]».

وقال كينث وليامز.. أن ابن سعود أدرك أنه إذا أراد لحكمه البقاء، فلابد له من إنشاء نظام جديد لم تعرفه الجزيرة من قبل. وبدأ يتساءل: لماذا لا يعلم أولئك البدو الدين والولاء.. لماذا لا يلهب حماسهم الديني، ويحوله إلى طاقات مفيدة نافعة؟ وفي سنة ١٩١٢-١٣٣٠هـ قام بذلك الإجراء الهام وذلك بتأسيس حركة الإخوان الشهيرة[٢]».

---

(١) المرة الأولى كانت في عهد سعود الكبير. ولعل نبؤة زويمر الخاطئة، تكون بشيرا لما سيلحق بنبؤة أو شماته غلوب. الذي قال: «مر نصف قرن على ثورة الإخوان وأصبحت السعودية من أغنى دول العالم، أما أولاد الإخوان الشرسين فقد أصبحوا عمالا صناعيين في حقول النفط. والصحراء العذراء قد درست وخططت ورسمت في الخرائط واخترقتها أنابيب النفط والسيارات لقد تغير الزمان وتغير معه الرجال».
ولكن الليالي حبالي يا جلوب ولكل زمان رجاله. وليست الشراسة هي شرط الإيمان، ولا الجهل بالصناعة.

(٢) وقال أيضا أن فكرة إنشاء الهجر مازالت تعتبر من أعظم وأبرز أعمال ابن سعود التي كانت لها أثارها البعيدة المدى.

وقال «جلوب» أنها أنشئت عام ١٩١٢ (١٣٣٠هـ) وقال عنها «أنها من ابتكارات عبد العزيز، فهي وإن كانت قد اعتمدت على إحياء التعاليم الوهابية، إلا أن إنشاء وحدات الإخوان في الهجر كانت من ابتكارات عبد العزيز». ويقول: «بمساعدة رجال الدين في الحركة، شكل القبائل البدوية الموالية له في جماعات دينية أطلق عليها «الإخوان» حيث حرمت الموسيقى والدخان ولبس الحرير».

وقد نفل الزركلي «بتصرف» مقالا نشر في مجلة «لغة العرب» ببغداد، جمادى الآخر ١٣٣١ -مايو -يونيه ١٩١٣ عن هجرة الأرطاوية جاء فيه: «منذ بضعة أشهر، باعت إحدى عشائر نجد، خيلها وجمالها، وما عندها من العروض والأموال في سوق الكويت وغيره، وهبطت وادي «الأرطاوية» فبنت فيه الدور، وشرعت تعني بأمرين لا غيرهما، الزراعة والعلم، وقد أهمل أفرادها كل شيء سواهما، والعشيرة اسمها العريمات، وشيخها «قويعد الصريمة» وهي قسم من قبيلة حرب». وهذا يتفق مع ما قاله فؤاد حمزة «حول إنشاء الأرطاوية على يد قبيلة حرب، قبل الدويش والمطيرية، وأن اختلفا في الشيخ والسنة. فقد قال فؤاد حمزة: «أنشئت الهجرة الأولى على آبار الأرطاوية الواقعة على الطريق بين الزلفى والكويت عام ١٣٣٠ (١٩١٢) وسكنها سعد بن مثيب (من حرب) ثم أعطيت لفيصل الدويش وجماعته من مطير[(١)]».

وقال محمد المانع المترجم بديوان ابن سعود: «في سنة ١٩١٢-١٣٣٠هـ وكجزء من محاولة حل مشاكله قام ابن سعود بإحياء مبادئ التطهر التي في الحركة الدينية التي بدأها عبد الوهاب في القرن الثامن عشر. وهدف الحركة هو

(١) وأن كان هذا لا ينقص من دور الدويش بالنسبة للأرطاوية. فقد اقترنت به وهو مؤسسها الحقيقي مهما اكتشف المؤرخون من شيوخ سكنوها قبله.

توحيد القبائل في خدمة الله. وكانت فكرة الأمير العظيمة هي تشجيعهم على إنشاء مستوطنات دائمة. ومن هذا الأحياء لتعاليم الوهابية، انبثقت الحركة الدينية المعروفة بالإخوان. التي قدمت الصفوة من المحاربين المتعصبين المستعدين للقتال في سبيل الله والإمام ضد المشركين. ويمكن القول أنه خلال سنة واحدة من ميلاد الإخوان، وجد ابن سعود نفسه مع جيش قوي مقدام من رجال يعتبرونه رسول العناية الإلهية. ويمكنه أن يعتمد على إخلاصهم والتفافهم حوله كلما دعاهم للقتال» وقال إن أول قرية أنشئت كانت الأرطاوية سنة ١٩١٣ (١٣٣١هـ)، وأن سكانها هم أول من تسمى بالإخوان.

لكنه أيضا جعلها مشروعا زراعيا حيث «يمكن للبدو زراعة محاصيل منتظمة وفي المستوطنات كان ابن سعود يأمل أن يزرع العقيدة الوهابية»! ولم يفرق لنا بين زراعة العقيدة وزراعة الشعير!

أما حافظ وهبة فقال إن أول هجرة هي الأرطاوية وأنها بنيت سنة ١٣٣٠ -١٩١١. وأيد مفهوم الهجرة بالمعنى الحركي الثوري، على الأقل في ذهن أصحابها، مهما تحفظ الشيخ فذلك موقفه هو، قال: «أخذت الهجر تنتشر بسرعة، وأخذت العشائر تقلد بعضها.. بعضا في ترك حياة البادية التي أصبحت **تسمى عندهم بالجاهلية، كما يسمون الحياة الجديدة بالإسلام**. وقد غالى فريق كبير من عتيبة في كره الجاهلية، أو حياة البادية، فرأوا أن من آية الإخلاص لله ودينه، وأية الإيمان الصحيح: التخلص من كل ما يشتم منه رائحة الجاهلية، فأخذوا يبيعون أبلهم وأغنامهم، وينقطعون في «الهجر» للعبادة وسماع السيرة النبوية، وغزوات الرسول ﷺ، وتاريخ انتشار الإسلام في جزيرة العرب، فوجدوا أن حياتهم تشبه في كثير من الوجوه حياة الجاهلية، كما أن حياتهم الأخيرة تشبه حالة الإسلام في أيامه

الأولى، فعكف أكثرهم على تعلم مبادئ القراءة وحفظ شيء من القرآن والحديث، غير أن هذا الانقلاب كان خطيرا وعنيفا جدا.

ويقول فيلبي أن المشروع بدأ بإرسال دعاة أو مطوعين[١] ليطوفوا في القبائل يدعون للهجرة، فتجمع سنة ١٩١٢ (١٣٣٠هـ) عدد من حرمه بالقرب من مجمعه للتفقه في الدين. وهكذا ظهر الإخوان حوالي خمسين رجلا وعائلاتهم وقرروا الهجرة إلى الأرطاوية بين الكويت والقصيم، فأصبحت مستعمرة أو معسكرًا للمتدينين المقاتلين، وانتشرت الفكرة في طول البلاد وعرضها، وابن سعود الذي بدأ حركة البعث بواسطة دعاته، وفر لهذه المستعمرات كل احتياجاتها من المال والأدوات الزراعية والمعلمين الدينيين والسلاح والذخيرة للدفاع عن العقيدة، التي كان البند الأول فيها هو التخلي عن العادات الجاهلية، والقبلية، والتآخي بين كل الذين يقبلون النظام الجديد بصرف النظر عن قبائلهم وأصولهم الاجتماعية، وهكذا وجه النزعة القتالية عند العرب إلى خدمة الرب وخليفته في الأرض، وحرمت عليهم الغارات القبلية وأعمال النهب وشرب الدخان وكل خطايا الحياة القديمة. وقبل نهاية السنة وجد ابن سعود نفسه قائدا لجيش من المتطوعين[٢] يستطيع الاعتماد عليهم حتى الموت. وهذه القوات هي التي كفلت التفوق لابن سعود على أعدائه، وستصبح بالمئات خلال السنوات التالية، وهي التي أعطت ابن سعود القوة التي ستمتحن عما قريب في حملات المرحلة الثانية من زحفه للسيطرة على الجزيرة، والقول بأنه يدين لهؤلاء الإخوان بالكثير من انتصاراته، هو قول لا مبالغة فيه، وإن

---

(١) المطوع والمطوعين مقتبسة من الآية: «الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم ولهم عذاب أليم».

(٢) قال فيلبي من البدو الذين تحولوا إلى Yeomen وتعني نوعا من التشكيلات العسكرية الخاصة.

كانوا سيشكلون تحديا خطيرا لاستقرار دولته، عندما بدأت الالتزامات الدولية للحاكم تتعارض مع قناعات الرعايا».

ويفهم من عرض فيلبي، وتأكيده على أنها بعث للحركة الوهابية، التي لم تكن بحال من الأحوال ثورة زراعية! أن فكرة التوطين والإصلاح الزراعي أو الاجتماعي فكرة مضحكة بلهاء، وخاصة وكل حديثه يدور حول النتائج العسكرية للمشروع، وكيف كفل التفوق لابن سعود على أعدائه، ولم يعرف عن ابن سعود أنه حارب أحدا من أعدائه اقتصاديا[1]!

والقوى المعاصرة للحركة لم تنظر إليها أبدا كحركة تمدين وتوطين وتحسين لأخلاق البدو، بل فهمتها على الفور على أنها «حركة» ثورية تهدد كل تركيبة المنطقة. ومؤلف الإصلاح الزراعي نفسه ينقل عن ديكسون أن الحركة كانت تخيف الإنجليز والخديوية! ولا ندري ما الذي كان يخيف الخديوية منها، إذا كان يعني خديوي مصر، فلا أظن أنه سمع بها قبل ١٩١٤-١٣٣٢هـ، وقبل هذا التاريخ كان الخديوي مشغولا عما يجري في نجد، بهمومه الداخلية، وعلاقته المتدهورة مع الإنجليز، التي ستنتهي بخلعه عام ١٩١٤ (١٣٣٢هـ)، فهو كان في شغل بنفسه عن الاهتمام بالأرطاوية، وبينه وبينها الحجاز والأشراف والأسطول البريطاني والمعتمد....! أما بعد ١٩١٤ (١٣٣٢هـ) فلم يعد في مصر خديوية، بل سلطنة!.. ما علينا!

كيف يفسر لنا الفائز بالجائزة تخوف الإنجليز من الحركة، إذا كانت حقا حركة توطين للبدو الذين يتحولون إلى فلاحين يزرعون الحب ويشكرون الرب!.. لقد

(١) باستثناء فرض المقاطعة على الكويت. وهذه كان «الإخوان» ضدها!

كان الأحرى بهم أن يمولوا المشروع، الذي يكفل تدجين هؤلاء العصاة المتمردين، الثائرين أبدا. أما في شكل مجاهدين أو قراصنة، أو عصابات نهب وسطو.. وها هو عبد العزيز يحولهم إلى فلاحين مسالمين، مثل فلاحي الهند التي حكمها الإنجليز ثلاثة قرون بأقل من أربعين ألف عسكري، أو مصر التي لم يزد جيش الاحتلال فيها عن عشرة آلاف عسكري.. فلماذا التخوف، مادام المؤلف يصر على أنها حركة توطين للبدو وتحسين أحوالهم الاقتصادية؟ ويقول أن عبد العزيز «أوجد فكرة اجتماعية واقتصادية بالإضافة إلى الفكرة الدينية السياسية، وذلك في تأسيس حركة الإخوان على أسس دينية عسكرية اجتماعية».

وإلى هنا نطمع في إسلامه، أو فهمه للحركة، ولكنه كما قلنا قد التزم منذ البداية بمفهوم معين، لذلك يكمل العبارة بقوله: «كانت تهدف إلى توطين البدو وتحسين أحوالهم الاقتصادية والثقافية».

فمن أين تأتيهم الأهداف العسكرية؟ ولماذا يحتاج الزراع إلى أسس دينية غير التي يحتاجها الرعاة! هل نزل الإسلام على أهل القرى وحدهم؟!

في مواجهة هذا السؤال ينزلق الكاتب إلى القول بأن عبد العزيز استغل سذاجة البدو، وسهولة انقيادهم للدين! فهو يستعرض لنا عوامل نجاح المشروع في عشرة أسباب تبدأ هكذا حرفيا:

أولًا: سذاجة البدو!

تخيلوا دراسة عن أهم ظاهرة في تجربة عبد العزيز، تجعل العنصر الأول لنجاحها، «السذاجة» الغفلة!.. لا والله ليست سذاجة البدو التي ساعدت على نجاح حركة الإخوان وانتصارهم قوة واقتدارا على القوى العالمية والمحلية، بل الساذج حقا من ينطلي عليه هذا القول!.

يقول: «أولًا: سذاجة البدو وعاطفتهم، حيث أنهم يصدقون كل شيء ويندفعون في سبيل تحقيق ما يعتقدونه اندفاعا قويا، وهذا ساعد على نجاح مشروع الملك عبد العزيز الذي استفاد من طبيعة البدو هذه، فاستخدمها لتحقيق أهدافه في تأسيس دولته الكبيرة في الجزيرة العربية».

وهكذا يطمس التاريخ، بل ويهال عليه التراب والسخام.. وماذا قال الذين احتلوا المسجد الحرام أكثر من ذلك؟ طالب ملك ماكر لا يتورع عن استغلال الدين وسذاجة البدو لبناء دولته الكبرى.. ومن الطبيعي وقد بنى دولته أن يصفيهم!

«ثانيًا -يقول المؤلف -«أن الحماس الديني الموجود عند البدو البسطاء، كان عاملا قويا في نجاح المشروع، فالبدو لا يهتمون بالسياسة وإنما لديهم إحساس عميق بالأمور الدينية، ومما يدل على هذا العمق الديني، أن القبائل البدوية الكبيرة ظلت متمسكة بالفكرة حتى بعد قضاء ابن سعود على الثورة التي قام بها زعماء الإخوان وقبائلهم، وظلوا يحبون أن يطلق عليهم لقب إخوان، مع أن تعصبهم الديني خفت حدته نسبيا»!

والغريب أنه لا يكتشف تناقضه، فلو كانت حركة توطين للبدو، لكان من الطبيعي أن يزداد تمسكهم بها بعد القضاء على الثورة، ولكن لأنه يعرف أنها لم تكن حركة زراعية، بل حركة دينية، ثورية، فهو يستغرب استمرار التعلق بها، بعدما قضى على الثورة.. وهذا يكشف السبب الحقيقي للخطأ الذي يتردى فيه هو وأمثاله: أعني اتخاذ موقف مسبق ضد الإخوان، البدء بهدف مهاجمة الإخوان والظن أنه بمهاجمتهم وتتفيه دوافعهم، واتهامهم بالسذاجة والبداوة البسيطة، وجهل السياسة، والتعصب الديني، والإصرار على الفكرة، حتى بعدما تمت «تصفيتهم».. فهؤلاء الكتاب لا يكتفون بوهم مناصرة الدولة ضد «انحراف» حركة الإخوان، بل يصرون

في ظنهم على منافقة الدولة ضد الفكرة، وضد الجهود التي بذلك لبناء هذه الدولة، فإذا بهم يسيئون للدولة بأكثر مما يسيئون للفكرة، فهو يدلل على سذاجة البدو وبساطتهم، بأنهم ظلوا متمسكين بالفكرة، حتى بعد قضاء ابن سعود على الثورة، وكأنه يريد أن يقول: ظلوا يصدقون أو تنطلي عليهم الحيلة، حتى بعدما انكشف الأمر! وصحيح أنهم شفوا من التعصب الديني قليلا، إلا أن السذاجة مازالت مستمرة، بدليل تعلقهم بلقب إخوان!

وهكذا نرى خطة بارعة ماكرة، استغل فيها عبد العزيز سذاجة وبساطة البدو وتدينهم، فلما قضى منهم حاجته ضربهم وصفاهم، إلا أن القضية مستعصية، فلم ينجح في استئصالها، لا ضرب الثورة، ولا خفة حدة التعصب[1] الديني..!

---

(١) معظم كتابات المستشرقين، ومن نقلوا عنهم استهوتهم فكرة عبد العزيز الداهية الذي غرر بالإخوان فأنشأ حركتهم لخدمة أهدافه السياسية، فلما قضى حاجته منهم قضى عليهم. ومن هؤلاء جون حبيب الذي قال إن عبد العزيز: «ضربهم عندما حققوا الهدف الذي أنشأهم من أجله» «ص٧٧».

مستندا إلى أن عبد العزيز كان يتحدث دائما عن ملك أجداده! وكأنه كان يتوقع أن يطالب بالأحساء أو الحجاز من الأتراك والإنجليز باسم الدين! فحتى سعود الكبير حاور الوالي التركي في العراق حول ما هو تابع للروم، وما هو خارج ملك الروم! ولكن هذا لا ينفي إيمان عبد العزيز وقيادته لحركة كان يرجوها أن تستمر في نشر رسالة السماء إلى ما شاء الله.

وكل هذه الدراسات تركز على «خداع» عبد العزيز للبدو أو إغرائه لهم «بالجنة» وكأنه أخترعها، أو كأنها جنة الحسن الصباح! وإلا لما حرصوا على وصفها لنا وكأنها بدعة حديثة، مع أنها موصوفة في القرآن والأحاديث منذ ١٣ قرنا قبل ابن سعود! ومع أن الوعاظ والمشايخ لم يملوا أبدا من الحديث عن الجنة وحور العين وأنهار العسل واللبن ولكنهم لم يحركوا عاطفة ولا استثاروا همة، بل جعلوا بعض المغفلين يقولون إن الحديث عن الجنة جعل المسلمين لا يبالون بالسيادة في الدنيا؟! فلماذا نجح حديث الجنة عند عبد العزيز؟! لأنه طرح «الجهاد» أعطاهم دورا أو رسالة يعيشون من أجلها ويموتون في سبيلها. وقد ثبت دائما أن الإيمان بالأخرة أو الاستشهاد في سبيل عقيدة لا يتجلى ولا يقوى إلا بربطه بهدف دنيوي. فقد استشهد المسلمون لكي تكون العزة في هذه الدنيا لله ورسوله. وأوروبا لم تزدهر مسيحيتها إلا من خلال قتالها ضد المسلمين.

ومصدر الخطأ في تفسيرات هؤلاء وحرصهم على اكتشاف مخطط خبيث تأمري غرر بالإخوان، أو أطماع شهوانية سواء في الدنيا «الغنيمة» أو الآخرة: «الجنة وحور العين». هو أن هذه الدراسات تنطلق من قناعة بأن الإسلام عقيدة مادية غير سماوية! وبالتالي فالإيمان به والاستشهاد في سبيله يحتاج لمبرر مادي! فهم يقبلون ادعاء «زويمر» أنه يعمل في سبيل كلمة المسيح، وهو يكتب التقارير لمخابراته ويمهد لأساطيل =

هؤلاء الكتاب يرون الأمر كله مكر طالب مالك، فلا عقيدة، ولا حركة كان يمكن أن تغير وجه المنطقة كلها، ومن ثم فهم عندما يتشبثون بفكرة «التوطين» إنما يحاولون الحصول على الانسجام الفكري!..

ثم يقول: «أجبر الملك عبد العزيز البدو، باستثناء العجمان[1] على اعتناق مبادئ الدعوة السلفية والاعتراف به إماما شرعيا لهم وما أن جاءت سنة ١٩٢٠ (١٣٣٨هـ) إلا وكان معظم السكان البدو قد دخلوا في حركة الإخوان وقبلوا.. فكرة التوطين»! مرة أخرى التوطين!

حتى العلاقة بين اعتناق الدعوة السلفية، وقبول الهجرة، تشوه. فالاعتناق، كما هو معروف وبديهي سابق على الهجرة وشرط حدوثها. فالذي يهاجر هو المؤمن الذي يريد الهجرة من الجاهلية إلى الإسلام، ومن الخطأ الحديث وكأن سيف عبد العزيز كان الحجة الوحيدة لديه في إدخال البدو «ملكوت الله»..! بل الأصح أن يقال أن الدعوة التي ينتسب إليها ويلتزم بتعاليمها كانت أقوى حجة في تطوير البدو وتوحيدهم.

= المستعمرين، لاحتلال بلاد من «يهديهم». أما البدوي الذي يفخر بأنه خرج بالإسلام من الجهل إلى النور والذي يفضل الموت على الحياة بعكس كل القوانين البيولوجية والذي ينادي بتحرير الإنسان في حضارة لم تعرف الاستعمار. هذا البدوي المسلم لا بد أن هناك شهوة جسدية تحركه وتدفعه إلى التضحية بالجسد كله!!

وقد سقط جون حبيب مرتين في هذا الخطأ عند حديثه عن «خطط» عبد العزيز وتفسيره انتشار الحركة بقناعة شيوخ القبائل بأنه رجل المستقبل وطريق الغنى والثروة! وأن مصلحتهم المادية هي في الارتباط به» ص٨٤.

وقد هبط بتفسيره إلى الحضيض عندما قال: «أن الإخوان هم الذين فتحوا الحجاز ولكن لم ينالوا مجدا ولا اعترف لهم بالفضل. فلو كانوا قد فشلوا لكان بوسع عبد العزيز الذي ظل في الرياض، أن يدعى أنهم هاجموا الطايف ومكة بدون إذنه وبدون معرفته ولذا عاقبهم الله بالخذلان وهو عذر مقبول لدى أصدقائه الإنجليز» ص٢١١.

وهو قول سخيف، فإن الإخوان لم يتحركوا للحجاز إلا بعد مؤتمر عام عقد برئاسة الإمام عبد الرحمن الفيصل وخطب فيه عبد العزيز، وسئل هل هناك حكمة سياسية في عدم التوجه للحجاز وإزالة سلطة الشريف فنفي ذلك معطيا الأذن ومتحملا المسئولية الكاملة بغزو الحجاز، وكبار مستشاريه كانوا في الحملة.

وأي إنجليز هؤلاء الذين كانوا سيصدقون مثل هذا العذر الذي لم يخطر ببال؟!

(١) هذا غير صحيح فالعجمان كانت لهم هجرهم ومنها السرار.

وقد تدينت قبائل بعيدة عن نفوذ عبد العزيز أو قدرته على الإجبار. بل بالعكس جر عليها «تدينها» انتقام وبطش خصومه الذين كانوا أقرب لهم ولكن تهمة الأخذ بالسيف تلاحق الدعوة الإسلامية منذ عصر النبوة. والذين طبقوا شعار: «أجبروهم على الدخول في ملكوت الله». يتهمون الإسلام بأنه دين القوة! وعندما جاءت جموع الصليبيين إلى بيت المقدس كان تبريرهم: «ما أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ»!

وليست هناك قوة في العالم تستطيع إجبار البدوي على ترك الصحراء والإقامة في موقع محدد تحت سلطة حكومة مركزية لا يريدها، فقد قيل في تفسير أنفه البدوي، أنه غير مجبر على قبول ذل الحاكمين، إذ يقوض خيامه ويركب ناقته ويمضي!

ويستمر في تعداد أسباب نجاح المشروع فنصل إلى: «رابعا: لقد نجح الملك عبد العزيز آل سعود في إرساء فكرة بيع القبائل لجمالها التي هي رمز البداوة، وأن تعتمد على الزراعة بدلا من الرعي، وتكون مجتمعا زراعيا مستقرا بدلا من مجتمع رعوي متنقل، وساعده في إرساء فكرته هذه، جماعته الذين يشرفون على تثقيف البدو وتعليمهم» وهي منقولة عن «الخواجة» جون الذي بعد «مقابلة العرب» على طريقة: «طرازان يقابل ملك السود»!. قد فهم بيع الجمال على أنها رغبة في التخلص من البداوة، وللاعتماد على الزراعة بدلا من الرعي، وتكوين مجتمع زراعي مستقر! ألا أن الذين عاصروا التجربة، وانتصروا بسيوفها، أو اكتووا بنار هذه السيوف قد فهموا بيع الجمال على نحو مخالف تماما، ألا أنه هو الصواب. فلو كان الهدف هو تحويل البدوي إلى فلاح، لما اشترط الملك حسين لمصالحة عبد العزيز، واستتباب السلام، أن يكف عبد العزيز عن تحريض البدو على بيع

جمالهم، ولما طالبه بتسريح أهل الهجر وإعادتهم إلى البادية، بل على العكس كان الأحرى أن يشترط عليه التوسع في مشروعات «التوطين» لأن الفلاح المستقر «الذي نسى الغزو وباع أداة القتال الأساسية في الصحراء وهي الجمل» لا يخشى بأسه ولا يحسب حسابه، ولا حساب أميره أو سلطانه، ولا يشكل خطرا عسكريا على الشريف ودولته.. ولا يمكن أن يكون أداة نابليون أو بسمارك «نجد» في بناء إمبراطوريته، كما يصورون عبد العزيز!

الذين عاصروا التجربة، وكانوا يفهمون التاريخ، أو حتى لديهم الحس بتفسير الواقع، روعهم بيع الجمال، لا لأنهم خافوا من «ثورة زراعية» في نجد!! بل لأنهم أدركوا الطاقة التي تفجرت بالإيمان وجعلت البدوي يقبل هذه التضحية، وأن ذلك يعني وضع الجميع على خط المساواة، بإلغاء الخلفيات الاجتماعية المتباينة، وتحرير المهاجر من قيود الملكية، لينتمي للمجتمع الجديد انتماء كاملا، ويربط مصيره به وبقيادته، التي انتمى إليها عقائديا. وإذا كان الجمل رمز البداوة، فلماذا يبيع الدواب والغنم والخيل؟ ألا تصلح للمزارع الجديدة؟!

وهذه الظاهرة، معروفة في كل التجارب المماثلة، فالفلاح الصيني كان يتنازل عن كل ما يملك للكوميون، ونفس الشيء لليهودي في بداية الكيبوتزات. وكلها صور متشابهة في الشكل، فهي معاهد لتفريخ المقاتلين العقائدين، ولا علاقة لها بالتوطين أو مشاريع مديرية التحرير..

أما الشيخ حمد الجاسر، شيخ المحققين السعوديين الذي عرف التجربة مباشرة، فقد فهم طبيعتها ودورها أفضل بالطبع من المستشرقين والذين يحرفون الكلام عن مواضعه. قال الشيخ حمد الجاسر:

«والواقع أن هجرهم لم تكن هجرا زراعية بالمعنى الحقيقي، وإنما هي على شكل وحدات سكنية بناها البدو حول بئر ماء وبجانبه مسجد، وكان جل اعتماد البدو على عطايا الدولة..»

وهو تعليق كان كافيا لتنبيه من أراد أن ينتبه، ولكن المؤلف يحمله فوق ما حمل من أسفارا لينتقل إلى الحديث عن سأم البدو من حالة الترحال التي استمرت أكثر من مائة ألف سنة. أي منذ سكن الإنسان الصحراء، إلى أن أصابهم الملل فجأة عام ١٩١٠-١٣٢٨هـ أو ١٩١٣-١٣٣١هـ!!

وجوهر الخلاف أن الحديث حول مشروعات توطين، وتحويل البدو من مرحلة الرعي إلى مرحلة الزراعة، هو عملية تحويل حضارية، تتجه للاستقرار والتخلي عن الصفات الحربية، أما مشروع الهجر فكان مشروعا عقائديا عسكريا لخلق مقاتل عقائدي، حتى ولو مارس الزراعة في فترات السلم وبصفة مؤقتة. ولكن ما من عاقل يقول إن فيصل الدويش تحول إلى فلاح أمن مستقر مسالم في الأرطاوية! وقد استمر يزرع الرعب عشرين عاما في كل المنطقة..

لنسمع أراء المعاصرين، الذين كانت الحركة «تعنيهم بالدرجة الأولى:

ربما تكون أول إشارة «للإخوان» في تقارير الإنجليز هي تلك التي وردت في تقرير بتاريخ ٢٣ ديسمبر ١٩١٧-١٣٣٦هـ وهي برقية من السير وينغت المندوب السامي في القاهرة، ردا على برقية السير برسي كوكس رئيس الخليج جاء فيها ما يلي بالحرف الواحد.

«أنباء الداخل في الجزيرة مثيرة، وتحتاج إلى تنسيق دقيق في سياستنا إذا أردنا منع وقوع مصادمة بين أصدقائنا(١) العرب».

---

(١) وترجمتها الأدق «الذين تحت حمايتنا» Proteges.

«فسياسة الشريف في تقوية علاقته ونفوذه مع «عتيبة وعنزه» أقلقت ابن سعود الذي يطلب ضمانات ومساعدات عسكرية ضده. ويبدو أن سياسة الشريف هي دعم اتصالاته بجيرانه في انتظار زوال التهديد التركي للحجاز، وتقدم فيصل (ابنه) في الشمال. وابن سعود يتخوف من نتائج هذه السياسة، التي لو نجحت يمكن أن تضعه في مركز حرج، **والأنباء التي وصلت حديثا من مصادر مستقلة عن حركة أحياء للوهابية، ربما كانت هذه الحركة تتم بتشجيع منه لمواجهة توسعات الشريف**[١]».

«**والشريف قلق** -عن حق- من الحركة الوهابية، التي يمكن في ظروف معينة أن تشكل تهديدا للحجاز».

وإذا كان من الصعب المقارنة الآن بين نفوذ الشريف والتعصب الوهابي، **فإنني أسلم بأن الاتجاهات التوحيدية**[٢] **في الحركة الثانية (الوهابية) تجعلها أكثر خطرا في الظروف الحالية، كما أن السيطرة عليها أقل احتمالا من السيطرة على الطموحات العلمانية للشريف.** ونحن لا يمكن أن نسمح بوقوع خلافات بين العرب بالقرب من الأماكن المقدسة، تلك الخلافات التي يمكن أن تثور بسبب حركة البعث الوهابي. ومن الناحية الأخرى فإن وضع الحجاز الجغرافي، واعتماد الشريف على معونتنا، **يجعلنا أقدر على منعه من القيام بعمل عدواني**».

«ابن رشيد فقد سمعته في نظر العرب، ومع انهيار قوة تركيا، سيختفى نفوذه الشخصي، وفي هذه الحالة، وإذا نجح فيصل (ابن الشريف) في الشمال، فيمكن أن نقبل ممثلا للشريف مكان ابن رشيد ولا أعتقد أننا نستطيع الاعتراض على

---

(١) يبدو أنه كانت هناك منافسة حادة على زراعة الأرز في خرمة وتربة.

(٢) قال وينغت: Iconoclastic tendencies وترجمتها رفض عبادة الأيقونات وهي تعني هنا رفض الوساطات أو مظاهر الوثنية أي التوحيد.

ذلك نظرا إلى روح مباحثاتنا مع الشريف». «وإنني إذ أقدر أهمية إبقاء ابن سعود إلى جانبنا، وإعطائه مساعدة مالية ومواد عسكرية إلى الحد الذي نراه ضروريا في العراق، ولكن أريد أن أقول أن دعمه إلى الحد المقترح الآن قد يكون خطيرا، لأن قوة مجهزة تجهيزا حسنا من ١٥ ألف نجدي مع حشد من المتعصبين الوهابيين، يمكنهم أن يجتاحوا الحجاز، ويخلقوا اضطرابا في سياستنا العربية والإسلامية».

أليس من العار أن يكون وينغت في سنة ١٩١٧ (١٣٣٦هـ) أكثر فهما «للهجر» من بعضهم بعد خمسين سنة! أم يا ترى كانت بريطانيا تخاف من المنافسة الزراعية للأرطاوية.

والتقرير في حد ذاته يثير نقطة مهمة، وهي كيف استطاع عبد العزيز أن يكتم «الحركة» خمس سنوات، إن أخذنا بالروايات التي حددت تاريخها بعام ١٩١٢ (١٣٣٠هـ).. كيف أخفى أمرها على بريطانيا؟.. كيف لم يشر شكسبير إليها، إن كان الإخوان قد قاتلوا فعلا في معركة «جراب»؟! كيف لم يشر كوكس إليها؟ هل بدأت كحركة سرية ككل حركات التحرير؟.. حتى جاء هذا المصدر «المستقل» أو «المحايد» الذي يشير إليه وينغت، والذي نرجح أنه الكولونيل هاملتون (لورد بلهافن فيما بعد) فقد ذكر فيلبي في الفقرة ١٤ من تقريره الجامع المانع ما يلي[١]:

«في أكتوبر ١٩١٧ (١٣٣٦هــ) سنحت للكولونيل هاملتون خلال رحلته في الرياض، الفرصة ليقضي يوما في الأرطاوية، أحد مراكز الحركة الوهابية الجديدة، التي عرفت باسم «الإخوان» وقد تأثر بما سمع من عقائديات هذه الفئة المتعصبة[٢]،

---

(١) زعيم فيلبي أن الهجر أسست عام ١٩١٠-١٣٢٨هـ وسماها مستعمرات أو مخيمات: Colony أو Can-tonment.

(٢) واضح أنه لم يهتم بالتين والعنب والرمان الذي يزرعونه!

وبدون تحريات، صدق ما سمعه هناك عن أن الأرطاوية تعدادها ٣٥ ألف نسمة، ولقد شاهدت المدينة، ولا أظن أن سكانها يتجاوزون الـــ ١٢ ألف نسمة.

«وعندما وصلت إلى جدة والقاهرة، كان تقرير كولونيل هاملتون قد تنشر ووزع وأثار فزعا ليس بقليل[١]، مما دفع بالمسئولين عن الشئون العربية إلى إعطاء أهمية أكثر من اللازم بالنسبة للحقائق. وأطلقت التقارير من المصادر المتحيزة والمتحاملة حول نمو وأهداف البعث الإسلامي -كما جاء في -تقرير كتبه ليوتاننت كولونيل ت. أي لورنس، وقصد به التعبير عن آراء الشريف فيصل، ونشر في النشرة العربية[٢] رقم ٧٤ من عام ١٩١٧ (١٣٣٦) وكذلك لاقت آراء الشريف عبد الله نفس الاهتمام، وقد ركزت هذه الدعاية الشريفية على أن بعث الوهابية يشكل خطرا داهما على الأمن والسلام في الجزيرة العربية. وطالب أبناء الشريف بقمع الحركة في مهدها، وأن ابن سعود ينظمها لخدمة طموحاته السياسية»[٣].

«ومن هنا يمكن القول بأن الخوف من انبعاث الوهابية[٤]، أصبح يلعب دورا بارزا في جعل حكومة صاحب الجلالة تنظر بعدم ارتياح لأي اقتراح يؤدي لزيادة قوة ابن سعود العسكرية[٥]». وبقية الفقرة تتضمن فلسفة فيلبي، وقل أيضا دفاعه عن

(١) إلى هذا الحد تفزع بريطانيا من زراعة الصحراء وتوطين البدو!! شر البلية ما يضحك!

(٢) وهي النشرة التي تصدرها القيادة العسكرية البريطانية في القاهرة. ولاحظ العداء بين فيلبي ولورنس. وقد أشرنا لرأي الأمير فيصل في فصل الأشراف.

(٣) كتب الملك حسين إلى الوكيل البريطاني في جدة: «إن ما يعنيني بالدرجة الأولى هو أن تجبر حكومة صاحب الجلالة (البريطانية) الأمير المذكور على إلغاء ما يسميه بالإخوان وهي الجمعية السياسية التي تتستر برداء الدين». ١٨/ ٩/ ١٩١٨ (١٣٣٦هـ).

(٤) كتب وينغت إلى بلفور في ٣/ ١٠/ ١٩١٨ -١٣٣٦هـ. «إن خبرتي في السودان عرفتني خطر هذا النوع من التنظيمات السرية التي تعمل تحت ستار الدين في وسط شعب مسلم بدائي. فهم يصبحون على استعداد للاشتغال فور أول شرارة تعصب، فإذا وجدوا قيادة، أصبحوا قوة يصعب السيطرة عليها».

(٥) قال الكولونيل ولسن: «مهما قيل عن اعتدال وصداقة عبد العزيز فهو رئيس حركة إسلامية متعصبة وهي =

عبد العزيز، الذي جعله يوصف بأنه غير محايد من جانب حكومته، قال فيلبي في تفسير لجوء عبد العزيز لبعث الوهابية، أي الهجر:

«مشكلتان واجهتا، منذ زمن سحيق، كل من حاول حكم الجزيرة، الأولى هي عادات البدو، والثانية هي فقدان الهدف المشترك، الذي يشكل المركز الذي يلتف حوله. وقد استطاع بيت الرشيد -إلى حد ما -أن يتخطى هذه المصاعب، بفضل الصفة الخاصة لقبيلة شمر، التي تدعمت وحدتها بامتلاك عاصمة وحاكم من دمهم. ولكن الوضع مختلف مع بيت «سعود»، فهم لا يحكمون استنادا إلى عصبية قبلية، بل يعتمدون في مركزهم الذي صنعوه لأنفسهم، على اتحاد قبائل، مستعد في أية لحظة للتطويح بحكمهم إذا ما فقد مبرره»[1].

ويقول فيلبي أن ابن سعود واجه هذا الوضع بأن مزج بين سياسة ابن رشيد، وسياسة أحد أسلافه (سعود).

ثم يحلل حركة الإخوان كالآتي:

١- الحركة قاصرة على البدو الذين هم اسميا من أتباع المذهب الحنبلي، وحيث للدين نفوذ قوي على الرأي العام.

٢- المطوعة، وهؤلاء يعينهم علماء المدن لإدارة الشئون الدينية عند البدو وشرح العقيدة الوهابية البسيطة، وحثهم على الحياة طبقا لسنة النبي وإدانة العادات السيئة للمجتمع الصحراوي. وتحديثهم عن الجنة والاستشهاد.

= حركة الإخوان فأي مساعدة تقدم لابن سعود تقدم في الحقيقة لحركة الإخوان» رسالة الكولونيل ولسن إلى ماجور ونغ ٩/ ١١/ ١٩١٩ (١٣٣٨هـ).

(١) وقال جون حبيب نفس الرأي وهو أن أهل المدن وإن كانوا محل ثقة إلا أنهم في شغل بتجارتهم وزراعتهم. والبدو لا يمكن الركون إليهم في مشروع بحجم أهداف ابن سعود ولذلك كان لابد من مقاتل من نوع ثالث.

٣- وهكذا تحطم الطابع الأساسي للمجتمع البدوي، وأعدت مستوطنات دائمة، وبرز عدد من المدن والقرى في الخمس أو الست سنوات الأخيرة في أجزاء مختلفة من نجد، وأبرز قسماتها أن رابطة الدين حلت محل روابط العائلة، فالمطيري الأخ يلتزم بروابط مع المطيرين، ولكنه أيضا يلتزم بكل روابط والتزامات ومزايا الأخوة الدينية مع الأخ من قبيلة أخرى كانت معادية لمطير.

٤- الإخوان الذين تجمعوا في مراكز ملائمة والمتحمسون للعقيدة الجديدة، سرعان ما عبروا عن رغبة في قطع علاقاتهم القديمة بقبائلهم التي لم تؤمن، ولكن ابن سعود بفطنة سياسية نادرة(١)، لم يشجع هذا الاتجاه. وهكذا صاغ رابطة قوية بين مصالح القطاعات المهمة لكل القبائل العظمى في نجد، وعلى هذا الأساس بنى ابن سعود صرح قوته السياسية، معتمدا على العناصر البدوية في مستوطناته الجديدة، وبنفس القوة على المدن القديمة، التي أصبح الآن قادرا على تحريرها، من الالتزامات المزعجة التي كانت تجبرهم على خوض حروب حكامهم(٢). وجعل عبد العزيز هؤلاء الإخوان الذين لا يقاتلون إلا دفاعا عن العقيدة، أو دفاعا عن النفس، نواة جيشه الدائم، فعليهم وحدهم يوزع السلاح والذخيرة، وعليهم اعتمد في تكوين العمود الفقري لجيشه في زمن الحرب، فهم يجمعون بين سطوة البدو وثبات الحضر، كما خدمت مصالح الاقتصاد دون خسارة الكفاءة. ويمكن

---

(١) هذه نخالف فيها فيلبي، إذ يبدو أن الحركة لم تنجح فعلا في قطع الروابط القبلية، وسنرى أن هذه الروابط لعبت دورا أساسيا في أحداث الحرب الأهلية. ولم يكن عدم تشجيع قطع هذه الروابط فطنة سياسية من ابن سعود، بل غلطة قاتلة إن كان حقا قد فعلها عن وعي.

(٢) لاحظ أن فيلبي يعتبر تخصص المستوطنات في القتال. قد حرر المدن من أعباء الحرب. فتفرغت بالطبع للإنتاج وبناء الحياة المدنية. وهذا المفهوم وإن كان عكس الفكرة الرائحة، إلا أنه الأقرب للصواب ودليل تفهم فيلبي للحركة وأهدافها.

القول بأن هدف ابن سعود من حركة الإخوان، هو زيادة قوته العسكرية بتوزيع أعباء الخدمة العسكرية، على عدد أكبر من رعاياه! وبتقليل عناصر الضعف الموروثة في دولة بدوية، وجيش بدوي، وأيضا التوفير في نفقاته، بإحلال الأمل في الآخرة، محل المغريات التي يطلبها المرتزقة. «إن هدف ابن سعود هو إنشاء قوة دائمة قوية، في مواجهة أي عدوان أجنبي في المستقبل، مع رغبة في إعادة إخضاع جبل شمر لآل سعود. أما عن القول بطموحه في توحيد الجزيرة مرة أخرى تحت النفوذ الوهابي، فلا يمكن أن أقول في هذا الموضوع أكثر من أن ابن سعود، يعتبر بريطانيا هي عقبة دائمة، **لا سبيل لتخطيها**، تعترض تحقيق هذا الحلم، وهو مهيأ لقبول هذا الأمر الواقع[1]».

«أما عن السؤال الثاني، وهو هل هناك ضمانة لقدرة ابن سعود على ضبط الحركة؟ فيمكن القول إن عش الزنابير الوهابي يمكن أن يبقى هادئا، مالم يزعجه استفزاز خارجي[2]».

ومهما حاول فيلبي أن يهدئ من روع المسؤولين، فقد عاد من تجربته في نجد، إلى اجتماعات مخططي السياسة العربية الإنجليز، بانطباع يتحدى جميع الحسابات، والتقارير، والمعلومات، والقوانين التي تحكم حركة الأحداث والقوى في العالم العربي. إذا أصبح يتحدى خبراء الإمبراطورية، بإصرار مثير على أن «إخوان» ابن سعود هم أقوى قدرة عسكرية في الجزيرة، وأنه يستطيع أن يفتح بهم ما شاء، ويهزم من يشاء.

---

(١) هذه ترد على من يتهمون عبد العزيز بصداقة بريطانيا. أما قبول ابن سعود للأمر الواقع، فذلك صحيح ولكن إلى حد ما، فمنذ كتب فيلبي تقريره هذا وحد ابن سعود أكبر مساحة ممكنة في الجزيرة. شمر وعسير والحجاز. فضلا عن نجد التي كانت معظمها معه في عام ١٩١٧-١٣٣٥هـ.

(٢) ولو أن «عش الزنابير» هذا كان يتحرك حتى بدون استفزاز، إلا أن الإنجليز اعتمدوا على هذه الفكرة في إثارته عام ١٩٢٨-٤٦/ ١٣٤٧هـ.

كان لدى فيلبي أسبابه، لهذه القناعة التي ملأت نفسه، لأنه عاش ظاهرة، وإن كانت ظلالا للتجربة الكبرى والأصل، في يثرب، إلا أنها تحمل قبسا من نورها، الذي بهر العالم ومازال إلى اليوم. التجربة التي عاشها فيلبي كانت شبيهة بتلك التي سيعيشها «ادغارسنو» بعده بعشر سنوات في الصين، حيث سيخرج الكاتب الأمريكي بنفس الانطباع، عن القوة التي لن تقهر... لقد عاش فيلبي وسنو في مصنع عقائدي يخرج جيشا لا شبيه له، رجالا يولدون من جديد بعد مرورهم في تيار أيدلوجي، يعيد تشكيل فكرهم وسلوكهم، فيتحركون ويتكلمون ويتعاملون ويحيون ويموتون بملامح فوق بشرية(١)!

أما توينبي المؤرخ البريطاني الشهير، الذي بنى شهرته على نظرية الاستجابة للتحدي، وتعتبر دراسته لمجتمع البدو ركنا أساسيا في هذه الدراسة، إذ تحدث عن تفوق التحدي على قدرة الإنسان للمقاومة، وكان خليقا لو رأى إنسان عبد العزيز، يحقق المعجزة، ويحول الصحراء إلى مزارع، وعبد العزيز ينجح في تحويل البدوي إلى فلاح، حسب النظرية الفاسدة، لو رأى ذلك لأفرغ لها المجلدات، ولكنه على العكس من ذلك لم ير في حركة «الإخوان» إلا إعادة للزحف الإسلامي الأول، «فكتب خلال الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٤-١٣٤٠ إلى ١٣٤٢هـ، عدة مقالات عن حركة الإخوان، وتنبأ بأنها إذا ما استمرت تنمو بمعدلها الحالي، فستسيطر حالا على كل الجزيرة، وما وراءها بل وربما تعيد تاريخ الإسلام(٢) الأول بالانتشار في

(١) وفي اجتماع القاهرة ٢٣ مارس ١٩١٨-١٣٣٦هـ (في عنفوان الهجوم الألماني) قال السير برسي كوكس «أن ابن سعود يجتهد في توسيع نطاق حركة الإخوان لتكون دعامته القوية في دفع كل عدوان خارجي على بلاده». وأعتقد أن دفع العدوان الخارجي يتم بالسلاح وليس بالمحراث!!

(٢) وقد ساد العالم الغربي كله الفزع من عودة الزحف الإسلامي.. إما بالغزو الإخواني أو بانتشار دعوتهم وأسلوبهم أو بكونهم جزء من حركة بعث إسلامية عامة، ففي يوليو ١٩٢٢-١٣٤٠هـ تحدث القنصل البريطاني عن نشاط «الدعاة» الإخوان في دمشق. وفي أغسطس ١٩٢٢-١٣٤٠هـ، طلب ونستون تشرشل =

الدول الأسيوية وشمال إفريقيا[(١)]».

أعتقد أنه صار من حقنا أن ننقل حكاية «التوطين» الزراعي إلى الملاحق ٢م، ونقول كلمة في البدو والعقيد والمشروع:

البدو ككل ظاهرة فريدة من نوعها تتأرجح بين النقيضين المتطرفين، فهي لم تصل بعد إلى حالة التعادل، التي تهبط بها من القلق أو الشذوذ العبقري المتفرد إلى استقرار ورتابة النمطية.. فالبدوي إما حالة فردية مطلقة، تهبط به إلى مجرد كائن حي يصارع من أجل البقاء، أو ينطلق في شموخ إلى المستوى فوق الإنساني بالتضحية من أجل هدف غير مادي، يتخطى كل الحدود التي طوقت حركة هذا الإنسان الذي اعتصم في أكثر بقاع العالم تحديًا للإنسان، الذي -كما يقول توينبي -قد خضع

= وزير الدولة لشئون المستعمرات من وزارة الخارجية أن تستعلم من محافظة سيناء عن انتشار حركة الإخوان في سيناء. ورد اللنبي في ١٢ سبتمبر أن قوة من ١٥٠٠ وهابي موجودة بالقرب من العقبة وتتقدم شمالا وأنه أصدر أمره للقوات البريطانية والمصرية بالتدخل إذ لزم الأمر».

ولكن الصحف التركية قالت «لا يتوقع شن هجوم سعودي على مصر، ولكن قد يبعث ابن سعود بمبشرين إلى عرب سيناء المصريين لحثهم على مهاجمة فلسطين» ٢٣/ ١٠/ ١٩٢٤-١٣٤٢هـ وأبدى «صمويل» المندوب السامي البريطاني في فلسطين قلقه من انتشار الدعاية الإخوانية في شرق الأردن.

وكتب القنصل الإيطالي في جدة «كافالير برنابي»: «إن حركة الإخوان تشكل تهديدا خطيرا على الإسلام، ومصالح الدول الأوروبية التي لها رعايا مسلمون تقتضي احتواء هذه الحركة. واقترح القيام بحملة صليبية مشتركة من فرنسا وإيطاليا وبريطانيا تغزو نجدا من البصرة وجدة لتدمير الإخوان». تقرير ولسون عن محادثاته مع برنابي ١٨/ ١/ ١٩١٩-١٣٣٨هـ

والقنصل الألماني كان يهتم بتتبع أخبار ابن بجاد (برقية وينغت) والمخابرات الفرنسية رصدت نشاط الإخوان «التبشيري» في سوريا (تقرير للجيش الفرنسي) بتاريخ ٣١/ ٩/ ١٩٢٩ه-١٣٤٨هـ.

والقنصل الأمريكي في اسطمبول توقع أن «يوحد ابن سعود المنطقة من الأردن إلى فارس، وأن الانتداب البريطاني في فلسطين والأردن والعراق يتعرض لامتحان خطير». (٢٣/ ١٠/ ١٩٢٤-١٣٤٣هـ).

(١) وقد علق محمد المانع على هذه الفقرة بقوله: «ولكن ذلك لم يتحقق، لأنه بدلا من استخدام قوتهم ضد المشركين الأجانب، أصبح الإخوان منتشين بخمر قوتهم، حتى أنهم تحولوا إلى الداخل، وثاروا ضد سلطة حاكمهم ابن سعود»... وفي تفسيرنا نحن -كما سنرى -نذهب إلى العكس، فنقول «لأن» ذلك لم يتحقق فقد جروا جرا إلى الصدام الداخلي.

هو والأسكيمو وزنجي خط الاستواء للتحدي، لأن هذا التحدي من جانب البيئة كان أكبر من أن يقاوم فضلا عن أن يقهر، فتكيف الإنسان لشروط البيئة، ولم يغير البيئة، أو يكيفها لاحتياجاته، لأن ذلك كان فوق طاقة الإنسان.. وهذه النظرية قد تكون صحيحة بالنسبة للأسكيمو والزنوج، ومن ثم لم تكن لهم حضارة ولا ثقافة خارج صراعهم من أجل البقاء، ككائنات بيولوجية، ولعل السبب الأساسي لم يكن قسوة البيئة أو المناخ فحسب، بل تضافر عليهم، أو نتج من ظروف البيئة، عنصر أخر هو العزلة عن العالم الخارجي، فاستحال على الإنسان في خط الاستواء أو القطب المتجمد الخروج من أسر بيئته القاسية، فاجتر نفسه وأفكاره، أما البدوي في الصحراء العربية، فقد ظل على اتصال دائم بالعالم الخارجي، سواء بغزواته ورحلاته، أو لأن العالم الخارجي كان مضطرا للعبور في أراضيه[١]، وهكذا فقد استطاع أن يحتفظ بشخصيته واستقلاليته، وأستفاد قدر الإمكان، والظروف، من خبرات وثقافات وعادات الحضارات التي احتك بها أو احتكت به، فالبدوي قهر التحدي، وخرج إلى العالم، بل وقهر العالم.. وأوضح مثال على ذلك هو الخروج الإسلامي الذي حمل البدوي من جنوب فرنسا إلى الصين.

هذا الخروج، كما قيل أو كما يتفق الجميع، لا يتحقق إلا بالدين، وليس هذا عن سذاجة أو تخلف، بل لأن البدوي، كما قلنا ظاهرة فريدة، ليس لديه شعور بالوطنية لأنه بلا وطن، وطنه خيمته، إذا ما أحس بالقهر، طوى خيمته ورحل، فهو لا يصبر على الضيم، وأيضا لا يصمد لمقاومته.. بل يرحل!.. ولا مصالح اقتصادية

---

(١) وأيضا لأن الزنجي أو الأسكيمو استطاع أن يكفي حاجاته البيولوجية في الغابة أو القطب ولكن البدوي لو ظل حبيس واحته يموت، بتغير المناخ والجفاف، وقلة الموارد. فهو لابد له من الحصول على إنتاج العالم الخارجي إما بالتجارة الحرة أو بالقهر والغزو.

ثابتة تجبره على البقاء والدفاع عنها. ومن ثم فلا تبقى له إلا عصبية القبيلة، كإطار يحتمي داخله من عوامل الفناء، ولكن العصبية القبلية تتضمن عنصرين سلبيين: الأول هو أن الولاء للقبيلة، يتضمن رفض القبائل الأخرى، سواء أكان ذلك في شكل عدائها أو محالفتها أو مهادنتها. المهم عدم الشعور بالانتماء لهذه القبائل وتأكيد الانفصال عنها، ومن ثم لا يمكن تصور تحرك جماعي ضد عدو خارجي، إلا في حالات نادرة، اعتبرت كنبؤة بالتغيير الحاسم القادم.

والثاني: أن الولاء للقبيلة مرتبط بالمصالح المباشرة، مثل الدفاع عن الحياة، وموارد العيش، أو الحصول على هذه المقومات بالنهب والسلب، ومن هنا يتحرك البدوي للغزو فهو الوسيلة الأساسية لانتزاع حق الحياة، وهو إذا تحرك في ظل شعارات قد تبدو غير مادية، إلا أنها مرتبطة بحفظ النوع، مثل الثأر والشرف وحفظ الجار والمستجير.. الخ. وكل فضائل البدوي ورذائه، مرتبطة بهذا التضخم في غريزة حب البقاء، نظرًا للأخطار الهائلة التي تهدد هذا البقاء. فكرم الضيافة مثلا، شرط ضروري للبقاء في الصحراء، إذ تتوقف الحياة على «كرم» أول خيمة يصل إليها ذلك المسافر في الصحراء، حيث لا ماء ولا زرع ولا أسواق تبيع الطعام، ولا فنادق.. لا شيء إلا وحشة الطبيعة، ونبل الإنسان.. ونفس الشيء بالنسبة لنظرتهم للمال، واعتبار النهب حقًا مشروعا لحفظ الحياة، أو حتى نوعًا من الرياضة العنيفة كالصيد والقنص عند نبلاء أوروبا -كما قيل -فهو ينطلق من قاعدة تقديم حق الحياة على حق المقيم على المال[1]... فهو بلغة البدو «المال مال الله يوم لي

(١) انظر حادثة عمر مع البدو الذين اغتصبوا الطعام والماء من الذين رفضوا استضافتهم. فرفض عمر معاقبتهم وقال: ابن السبيل أحق بالمال من **المقيم عليه**، ورفض حتى أن يقول من «مالكه» فلا ملكية بالمفهوم الرأسمالي في البادية (انظر أبو ذر والحق المر -تأليف جلال كشك).

ويوم لك» أو «خالتك عريانة اخلع ثيابك» لتكسوها ولو غصبًا! وخالتك هنا هي زوجة البدوي الغاصب ولا صلة بها بالطبع بالمنهوبة ثيابه، إلا حق الصحراء ونسب الحياة!

من هنا كان الدين، وحده، الذي يطرح هدفا أسمى من غريزة البقاء الحيوانية، أو قل الذي يربط حب البقاء الذي يحكم سلوك الفرد، بهدف جماعي إنساني، هو وحده القادر على إبراز الوجه الآخر أو النقيض: السمو في التضحية، التفوق في البذل والعطاء.

والسلوك الإنساني هو معادلة بين الغرائز والقيم. ولكن البدوي، كما قلنا، في حالاته العادية، عندما يخرج من التاريخ الإنساني، تتضخم غرائزه إلى حد إخفاء ملامحه الإنسانية، فيصبح كائنا حيوانيا فرديا، يسخر كل شيء، ويضحي بأي شيء في سبيل الحفاظ على حياته[1]. هذا البدوي، عندما يفرج الدين عن قيمه، تكون الطاقة المتفجرة، بقوة كبتها عبر مئات السنين، ومن هنا هذا التجرد والسمو والطاقة التي بلا حدود، التي يتألق بها البدوي المسلم، فيذهل الدنيا، ويغير شكل العالم من حوله لعدة قرون تالية، حتى وإن عاد هو إلى عالم النسيان والانحطاط الفردي.. ولكنه يترك بصماته على العالم، ومفردات ومعاني بيئته وحياته على حضارات وعوالم لم تر الصحراء في حياتها ولكنها ستظل تردد الأسماء التي أطلقها بدوي في ليلة «بعدما بين طرفيها»، على نجوم السماء، فتعرف بها موقع السفينة المنطلقة للمريخ!

---

(١) تأمل قتلهم أولادهم لكي لا يزاحموهم على القوت! والسهولة التي تنتقل بها المرأة من المهزوم إلى المنتصر حفظا على حياتها.

فالدين يخلق هدفا ساميًا، عاما، يذيب الحساسيات القبلية، يخلق مواطنية تتخطى الحدود، يجمع هذه الذرات المتنافرة في وحدة تتضاعف محصلتها ملايين المرات.

والبدوي ليس وحده الذي يتأثر بالعقيدة، أو الأيديولوجية، وإن يكن نموذجًا خاصًا، فالإنسان لا يضحي ولا يستشهد إلا في ظل قناعة عقائدية، وليس في التاريخ حركة تغيير أو بعث أمة من الأمم، نجحت، إلا باسم عقيدة، حيث اقتنع الناس في الزمان والمكان المعينين بأن الموت في سبيلها أفضل من حياتهم الحالية، بل هو السبيل الوحيد لتحسين حقيقي في حياتهم. وعبرة التاريخ تؤكد، أن أي مواجهة متكافئة من الناحية المادية بين، قوتين متصارعتين، تنتهي بانتصار صاحب العقيدة الأقوى. وأيضا فإن التاريخ حافل بالأمثلة، على قدرة العقيدة وحدها على قهر العوامل المادية، وتغطية الفارق التكنولوجي. والنموذج الإسلامي هو خير دليل على ذلك، فالذين لا يملكون، هزموا المالكين الذين كان لديهم ما يجعلهم أكثر حرصًا على النصر، لو كان الأمر يتعلق بالمصالح الاقتصادية. والحفاة العراة، هزموا الحضارات السائدة والمتفوقة تكنولوجيا، والبدو الذين لا تربطهم أرض، ولا وطنية، ولا مصالح اقتصادية، ولا تركيبة علوية معقدة، أثبتوا أنهم أكثر تضامنا، وأخوة، وترابطًا، من كل الأمم حولهم. فلم يسجل العصر الإسلامي الأول، حالة واحدة، خان فيها أعرابي جيش المسلمين، أو سلم حصنا، أو حتى حاول النجاة بنفسه[١]، بينما كانت شعوب بأكملها، أعرق حضارة، وأكثر تطورًا من الناحية

---

(١) يدعى ديكسون ويقلده كالقرد غلوب أن كلا منهما كان له جاسوس واحد في الإخوان، ولكن ما من دليل على نفع هذا الجاسوس، فقد فاجأ الإخوان الكويت والعراق أكثر من مرة في غفلة من ديكسون وغلوبه. وقد اعترف غلوب بأن الإخوان هم الذي نجحوا في رصد تحركات البريطانيين وعملائهم.

المادية، تتخلى عن دينها وتاريخها ولغتها، وتدخل في حضارة ودين وثقافة ولغة «البدو».

وقد رأينا نماذج قريبة الشبه، في العصر الحديث، في الصين والجزائر وفيتنام، وفي كل مكان انتصر فيه شعب متخلف، مسلح بالعقيدة، ضد عدو متقدم تكنولوجيا فارغ الروح بلا عقيدة. وقد قلنا مرة إنه عندما تواجه العقيدة الفاسدة، من لا عقيدة لهم، ينتصر أصحاب العقيدة الفاسدة، ورأينا نموذجا لذلك في الغزوة الصهيونية، فقد قاتل البولندي والأمريكي والروسي، الذين لا تربطهم أية رابطة مادية بهذه الأرض، قاتلوا وماتوا من أجل الاستيلاء عليها، بدافع عقائدي. كذلك هزمت الجيوش العربية الأكثر عددًا وعدة، والأعرق ارتباطًا بالأرض، بل والتي تقاتل فوق أرضها، لأنها افتقدت العقيدة الصحيحة.. فالقضية ليست «حجم» ما تخسره أو تكسبه، ولا كما يزعمون قضية مصالح وملكية، بل عقيدة. ولا أظن أن أحدًا يقول إن تمسك أهل الخليج اليوم بأرضهم واستعدادهم للدفاع عنها أكبر من استعداد وتضحية وتعصب أجدادهم لأن بلادهم أصبحت أغنى!!

أدرك عبد العزيز دور العقيدة، سواء عن تفكير ودراسة، أو بالحس المتوارث[1]، واستقراء تجارب صدر الإسلام، والتجربة الوهابية الأولى، عندما حولت «الحركة» البدو، إلى مقاتلين من الطراز الأول، وحدوا الجزيرة، وأرعبوا الدولة العثمانية، ودقوا ناقوس الخطر بالبعث الإسلامي في أوروبا.. وظل الرعب منهم كامنًا في أضابير الإمبراطورية البريطانية، فما أن وصل نبأ بعث عبد العزيز

(١) أشار عبد العزيز إلى هذا التحول الكيفي في المجتمع البدوي عندما يحدث فيه التغيير عندما قال للكولونيل هاملتون، أول إنجليزي عرف الإخوان: «نحن كالوديان. وادي الرمة مثلا يمتلأ مرتين أو ثلاث مرات كل قرن. ولكنه إذا امتلأ يكتسح أمامه كل شيء حتى المساكن».

للمارد حتى انبعث الذعر من الأرطاوية في مكاتب وإدارات الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، ليس خوفًا من إنتاجها الزراعي، بل من الطاقة الروحية التي يعرفون جيدًا احتمالاتها.

كانت بذرة الفكرة موجودة بالكامل في حركة «محمد بن عبد الوهاب» وإن كان المؤرخون كالعادة، لم يهتموا بتقصي هذه الحقيقة[١]، إلا أن هناك إشارات متفرقة، تؤكد أنه دعا المؤمنين إلى الهجرة إليه، بلا مال ولا متاع، وهناك جرى تحويلهم إلى عقائديين، أو مقاتلين محترفين ودعاة يعيشون للمجتمع الجديد وعلى نفقته.. ومحمد بن عبد الوهاب، وضع الفلسفة، والشعارات، والطابع «الحركي» ولكن الهيكل التنظيمي كان مفقودا، أو ربما ضاعت منا آثاره بسبب اهتمام المؤرخين المعاصرين بتسجيل تحركات «الجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة».. ثم تفرغ المؤرخون المحدثون لتسجيل فتوحات ومعارك البيت السعودي، ولم تقم أية دراسة عن طبيعة «الحركة».. إلى أن سقطوا في مستنقع «التوطين» ولا يعقل أن يفكر من سقط في هذا المستنقع بالبحث عن جذور الفكرة في الحركة الوهابية!..

وفيلبي على حق تماما -ولا شك أنه أعمق من كتب عن عبد العزيز -عندما يقول: إن حركة «الهجر أو الإخوان التي تفتقت عنها عبقرية عبد العزيز، كانت في جانبها الفكري، بعثًا للوهابية، ولكن في جانبها التنظيمي، فكرة جديدة تمامًا تدين بوجودها ونجاحها ونهايتها إلى عبد العزيز».

فقط نحن نضيف تحفظًا هو أننا لا تتوفر لنا المعلومات عن نوعية التنظيم الذي قام في المرحلة الأولى، وإن كنا نجزم باستحالة انتشار الحركة وانتصارها

(١) بالطبع رفض كل أنصار «التوطين» و«الإصلاح الاجتماعي» فكرة «بعث» الوهابية، أو الاعتراف بجذور حركة ابن سعود في الوهابية. من ناحية لأن محمد بن عبد الوهاب لم يقم بثورة زراعية، ومن ناحية لظنهم أنهم يمجدون ابن سعود بنسبة الاكتشاف الزراعي إليه وحده!

على نحو ما جرى بدون تنظيم. فليس من العدل أن نقرر بسهولة انعدام التنظيم في المرحلة الوهابية الأولى.

ومن هنا كان الخطأ الفاحش، في تقزيم تلك الفكرة العملاقة بتصويرها كمشروع زراعي أو إصلاح اجتماعي يهدف إلى تدجين البدو أو توطين البدو بتحويلهم إلى مزارعين. وإنما هي تشكيل عقائدي، جيش تحرير توجهه عقيدة، مستعمرات يبنيها عقائديون، فيخلقون ويعيشون، في مجتمع جديد.. جديد في قيمة، في مسلكياته، في علاقاته. حر من سيطرة المجتمع المعادي، آمن من بطشه، ومن تأثير قيمه المعادية.. هي أرض محررة، أو مستعمرة، حسب موقعك من الأرض والحركة، وأول نموذج -كما قلنا -هو يثرب، حيث أقام المسلمون مجتمعا حرًا، انطلقوا منه لتحرير بقية الأرض قدر ما وسعهم.

فالهجرة التي اشتقت منها المستوطنات السعودية اسمها، ليست مشتقة من هجر، اسم الأحساء! ولا من الهجرة من حياة البدو إلى حياة الزراعة، فتلك الهجرة معروفة في تاريخ البدو، عندما هاجر عرب الجزيرة إلى حيث الماء في صعيد مصر، أو ما بين النهرين، وسهول الشام، بل حتى تونس وأطراف المغرب، يقبلون كالإعصار بنقاوة وجفاء وقسوة الصحراء، ولكنهم سرعان ما يتشبعون بماء الحضارة الزراعية، فيطرى عودهم، وتترطب أخلاقهم، ويفقدون طهارتهم وخشونتهم في السهول والمستنقعات، وما بين الترع والقنوات، ويشربون ماء ذل الارتباط بالأرض.

ولا هي حتى كتلك الهجرة التي تمت بعد الفتح الإسلامي الأول، حيث انتقل المسلمون من الجزيرة إلى أراضي السواد ومصر من أجل أهداف عقائدية ودفاعية،

وللتمتع بما أفاء الله عليهم من نعيم الدنيا باستثمار الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين، والسكنى في مساكن الذين ظلموا[١]... الخ.

وإنما هي هجرة تشبه وتستوحي الهجرة الأولى، التي انتسب إليها تاريخنا كله، يثربيات مثل يثرب الخالدة. هجرة بالمعنى الديني الذي توحي به عبارة: «احمل كفنك واتبعني» أي احمل تحديك للسلطة المرفوضة، احمل قرار استشهادك مسئولية اختيارك. ولا تنظر خلفك إلا بغضب ورفض. هي هجرة الصحابة من مكة إلى المدينة، وكلاهما كان مجتمعًا مدنيًا، بل لعل مكة كانت أكثر غنى وتحضرًا، وأقل بداوة، فهي لم تكن أبدًا هجرة من البادية إلى الحضر. ولم يكن عبد الرحمن بن عوف أو أبو بكر وعمر بدوا رحلا جري توطينهم في المدينة. بل هي عملية انسلاخ من كل ارتباط بالمجتمع القائم، إلغاء كل الارتباطات التي تشد الفرد لهذا المجتمع. رفضه، نبذه، الخروج منه من أجل وبسبب الخروج عليه. الهجرة لله ورسوله، أما الهجرة من أجل تجارة أو زراعة أو زوجة.. «فهي وما هاجر له».. هذه أشبه برحلتي قريش في الشتاء والصيف، أما الهجرة العقائدية التي تشكل الحركة التاريخية، فهي أولا موقف: هجرة عقلية أولا، واختيار كامل المسئولية.

وهذا ما فهمه عبد العزيز، ولذلك أمرهم «بع ماشيتك وإبلك ودورك وابتعني» اتبعني إلى العالم الجديد، الذي فتح الإيمان أبوابه، فاربط مصيرك به، ففيه وحده مستقبلك في هذه الدنيا والآخرة، ولو كانت عملية توطين بدو، لأمرهم أن يأتوا بكل ما يملكون، لزيادة ثروة «المشروع الزراعي».

في هذا المعسكر العقائدي، يولد ويربي المجاهدون، المؤمنون، أو المقاتلون المتعصبون، حسب موقعك من ضرباتهم. وفي هذه المستوطنات يقوم المجتمع

---

(١) العراق بستان قريش.

النموذجي، الذي سيعطي بناته الشعور بالاستعلاء ويؤكد حقهم في إقلاق العالم لفرض نظامهم الأكمل، وهو أيضًا الذي سيجذب أفئدة الثائرين والمقهورين والمستضعفين في الأرض، من أجل التحرير أو الاستعمار والغزو حسب موقعك أيضا، من التجربة[١].

هو مجتمع يعيش للرسالة ولقهر المجتمع المرفوض، أما الزراعة أو التجارة أو التعليم، فليست إلا مجرد وسائل لزيادة القدرة القتالية لهذه المعسكرات، فالزراعة والبناء في المستوطنة اليهودية، أو كميونة ماوتسي تونغ، ليست إلا إحدى وسائل الهدف الأساسي، وهو قهر المجتمع المعادي، وتمكين المستوطنة من التغلب على حصار المحيط المعادي[٢].

---

(١) فبينما كان ابن سعود يرى في «الهجر» أداة توحيد الجزيرة، وتحقيق السلام القائم على الحق والعدل، كتب الشريف حسين، وهو الطرف الآخر المعني في القضية. «فالأصل الأصيل الذي لا يمكن قبله تقرر عمل، هو تفريق سكان الغطغط والأرطاوية والفروني وفريثان، ونحوهم من المنازل، التي تسكنها الزمرة الموسومة بالإخوان، الحادثة من سنتين، والتي هي عبارة **عن معسكرات**، وقبل تنفيذ هذا والتعهد به، أي بتفريق سكنة تلك المنازل. وأن كل شخص يذهب إلى قبيلته المنسوب إليها. فلا ثمرة لأي عمل كان، كما أشير برقيمنا بتاريخ ١٢ ذي الحجة ١٣٣٦ -١٩/ ٩/ ١٩١٨».

وبعد أن اقترح دستورًا طويلًا عريضا للاتحاد الفيدرالي ختمة بالعبارة التالية التي كانت أذكى من كل ما سبقها إذ قال: «وعلى أي حال فإن مسألة تفريق سكان الغطغط والأرطاوية والقرى المذكورات أعلاه، هي من أمهات المواد المتعلقة بقبول البقاء في رياسة البلاد».

والرسالة بتاريخ ١٧ صفر ١٣٣٧ -نوفمبر ١٩١٨.

ومهما قيل ضد الملك حسين، فلم يعرف عنه كراهية الزراعة وتوطين البدو إلى حد رفض رئاسة الجزيرة العربية ودخول ابن سعود تحت طاعته، إذا ما استمر «الإصلاح الاجتماعي». والحسين هو أحق عربي بتعريف «الهجر» فعلى يد سكانها فقد ملكه، وهو لم ير فيها إلا «معسكرات» وكان ذلك أصدق وصف لها..

(٢) وعرف فيلبي الهجر بأنها «مستعمرات من المحاربين العقائديين، على استعداد لتلبية نداء ابن سعود. وقد تمكن بحماستهم من طرد الترك من الحسا قبل أربع سنوات». وقال محمد المانع: «أصبحت حركة الإخوان سلاحا في يد عبد العزيز يستطيع إذا شاء أن يطلقهم ضد عدوه، فالإخوان لا يخافون الموت في القتال. لأن الموت في المعركة هو الطريق المضمون للجنة، حيث يؤمنون بوجود أنهار باردة ونسيم عليل، ونساء جميلات وكل ما يشتهيه قلب البدوي»!

ولم يقل لنا سعادته ما الذي يشتهيه قلب الحضري الذي ترك خدمة عبد العزيز إلى خدمة أرامكو فحتى هذا المسلم يصف لنا الجنة وما يشتهيه البدوي!

وعندما تحدث الريحاني عن الإخوان الذين يزرعون في شقرا، وصفهم كالآتي: «وألف من الإخوان المجاهدين، يحرثون في أيام السلم، الأرض، ويتعاطون التجارة».

وهذه صورة طبيعية عن جيش التحرير الشعبي، الذي لا يعيش متبطلا في زمن السلم، مترفعا عن الأعمال اليدوية. متربصا بالفلاح الحذر منه، وإنما هم مجاهدون، بلا تمييز بين جندي وفلاح، يزرعون ويحصدون في الفترة ما بين «الجهادين»، فهو في الأصل مجاهد[1]. وفي الحالات المؤقتة، منتج متواضع الكفاءة والإنتاج ٣م.

ومن المؤكد أن سلوك الإخوان، لم يكن يشجع أبدا على تصويرهم بصورة زراع، أو أولئك الذين يغنون في الإذاعة: «نفوت على الصحراء تخضر[2]» فقد روى فلبي أن الأهالي في البتراء، قالوا له «إنها كانت واحة نخيل خضراء حتى جاء الإخوان وأقاموا مستوطنة فريثان، فقطعوا كل عرق أخضر فيها».

وكل الذين عاشوا في «هجرات» عبد العزيز حدثونا عن قيم الرجال وتدينهم وسلوكهم وشجاعتهم وكفاءتهم القتالية، وما من مصدر واحد أشار ولو سهوا إلى طريقة زراعتهم أو محاصيلهم.

وكما استطاع المهاجرون الأوائل إلى يثرب الكبرى والأولى، أن يطوروا التكنولوجيا العسكرية، فاخترعوا قتال الصفوف، بدلا من «الغارة» الفردية، التي يمارسها البدوي، يهجم فردًا وينهزم فردًا، كذلك أدخلوا فكرة الخندق للدفاع عن المدن المحاصرة، حتى أن قريشًا لما رأته تعجبت وقالت: «ليس هذا من فعل

(١) كان ابن سعود إذا ضبط جنديا يدخن منعه من الجهاد معه، إلا إذا تاب وكسر السبيلة (الغليون).

(٢) «رأينا بعض مدن الإخوان ولكن زراعتهم هي من أسوأ ما رأيت في حياتي». Dame Four Months in Nejd p. ٣٥٧.

العرب» كما أدخلت لأول مرة فكرة حصة الدولة أو المجتمع في الغنائم، ونظام القرائب، وكلها مستحدثات لم يعرفها المجتمع العربي القديم. كذلك فإن فكرة «الهجر» عند عبد العزيز طرحت لأول مرة فكرة جيش التحرير، حيث الشعب كله، قادر على حمل السلاح، مع وجود نواة جاهزة، أو مستعدة بصفة دائمة للقتال، وبدلا من المركزية المفترضة في أول جيش دائم في الجزيرة[١]. قام جيش الإخوان على نظام الوحدات القتالية، القادرة على الاكتفاء الذاتي في الدفاع، وإرهاق العدو بأسلوب حرب العصابات الذي استخدم لأول مرة في العالم العربي، إن لم نقل في العالم كله. لم يكن جيش عبد العزيز، جيشًا نظاميًا على الطراز التركي، أو ما عرفته الدول العربية فيما بعد.. العسكر الذين يرهقون الدولة، ويتحولون إلى طبقة منفصلة عن الشعب، متميزة عن غالبيته، ترغب في كل امتيازات الحرب، وتتهرب من الحرب، وتتحول في النهاية إلى أداة كبت للشعب في يد الحاكم، ثم مصدر رعب للحاكم ذاته. ولا استمرت قوته العسكرية، معتمدة على «الفزعة» البدوية التي تهرع إليه وفقا لقوانين الصحراء، فهم معه مادام النصر حليفه، فإن لاحت بوادر الهزيمة، كانوا هم أول من يطعنه من الخلف وينهبون معسكره، بحجة أنه مادام منهوبا فأصدقاؤه أولى!... هذه الفزعة لا يمكن أن تكون الأساس لخطة استراتيجية بطموح الدعوة الوهابية، والبيت السعودي الذي يرأسه مثل عبد العزيز، لأنها عشوائية عفوية، لا سبيل إلى حسابها مقدما.

---

(١) وهذه هي الفكرة التي قام عليها جيش الدفاع الإسرائيلي بعد ثلاثين سنة، وإن قيل إن مستعمرة «ميتولا» الصهيونية تشكلت عام ١٨٩٦-١٣١٣ هـ -وبدأ روتشيلد إقامة المستعمرات من ١٨٩٧-١٣١٤هـ. إلا أن أول مستعمرة عقائدية -عسكرية في العالم الثالث، هي بلا شك التي أقامها عبد العزيز. فلم يطرح القتال بشكل سافر في البرنامج الصهيوني إلا بعد وعد بلفور. هذا من ناحية الشكل طبعا، أما الخلاف في الجوهر والهدف فلا يحتاج لبيان.

وهكذا بالنظام الجديد، استطاع عبد العزيز إخضاع كل القبائل التي استمرت تقاتل بالأسلوب البدوي. وهزم جيش الأتراك النظامي والدائم، وكذلك جيش الملك حسين رغم مدافعه وطائراته وخبرائه من الروس والشوام. وأقنع بريطانيا بتجنب مواجهته وجعله يفخر بقوله: إن ورائي ما لا يقل عن «أربعمائة ألف مقاتل. إن بكيت بكوا، وإن فرحت فرحوا. وإن أمرت نزلوا على إرادتي وأمري. وإن نهيت انتهوا. وهؤلاء هم جنود التوحيد إخوان من أطاع الله». ومعروف أن هتافات الإخوان هي: خيال التوحيد.. أهل التوحيد.. أخو من أطاع الله.

هبت هبوب الجنة.. وين أنت يا باغيها..

يا ويل عدو الشريعة منا.. إياك نعبد وإياك نستعين..

وقد أورد الريحاني تقسيمات الجند أو المجاهدين في الهجر. «فهناك الجهاد، والجهاد مثنى، والنفير.. فالذين يلبون الدعوة للجهاد هم دائما مسلحون وعندهم مطايا وشيء من الذخيرة، (أي أنهم القوة الدائمة) والجهاد مثنى، هو أن يجيء كل مجاهد بآخر يردفه ذلوله (أي الاحتياطي المباشر) أما القسم الثالث من الذكور فهم الذين يبقون في أيام الحرب في الهجر ليد اوموا أعمال التجارة والزراعة (غير المقاتلين) ولا يدعون للحرب إلا إذا اضطر صاحب البلاد إلى الاستنفار العام».

وكان المعسكر كله، مهما بلغ حجمه منضبطا، إذ في كل مسجد كشف بأسماء المصلين فيه، أي مجموع الذكور البالغين في المنطقة المحيطة به، وإذا عرفنا أن هذا الكشف يراجع خمس مرات في النهار لإثبات الحضور والغياب، أدركنا أيضا أن ابن سعود، اكتشف أسرع وسيلة لاستدعاء الاحتياطي، تفوق كل الأساطير التي تقال عن عملية التعبئة الإسرائيلية، إذ يمكن استدعاء الاحتياطي السعودي، خمس مرات في النهار على الأقل.

وقد زعم الريحاني أن من حق الإمام وحده الدعوة إلى الجهاد والجهاد مثنى، أما الاستنفار العام الذي لا يكون إلا للدفاع عن الوطن، فهو حق العلماء، ولكن السلطان يكتب إليهم معلنا حاجة البلاد إلى الدفاع، فيبادرون إلى استنفار الناس أجمعين، البدو الحضر والمهاجرين.

وإذا صحت رواية الريحاني، فهي جديرة بالدراسة، لأنها تبدو عكس ما تقرره الدساتير الحديثة، التي تجعل من حق رئيس الدولة إعلان الحرب الدفاعية، بينما تشترط موافقة السلطة التشريعية على إعلان الحرب الهجومية. ولكن الدولة الإسلامية، دولة مجاهدة أصلا، ولذلك فمن مهام الإمام الطبيعية ندب الناس للجهاد، وهارون الرشيد كان يحج سنة ويغزو سنة بإرادته.. أما إعلان النفير العام، أو الجهاد الذي هو «فرض عين» كما يقول الفقهاء، فإنه يعطي الإمام صلاحيات، وسلطات في الداخل وعلى المواطنين تشمل دمهم ومالهم وأحيانا حرياتهم. ومن ثم لابد من موافقة ممثلي الأمة.

وقد تحدث عبدالعزيز نفسه عن الهجر فلم يشر من قريب ولا بعيد لمشروعات الزراعة، أو بناء المدن، بل شرح طبيعتهم التطوعية أو الفدائية قال: «يجيئوننا في السلم فنعطيهم كل ما يحتاجون إليه من كسوة ورزق ومال، ولكنهم في أيام الحرب، لا يطلبون منا شيئا. في أيام الحرب يتزنر الواحد منهم ببيت الخرطوش، ويبادر إلى البندق، ثم يركب الذلول إلى الحرب ومعه شيء من المال والتمر. القليل عندنا يقوم مقام الكثير عند غيرنا.. كنا نمشي ثلاثة أيام بدون أكل، يأخذ الواحد منا ثمرة من حين إلى حين يرطب بها فمه.. نعم كانت الحاضرة أثبت قدمًا وأشد بأسا من البادية، أما الآن فالبادية المتحضرون، أهل الهجر هم في القتال أثبت من الحاضرة وأسبقهم إلى الاستشهاد».

فهو جيش من نوع خاص، علاقته بالدولة تختلف تماما، عن تلك التي تسود في الدول التي تسترضي جيشها في الحرب، وتنساه في السلم. أما هؤلاء، فتتكفل بهم الدولة في السلم[١]، ويتكفلون هم بالدولة والوطن في زمن الحرب. كما أن الملك يعتبرهم حالة ثالثة، فهم لا بدو ولا حضر، «أهل الهجر» وحتى إذا كان استخدم تعبير: «البادية المتحضرون» -الذي نعتقد أنه من إنشاء الريحاني[٢]- فقد شهد أنهم أكثر قوة وثباتا من الحضر والبدو معًا، أي أنهم حالة ثالثة.

---

(١) لأنهم غير منتجين.

(٢) أو لأن الملك كما جاء في أحد التقارير كان يتحشى -قدر الإمكان- الحديث عن «الإخوان» مع الريحاني.

القوة الذاتية

في سنوات الأزمة العامة للعالم الإسلامي (١٩٠٨-١٩١٣ =١٣٢٦-١٣٣١هـ) والدولة العثمانية تنهار كالعهن المنفوش تحت ضربات الدول والإيالات المسيحية، والعالم العربي كالغنم في اليوم المطير، قد جرد من كل وسائل الدفاع، فكر عبد العزيز في الحل الوحيد وهو بناء قوة ذاتية، تقهر كل القوى المحلية، وتكفل القدرة على مقاومة الضغوط الخارجية، وإقناعها بالنزول على إرادته، والتكيف مع الواقع الذي يفرضه، وإلا كان عليها المخاطرة بمقاتلة قوته هذه.

فتش عبد العزيز في ترسانته، بل لعله تأمل كل الترسانة العربية والإسلامية، فلم يجد إلا الإسلام، رسالة البيت السعودي، وسبب مجده، ومبرر حكمه، فكانت الهجر والإخوان الذي فأجأ بهم الأتراك في الأحساء، ولو أن المشاركة الإخوانية كانت بسيطة نظرًا لحداثة سن التجربة[1]. ولكن الروح الجديدة، يمكن استشفافها فيما جرى من خطب وحوار قبيل الهجوم على الأحساء، ثم روع بها البعثة البريطانية في ١٩١٧-١٣٣٥ هـ لتصبح الحقيقة الأولى في الجزيرة العربية خلال السنوات الخمس عشر التالية.

(١) على آية حال: راندال باكر قال عن الإخوان: «وهابيون متعصبون وهبوا أنفسهم لنصرة الدين بالكلمة والسيف، وجعل تاريخ الحركة سنة ١٩٠٨-١٣٢٦هـ وهو يعزز القول بأن لهم دورًا في فتح الأحساء. أما الأرطاوية فقد اتفق مع الرأي السائد بأنها أسست عام ١٩١٢-١٣٣٠هـ».

ورغم أنه ما من دراسة كاملة، قد أتيحت لنا عن الحياة داخل «هجرة» من هذه «الهجرات». إلا أن بعض المعاصرين قد تركوا انطباعاتهم من خلال مقابلاتهم مع الإخوان، وإن كانت كلها من طرف واحد، وبانطباع شخصي غير محايد، بل معاد في الغالب.. إلا أنه يمكن استشفاف ملامح هذه الظاهرة، وهذا الإنسان الجديد الذي شكله الإيمان(١).

وقد عرف الريحاني الإخوان بقوله: «الإخوان هم الفئة المحاربة، الفئة المتعصبة، الفئة المدينة (دين أي تمذهب بمذهب الوهابية في اصطلاح نجد) جديدا في الوهابية. الإخوان هم جنود عبد العزيز بن سعود الذين كانوا بالأمس من العرب الرحل، من البدو الجاهلين، فدينوا، أي دانوا بدين التوحيد فصاروا مسلمين».

والريحاني شاهد الإخوان، في عصر الفتوحات، والزخم العقائدي، الذي يتسم «بالترفع» أو استعلاء المؤمن الذي هو أرضية الاستشهاد والبطولة، والريحاني لم يحب الإخوان، لأسباب مفهومة، فهو المسيحي اللبناني الذي هاجر للولايات المتحدة لأسباب دينية، الذي احتج على ثورة الشريف «العلمانية» لاستشهادها

(١) من المؤسف بالطبع أنه لم تتح لنا الدراسة الوافية عن الحياة في ذلك المجتمع النموذجي الفريد من نوعه ولكن الأخبار المتناثرة تؤكد حالة عقائدية من اللواتي تغير مجرى التاريخ، وقد وصف هاريسون الرياض عام ١٩١٨-١٣٣٦هـ فقال: «هذه المدينة يعيش سكانها للعالم الآخر. المئات يدرسون في المساجد ليتخرجوا وعاظا يتوجهون لهداية القبائل البدوية. إنها مركز نظام تعليمي ديني يمتد إلى كل قرية في وسط الجزيرة، ويقدم التعليم للجانب الأكبر من ذكور المدن والذي يتغيب عن الصلاة يضرب. ومن الممكن القول بأنه ما من مدينة يهتم رجالها بالعالم الآخر أكثر من اهتمامهم بهذا العالم مثل الرياض. وهم لا يعرفون العشاء المتأخر. بل يأكلون الوجبة الأخيرة قبل الغروب بساعة ليكون لديهم الوقت الكافي للقراءة والعبادة قبل النوم. وهذا هو البرنامج المعتاد حتى في بيت عبد العزيز نفسه».

PAUL HARRISON-AL Riadh capital of Nejd. In Moslem World 8) 1918 pp. 418-19

بسورة البقرة. رأى نفسه وسط حركة تحاول أن تعيش وأن تعيد حرفيات تاريخ صدر الإسلام، بالإضافة إلى انه تعرض لمعاملة قاسية من بعضهم، ومع ذلك فقد كان له من شرف الكلمة، الحد الذي جعله ينقل لنا الكثير من الحقائق، والانطباعات الصادقة بغض النظر عن مشاعره، وتفسيراته.

وصف سلوك «أخ» من قاع المجتمع، رافقهم في رحلة، فكان رافضًا لمسلكية الجميع: اللبناني الأمريكي المسيحي، والنجديين من غير الإخوان على السواء مما يجعله سلوكه موقفا عقائديًا وليس عنصريًا ولا طائفيًا..

قال الريحاني: «إن الإخوان قد روى عنهم الموالون، والمعادون[١]، أخبار البطولة والشجاعة التي اشتهروا بها، قالوا إنهم أبطال المسلمين، وقالوا إنهم شياطين الدين، فلا الحجاز ينساهم، ولا الكويت يذكرهم بالخير، ولا العراق يحسن بهم الظن، ولا الجوف ولا الجبل، ولا القصيم يكبر في ساحة الوغي سواهم. ويردد خوفًا وإعجابًا غير اسمهم. الإخوان زرعوا الهول في كل مكان. الإخوان يحاربون مستبسلين مستشهدين. وما كانت البطولة بغير الإيمان الحي، والثبات في الجهاد، لولا ذلك ما كان الإخوان، وما كان ملك ابن سعود، هبت هبوب الجنة، أين أنت يا باغيها؟ وكل يبغيها.. لذلك يحاربون وقلما ينهزمون. الجنة أمامكم والنار وراءكم فمن منهم يتقهقر؟ ومن منهم يولي مدبرا؟ وهم شوكة ابن سعود أيام الحرب، وهم

---

(١) وقد اعترف ديكسون في أواخر حياته، وبعدما زال خطر الإخوان على الإمبراطورية.. اعترف بأن إشاعات القسوة عنهم كانت من تدبير الأجهزة فقال «رغم أن الكثير قد كتب عن قسوة الإخوان وإرهابهم. إلا أنني يجب أن أقول **اليوم**: إن هذه الصورة قد بولغ فيها **عن قصد وتصميم لخدمة أهداف سياسية في ذلك الوقت** فقد خامرني شعور الإعجاب بالإخوان، وربما كان ذلك للسحر الخاص في الرجال المؤمنين حقا بالله المخلصين لإيمانهم (من أي دين)، الذين يعتقدون أنهم مكلفون بتطهير الدين من الرجس. وأنا أعترف بأنني عندما تعرفت على بعض الإخوان، وجدت فارقا قليلا بينهم وبين البدو الطيبين العاديين، لقد كانوا محبين لنسائهم، عطوفين على أطفالهم وجمالهم وخيولهم كالآخرين». (الكويت وجيرانها).

أيام السلم الشوك في غصن الدين، يحملون سلم التوحيد بالعرض، ويزعجون أحيانا حتى سلطانهم العزيز. حدثت كثيرين منهم، فما وجدت وراء اللسان غير قلب فيه أتون من الإيمان، فلا يهاب صاحبه الموت، ولا يخاف غير الله. ولكنك تسألني: أمن روح هناك فيها شيء من الحنان؟ أم من عقل فيه ذرة من البرهان؟[١]».

ثم يقدم لنا قصة هذا الأعرابي نوار..

«وما نوار غير راعي بعير.. اكتراه منه شاب كان في خدمة السلطان ليسافر معه إلى القصيم، وطلب أن يرافقنا». واكتشف نوار أن خادم السلطان يدخن ويغني «فيتلو» نوار إذ ذاك التعويذتين[٢]. وعندما رآه لأول مرة يشعل السبيل[٣] كاد يجن، فوثب فجأة إلى الأرض كأن نارا اشتعلت تحته وهو يردد بصوت عال: أعوذ برب الفلق من شر ما خلق.. أجرنا الله من النار.. أجرنا الله من النار.. والربع كلهم يضحكون.

«كان الأخ نوار مع ذلك لطيفا وذا مروءة تشكر، فيعاون الخدم، ويرعى الركائب عند المراح، ويجمع الحطب ويشب النار، ولا يأكل إلا قليلا، رافقنا هذا البشر الغريب، أخانا، كرها، عشرة أيام وما من مرة سلم علي أو كلمني أو رد سلامي. مرضت أثناء السفر بالحمى فكنت ذات يوم على الفراش في خيمتي ونوار واقف اتفاقا في الباب، فقلت مازحًا، بل كنت أضايقه عمدًا: يا نوار أنا «مصخن» (مريض) فمال بوجهه إلى هاتفا: والحمد لله!».

---

(١) عن الحنان هناك روايات أخرى تؤكد أنهم كانوا يقتدون بالصحابة الذين قال فيهم ﷻ: رحماء فيما بينهم، أشداء على الكافرين. ويعلمون بقوله تعالى «وليجدوا فيكم غلظة» «وأغلظ عليهم».
أما البرهان فهو مسألة نسبية ويمكن الجدل حوله إلى ما لا نهاية في كل عقيدة.

(٢) صحتها «المعوذتين».

(٣) الغليون الذي كان يدخنون به.

فرماه الريحاني بعصاه ظانًا أنها وقاحة أو وحشية، ثم قام إليه مستعطفًا أن يصلي من أجله ويذكره في صلاته ليشفى. ومن الطبيعي أن يبتعد «الأخ» عنه «متأففًا» من هذا المفهوم المخالف للإسلام، فهو يصلي عليه إذا مات مسلمًا، أما أن يصلي من أجله، فليس ذلك من ديننا في شيء، فلا أحد يصلي لأحد! ولا أحد صلاته أفضل من صلاة الإنسان لنفسه.

«وبعد تهديده بالذبح، وهو وحيد بين «خمسة عشر كلنا ندخن ونغني»: قبل أن يدعو الله: «الله يجيرنا وإياك من النار». وهذا منتهى التساهل منه، لم يطلب لي الشفاء، كلا بل أشركني من فضله، بالاستجارة من النار، نار الجحيم. كل الإخوان المدينين جديدًا، هذا الرجل. كلهم نوار».

ثم يحدثنا عن المطوعة: «أما العمامة البيضاء الشبيهة بالضمادة، فإن هي إلا نصف ذراع من الخام يلفه المطوع فوق الغترة على رأسه ويشكر الله ثم يحمل عصًا من الشوحط أو قضيبًا من الخيزران، ويجوب البلاد في سبيل التوحيد.. المطوعة يعلمون الناس الدين، والعلماء يعلمون المطوعة، وكلهم يوم الجهاد «خيال التوحيد أخو من أطاع الله» وكلهم في أيام السلم فلاسفة في التقشف والقناعة، في الشدة والصبر، في الفقر والتقوى، ترى الأخ في الطريق حافيًا لا يحمل غير عصاه، ينفخ الهواء في أطماره فيكشف عريه، وقد يكون مشى يومين أو ثلاثة دون أن يذوق الخبز أن التمر فتسأله بعد السلام: كيف أنت؟.. فيجيبك بصوت عريض، وقلب وطيد كأنه يمثل دورًا في رواية: بخير ونعمة والحمد لله!.. وقلما تسمع كلمة منهم في اليأس والشكوى».

لا شك أن اللبناني الأمريكي، الذي جاء من نيويورك، ليوحد الملوك والأمراء العرب، قد أحس بالقهر أمام عزة «راعي البعير» هذا والمطوع الذي يلبس جلبابا

فوق جلده العاري ولا يملك إلا إيمانه وهذه العصا في يده، ويهتف بصوت مرتفع «الحمد لله» ٤ م!

ولكن هذه العزة «المعنوية» هي كلمة السر في كل الثورات والحروب التحريرية، فلا شيء تعطيه الثورة للشعوب المتخلفة المقهورة، أقوي من هذه العزة.. عندما يقتنع الفلاح الصيني الأمي المنهوك القوي بالأفيون، بأنه محرك التاريخ، ورسول التقدم للجنس البشري ضد الإمبريالية أو الشيطان، ضد حضارة متفسخة لا مستقبل لها، منهارة، مليئة بالشر والانحلال.. نفس الشيء لزارع الأرز الفيتنامي[1]، وقبل ذلك كله راعي البعير في صدر الإسلام، الذي بلا شك أثار أعصاب القياصرة والأكاسرة باعتبارهم نجسًا ومشركين عبدة أوثان متخلفين.. عندما كان يخفق الهواء في جلبابه فيكشف عريه، وهو يصرخ مستنكرا «أتريدها قيصرية أو كسروية؟» موقنا أنه جاء بالنظام الأفضل من الكسروية والقيصرية، وأنه أسمى وأرقى من أن يحكم كما حكم الرومان والفرس.. لولا هذه العزة لما كان من الممكن أن يقهر راعي الإبل، هؤلاء القياصرة والأكاسرة. ويتفوق على حضارتهم وتكنولوجيتهم المتقدمة. ولا كان الصيني سيقهر القوى الأجنبية ويتخلص من الأفيون والأمية بل وقبل الاثنين، أما كان الروماني يطلق على العالم كله: «البرابرة» وهو وحده المتحضر!.. ثم الفيتنامي، الذي انتصر على الولايات المتحدة بهذا الاعتزاز، ولن ينتصر على محاولة الروس استعباده إلا إذا انطلقت في قلبه شرارة استعلاء جديدة، تجعله يرفض النموذج الروسي كمثل أعلى!.. هذه القناعة، التي تعطيه قوة الصبر، على المستوى المتدهور، ليس صبر العاجز، بل صبر المقاتل من أجل تغييره جماعيًا، وليس من خلال حل فردي.. هذه «الرواية» التي اندمج فيها

---

(١) نفس الشيء نجده في كتابات الغربيين عندما يصفون الحكم السيء بأنه «شرقي».

الجميع، هي رواية تغيير التاريخ، والذي يعيش خارجها هو وحده الذي يستطيع أن يلاحظ حالة التقمص، ويرى فيها ظواهر غير بشرية، أما أبطالها فهم يعيشونها حقيقة، ويفرضونها على التاريخ بإيمانهم. وبعد فكلنا نمثل في رواية، بعضنا لا تعلو آماله عن دور الكومبارس في رواية عالمية، أبطالها من حضارات أجنبية، يستذلون أمته، ويحتقرون حضارته، وقلة تجبر التاريخ على أن يلعب دورًا ترسمه هي في روايتها الخاصة، وأولئك تفوز أمتهم بالمجد والتحرر والقوة!

أما رفض التدخين، وهو موقف وهابي قديم، فإنه في الحقيقة موقف وطني منذ أن حرض جمال الدين الأفغاني، مفتي إيران على إصدار فتواه بتحريمه، فكان أول صدام مع الاحتكارات البريطانية التي كانت تحتكر تجارة التبغ، وقاتلت لفرض بيعه على حساب صحة ومدخرات الإيرانيين تماما كما قاتل الأسطول البريطاني ضد «المتخلفين المتعصبين الصينيين» الذين حاولوا منع بيع الأفيون البريطاني لمواطنيهم الصينيين البؤساء، فقيل فيهم ما قيل في تعصب الإخوان ضد التبغ. وما تنفقه أوروبا وأمريكا الآن على محاربة التدخين، بل واضطرار الشركات تحت ضغط الرأي العام، والحكومات المنافقة لكتابة: «احترس هذا الدخان الذي نبيعك إياه خطر على صحتك»! ورغم ذلك يسمح ببيع «هذا الخطر الأكيد» لأن الحكومات عاجزة عن مواجهة الشركات، أو الاستغناء عن الدخول الهائلة المتحققة، من إحراق صحة رعاياها، ونشر السرطان في صدورهم، أو عاجزة عن إقناع مواطنيها، أو الأخس من ذلك أن يكتب هذا التحذير داخل بلادهم، ويحذف من الدخان المعد للتصدير في البلدان المتخلفة العاجزة عن حماية رعاياها! لو تأملنا ذلك كله، لاسترحمنا واستغفرنا لذلك المطوع النجدي الذي استطاع أن

يجعل راعي البعير «نوار» يفر مستعيذًا بالله، إذا ما شم رائحة التبغ، أو رآه يشعل.. فحمى صدره ورصيد بلاده من العملة الصعبة!

أما حسن أخلاق «نوار» وخدمته للجماعة، وتطوعه بالعمل.. الخ. وهو ما يشهد به الريحاني فهي صفات المؤمن، صفات صاحب القضية، أو العقائدي الذي يعرف أن سلوكه محسوب على القضية.

ورفضه الدعاء له بالشفاء، هو مزيج من عدة اعتبارات وقيم، فهو يعرف أن الدعاء أو الشفاعة أو حتى الاستغفار لم يقبل من رسول الله في المشركين، وهو كما قلنا، لا يفهم معنى أن يصلي رجل لرجل! لماذا لا يصلي الريحاني لنفسه؟.. وإن كان يؤمن بأن صلاة «نوار» أكثر فعالية، فلماذا لا يدين بدين نوار؟! الأحرى أنه يسخر منه. لقد دعا نوار له ولنفسه بدعاء مقبول ومنسجم مع مفاهيمه.

غير أن الريحاني أحسن بتفوق راعي البعير، وسجل للتاريخ أن هذا التطور، قد حدث لكل الإخوان الجدد.. وهذا هو السر في كل ما سجله عن تفوق الإخوان وانتصاراتهم وشجاعتهم وبطولتهم. أما أن القادم من أرض كان يجري تمزيقها، ورسم حدودها وتحديد جنسيات سكانها في باريس ولندن لا يجد ذرة من الحنان في هذه الروح أو شيئا من البرهان في هذا العقل فتلك مشكلته وحده.

وبنفس المنطلق الناقد، روى «حافظ وهبه» قصة رفيق آخر من مكانة أعلى: فقد قال إن علماء نجد، قد انخفض مستواهم العلمي عن علماء عصر محمد بن عبد الوهاب، ومن ثم فقد ضاق أفقهم، وليثبت ذلك روى الآتي:

«في سنة ١٣٤٦ (١٩٢٨) كنت مع الشيخ عبد الله بن حسن[١] كبير علماء نجد ورئيس القضاء الآن، في زيارة للتفتيش في المدينة المنورة، فنزلنا على ماء

(١) والد الشيخ حسن آل الشيخ وزير التعليم العالي.

في وسط الطريق، وهناك التقينا بمستر فيلبي (قبل إسلامه) وكان آتيا من ينبع فبعد التحية دعوته للأكل معنا، فعندما جلس معنا إلى المائدة، سأل الشيخ: من هذا الرجل؟.. فقلت له: هذا فيلبي.. فقال أهو نصراني؟ قلت له: نعم. فقال أعوذ بالله. أتقوم للنصراني[١] وتصافحه وتهش في وجهه وتدعوه للأكل معنا؟.. هذا كثير!.. فلما سمع مستر فيلبي ذلك منعا للمشاحنة ثم أخذ الشيخ يؤنبني على عملي...».

وقد دافع حافظ وهبه عن نفسه بنقطتين، الأولى وقد «فوتها» الشيخ وهي: «أنه يطمع في إسلام الرجل»! والثانية، وهي مصرية أزهرية، أن الملك عبد العزيز يقوم لفيلبي ولغيره تأليفا لهم ودفعًا لشرهم وكثيرًا ما يدعوهم لمائدته، وقد رفض الشيخ هذا الدفاع قائلًا: «الملك قد يفعل الشيء لمصلحة يراها، وهو غير حجة في عمله وتصرفاته، وكثيرا ما أنكرنا عليه هذا وأمثاله».

ولكن حافظ وهبه شهد مع ذلك، بأن الشيخ كان نعم الرفيق المواسي، أثناء مرضي، فقد كان لا يرضى إلا أن يسقيني الدواء بنفسه: «مما يدل على ما فطر عليه هؤلاء من الإخلاص وطيبة القلب، لا يحملون حقدًا لأحد.. ولا يبغضون إلا حيث يعتقدون أن منكرًا أقترف أو أن حقًا من حقوق الله قد أضيع أو أهمل». وهي نفس شهادة الريحاني لراعي البعير «نوار».

ألسنا أمام حركة عقائدية من الطراز الأول، استطاعت أن تعيد صياغة أفرادها، أو أن تغسل مخهم، إذا شئت، بحيث أصبح رئيس القضاة، وراعي البعير، يمتلكان نفس العقلية، ونفس الأخلاق، ونفس السلوك والمنطق والمفاهيم.. وأهم من ذلك نفس العزة والاستعلاء المؤمن في مواجهة الأجنبي؟!..

---

(١) لاحظ أن فيلبي يفهم العربية وتلقى الصفعة علنا وفي وجهه حتى أنه قام ولم يأكل!

نعود لفيلبي... الذي عاش أيامًا قاسية خلال مهمته في بلاد ابن سعود، أذاقه الإخوان فيها ذل الكافرين على يد المؤمنين، حتى وإن كان الكافر ممثل بريطانيا العظمى، والذي يدفع الإعانة الشهرية لحكومتهم «عن يد وهم صاغرون»! ويلح في طلب الحملة على ابن رشيد. ومع ذلك فقد سمعهم يتناقشون في جلساته: ما رأيكم دام فضلكم في جواز السلام.. ليس على الكافر.. فهذه مفروغ منها، بل على من يتعاملون معه من موظفي الحكومة؟!..

«مرة كان اثنان من الإخوان يمران أمام الخيمة، فرأيا «مناورا» (مرافقه) جالسا.. فسأل أحدهما الآخر.. هل يجوز السلام عليه؟ ٥م. فرد الثاني: لا.. حول وجهك الناحية الأخرى: إنه من جماعة الإنجليزي. وهكذا مرادون أن ينظرا إليه. ومرة أخرى مر «مناور» بخيمة إخوان فطلب جرعة ماء فقيل له: لا.. أنت مشرك وخادم مشرك.. قال مناور: لم أحضر هنا لمناقشة هذا الأمر.. أطلب جرعة ماء.. أعطوني جرعة ماء» ولأن الإخوان بحنان المسلم، وربما تذكروا حديث الكلب، فأعطوه الماء ليشرب، ولكن فيلبي يزعم أن خادمه كان فاجرًا، فما أن شرب حتى هتف بهم: «لقد شربت من إبريقكم، وأنا قادم لتوي من حيث كنت قد غمست يدي في نفس طبق الأرز مع الإنجليزي، فيحسن بكم أن تكسروا الأبريق لأنه نجس» وانطلق هاربا تطارده لعناتهم!

هكذا في العقد الثاني من القرن العشرين أعلن «إخوان» عبد العزيز أن المندوب السامي البريطاني نجس، بل وتنتقل النجاسة منه إلى من يؤاكله الذي ينقلها بدوره.. الخ. مما يحتم كسر الزير والأبريق إذا لمسه من آكل ممثل بريطانيا العظمى! في وقت كان باشاوات مصر والعراق يحلمون بمصافحة المندوب السامي، ويعتبرون قمة المجد سماحة لهم بمؤاكلته.. وبعد أربعين سنة، اعتبر من انتصارات

القومية العربية بعد «نصر» السويس، قبول المومسات الانجليزيات، المرخص لهن بالبغاء الرسمي، ممارسة البغاء مع الرجال العرب! الذين لم يكونوا ممنوعين فقط من دخول أندية الإنجليز، بل حتى المومسات المالطيات أو الانجليزيات كن يأنفن من لمس العربي.. بل إن أحد الحكام العرب كان يفخر في كل مجلس بأن المعتمد البريطاني، قرين فيلبي ولكن بعد أربعين سنة، أصلح له وضع العباءة مرة، ولو فعلها فيلبي لنوار لغسل عباءته سبع مرات!..

والمرء حيث يضع نفسه!

أولئك جنود عبد العزيز.. فلا تسل عن مكانة قائدهم! ٦م.

مسكين فيلبي، ذهب إلى المكان الخطأ، فلم يكن له حظ لورنس الذي حمل لقب صانع الملوك، ولا غلوب الذي وصف نفسه بأنه كان المربية لأصحاب الجلالة، ولا كوكس أوبل، حيث كان الموظف الإنجليزي، يضع حذاءه في وجه صاحب الجلالة الملك فيصل الهاشمي الشريف! ولا حيث أمضى «الشيخ نصف نهار إلى وسطه في الماء يدفع سفينة الكولونيل بيلي».

مسكين فيلبي، كان حظه «مناور»، والإخوان الذين يتحاشونه وكأنه مجذوم بني إسرائيل فيهتفون: «لا مساس»!

أم لعله الإنجليزي السعيد الحظ، في آخر جيل إمبراطوري، فهو وحده الذي عرف أن الإنجليزي ليس أكثر من إنسان، وأن بقية شعوب العالم هم أيضا بشر، بل وفيهم من يتصرف عن قناعة بأنه أفضل من الإنجليزي!

«رئيس الوفد المرافق له يرفض أن يأكل معه لأنه نجس».

ومعظم رجال ابن سعود كانت عواطفهم ضد فيلبي ووجوده، فحيثما تجول وحيدا كانوا يعبرون له عن ضيقهم بوجوده معهم. فلا أحد من الإخوان يرد عليه سلامه، وبعضهم كان يغطي وجهه، لكي لا تقع عيناه عليه، وأحدهم جز على أسنانه وقال له: «أشهد الله على كراهيتي لك». «وسمع اثنين يتحدثنان عنه قال أحدهما: أين هو؟ أنا لم أر أحدًا ببرنيطة». «فرد الثاني: أنه يلبس كالعرب». ولما اقتربا من إحدى الخيام صاح أحدهما: ليش تجيب ها الكافر يمنا، فرد أحد كبار الموظفين: «اذكر الله».

«ولكن الأخ لم يخف بل صاح: لا إله إلا الله!».

«ولم يكن أمامي إلا أحد حلين: إما تجاهل الأمر تماما، أو إثارة أزمة كبيرة بإبلاغ الأمر لابن سعود شخصيا. وقد فضلت لأسباب وجيهة الحل الأول». «بل لقد حاول بعضهم قتله، أو على الأقل ترويعه».

«ودخل خيمة فيلبي، أخ دون أن يدري، وظل يتحدث مع مرافقه العربي، فلما خرج، وأحاط به الإخوان يسألونه لماذا دخل خيمة الإنجليزي؟ لم يجد ما يكفر به عن خطأه، إلا أن استدار وبصق في اتجاه فيلبي». «وكثيرًا ما كان الإخوان يطوفون حول خيمته، وخيمة معاونيه ليلا ونهارا ليضبطوا واحدًا من هؤلاء المعاونين يدخن[(١)]».

وهذا تفسير فيلبي الفكه الذي يروج في الغرب، ولكني أعتقد أن الطواف، أو المراقبة، كانت تستهدف ما هو أخطر من التدخين إنه الحذر الثوري الذي ضرب

---

(١) مع أن فيلبي كما سنرى أخلص في خدمة عبد العزيز إلى حد خيانة حكومته خيانة صريحة، وقد استخدمه عبد العزيز في كتابة التقارير إلى الأمريكيين للحصول على اعترافهم وموازنة الضغط البريطاني. انظر تقارير القنصليات الأمريكية في عدن ومصر والقدس.

فيلبي مثالا آخر عليه[١].

فقال إن أحدهم رأى فيلبي يصور ويكتب فجاء ووقف ببندقيته فوقه. وحاول المرافق أن يلاطفه بمجاذبته أطراف الحديث (ربما ليعجم عوده أو يرشيه) ولكن «الأخ» يجيب إجابات «الكادر الثوري»، الذي لا يرغب في التبسط حتى لا ينفذ إليه مكر العدو:

- منين الأخ؟
- من قريب!
- من الإخوان؟
- إذا أراد الله!

فبادر فيلبي وصاحبه بالهرب ليعترضهما آخر سائلا: «من أنت وماذا تكتب»؟!

وحذر المؤمنين من فيلبي، حذر وطني بالدرجة الأولى، وإن اتخذ أشكالا أقل وعيًا في التعبير، فقد روى حافظ وهبه أن الملك أخبره في شعبان ١٣٥١ -ديسمبر ١٩٣٢. أن بعض رجال الدين، حضروا عنده سنة ١٩٣١ -١٣٥٠هـ لما علموا بعزمه على إنشاء محطات لاسلكية في الرياض، وبعض المدن الكبيرة في نجد.. فقالوا يا طويل العمر، لقد غشك من أشار عليك باستعمال التلغراف، وإدخاله في بلادنا. وأن فيلبي سيجر علينا المصائب، ونخشى أن يسلم بلادنا للإنجليز» فقال لهم الملك: «لقد أخطأتم فلم يغشنا أحد، ولست بقصير النظر لأخدع بخداع المخادعين. وما «فيلبي» إلا تاجر -وكان الوسيط في هذه الصفقة -وإن بلادنا

(١) لو كان لدينا هذا الحذر الثوري هل كانت تصور مطاراتنا أو كانت الأفلام المعادية لنا تصور في قلب بلادنا؟!

عزيزة علينا، لا نسلمها لأحد إلا بالثمن الذي استلمناها به[١]». «مسألتان لا أسمع فيهما كلام أحد لظهور فائدتهما لي ولبلادي. وليس هناك من دليل أو سنة عن رسول الله يمنع من إحداث اللاسلكي والسيارات».

ورغم أن فتوى «الإمام» صحيحة، إلا أن معظم المؤرخين للمملكة، استهوتهم هذه الأقاصيص، ولم يملوا من تكرارها، مع الحرص لنسبتها للعلماء للزعم بأن الدين عاقهم عن التقدم. ولم يحاول أحد أن ينفذ وراء تلك القشرة الفكهة حيث ثبت دائما، ومن روايات حافظ وهبه نفسه، أن البدوي أو الإنسان المسلم عمومًا، أقدر على التعامل مع الحقائق العلمية، فما أن يفهم سرها، حتى يتقبلها بيسر وسهولة، وذلك للعقلية العلمية التي يتميز بها الإسلام: «وجعلنا لكل شيء سببًا» والألفة التي يعيش بها المسلم مع الكون، وللإيمان بعدم محدودية القدرة الإلهية، وبما أن كل شيء بإرادة الله، فلا حدود لما يمكن أن يعلمه الله للإنسان[٢]، وهذا الرفض للمخترعات قبل فهم سرها، يدل على عقلية أكثر علمية، وأكثر احتراما للنفس، من المتخلف الذي يتعاطى هذه المخترعات، دون أي انفعال، رغم مخالفتها لكل قوانين عالمه، وجهله المطلق بفكرتها تماما كتعامل القردة مع الآلات. إن الخوف من المجهول هو أول درجات العلم. أما لماذا المعارضة في هذا النوع من التكنولوجيا؟ مادام المشايخ من عهد فيصل بن تركي، يتقبلون طلمبات الماء الميكانيكية، وهي تعمل كالشيطان، وتسحب كمية من الماء تفوق قدرة أي إنسان، على النتح من الآبار. وهم جميعا يستخدمون البندقية، مع إقرارهم

(١) أي بالسيف.

(٢) وهذا ما لاحظه توتشل مؤلف «العربية السعودية» عندما حاول هو وجماعة من الأمريكيين ترويع البدو في شركة أرامكو بادعاء أن الراديو بدخله طائر، فلم ينجحوا وقال «إن المسلم المؤمن يتقبل كل شيء على أساس أن إرادة الله قادرة على كل شيء. ولذلك من النادر أن يدهش».

بأنها من صنع «الكافر» وما أتيحت لهم فرصة لاستخدام المدافع إلا واهتبلوها، وفي كل بلدان العالم الثالث سمعنا عن تحطيم أعمدة التلغراف، وتخريب السكة الحديد، حتى من قبل الهنود الحمر في أمريكا. والحقيقة، لمن يمعن النظر، هي وجود دافع وطني، هو الرغبة في الاحتماء خلف أسوار التخلف. خوفًا من أن تسهل هذه المخترعات للأجنبي -وهي فعلا تسهل -غزو بلادهم، فالأجنبي هو مخترعها ومالكها ومستخدمها ضدهم. ولذلك فهم ضد هذه المخترعات، لأنها تأتي بالعدو، ولأنها أيضا تأتي في شكل امتيازات وإدارات أجنبية، وكل هذا يفتح الباب للتدخل الأجنبي، ويحمل خطر الارتباط فالتبعية، وكل المنطقة فقدت استقلالها، وكانت البداية امتيازًا حصل عليه خواجا مثل فيلبي. وحتى اليوم، مازلنا نتخوف عن حق، من عقد صفقة سلاح مع دولة كبرى، أو منح امتياز لشركة أجنبية مهما كانت قناعتنا بجدوى المشروع. ومن الهند إلى مصر، في القرن التاسع عشر وإلى منتصف القرن العشرين، كانت هناك «الشركة» التي يتمثل فيها الاستعمار، ويتمركز الكفاح الوطني في مقاومتها، ويتهم الوطنيون بالتعصب من شركة قناة السويس إلى شركة ماكنزي للخمور وغيرها في البحرين إلى شركة الهند الشرقية، إلى شركة ماركوني التي يمثلها فيلبي الذي كان إلى عهد قريب ممثل بريطانيا العظمى، العدو الديني والتاريخي والسياسي.. الخ.. فكيف لا يتخوف علماء نجد؟!

إن الوطنية تتخذ أشكالا شديدة التعقيد في التعبير عن نفسها، ولا يجوز أن نقف عند الشكل، وننسى الجوهر. وإلا فماذا نقول عن الطلبة المصريين الذين أحرقوا كتب اللغة الإنجليزية في الأربعينات لكي لا يتعلموا لغة المستعمر والصينيين الذين حطموا تماثيل فينوس، والروس الذين حذروا من الموسيقى الكلاسيكية.. الخ؟.

هذه المعاناة التي صبر عليها فيلبي لأسباب مختلفة، لم تمنعه -كما قلنا -من تسجيل بعض الأحداث والملاحظات المهمة عن ظاهرة الإخوان.

فخلال الحملة «الوهمية» على حايل، عندما كان هو وعبد العزيز يتبادلان الخداع، فيتظاهران بالاهتمام بابن رشيد، وانتباههما مركز على الشريف وأولاده.. رأى فيلبي منظرًا غريبًا، ليس على الجزيرة وحدها، بل في العالم الإسلامي كله.

عقد ابن سعود مجلسًا حربيًا، وتكلم فيصل الدويش عن الإخوان: «لقد جئنا لحرب ابن رشيد، فدعنا ننهي أمره» فيرد ابن سعود «لقد سررت من نصائحكم وحماستكم، ولكن يجب أن تعرفوا أننا مقدمون على أمر خطير، فمن أراد الشهادة فليتبعنا، ومن شاء فليعد إلى زوجته. فتعالى بكاء[١] الإخوان، وأقسموا على الموت، وبدأوا يستعدون للشهادة، بالتوبة عن المعاصي، ثم كتب كل منهم وصيته، وجرى جمع الأوراق التي كتبت فيها الوصايا، وأرسلت إلى بيت كل منهم».

«وجاء جندي يسلم إلى عبد العزيز مائتي جنيه ذهبا أخذها غنيمة، فسأله عبد العزيز من رآك تأخذها، رد الرجل: الله وحده».

ويقول فيلبي: «كان واضحا أن الإخوان غير مرتاحين[٢] بهذه الحملة على شمر «الوهابيين»، ويخشون أن تكون هذه الحملة على ابن رشيد هي ثمرة لعبة سياسية لا يرتاحون إليها، وقال فيصل الدويش في حوار عنيف مع ابن سعود: «لم نفعل شيئا لمساعدة إخواننا في خرمة، المهددين بقوات الأشراف، ولا شيء

(١) بكاء الإخوان الكثير كان عملا بالآية الكريمة «وممن هدينا واجتبينا. إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا».

(٢) وقال أرمسترونغ «حتى أبوه عبد الرحمن الفيصل كان ضد التوجه إلى حايل ونصح (عبد العزيز) بمتابعة الهجوم على الشريف حسين ولكنه رفض وعقد اجتماعا عامًا للإخوان أقنعهم فيه بالهجوم على حايل».

لمواجهة اعتداءات العجمان في الشرق، لا نريد إلا السماح لنا بمهاجمة أعداء الدين: إصدار أمرك يا إمام وسنتبعك ضد الأشراف أو العجمان» فكل الشواهد كانت تؤكد -والكلام لفيلبي -تعرض إخوانهم للعدوان من قوى تدعمها بريطانيا معنويا وماليا.. فهل يمكن أن يكون تحركهم بعيدًا عن هؤلاء المعتدين، وبالحاج بريطاني (أي بالاتجاه نحو حايل بناء على طلب الإنجليز) إلا سقوطًا في مخطط الأعداء؟! وقد أكد فيلبي أن «إلحاحه من أجل الحملة على ابن رشيد ضاعف شكوكهم ومخاوفهم».

ولذلك شن ابن سعود حملة توعية لتبرير الهجوم على ابن رشيد وتأجيل تصفية الأشراف، وتأديب ابن صباح وهذا بعض مما نقله فيلبي من أحاديث ابن سعود: «أنتم جيشي الذي أعتمد عليه. أيام الجاهلية، والنهب والسلب، كنتم جيشي، والآن وقد هداكم الله لنعمة الإسلام والتوحيد أنتم جيشي الذي عليه أعتمد بعد الله. لا تظنوني غافلا عما يلزم. ولكن بالنسبة للشريف لا تشغلوا بالكم به، فإما أن يوقف الإنجليز عدوانه على خرمة، وإلا فأني أعدكم، بأنني سأهاجمه، ولكن تذكروا أن هذا الأمر ليس من شئونكم، إذا امتلكت حائل، فسيسلم الإنجليز بحكمي على كل قبائل الصحراء، وعندها لن نواجه متاعب من هؤلاء المتربصين على حدودنا».

«ثم جاء علماء الوشم، وأفتوا أن ابن رشيد هو العدو، عندها أجهش الإخوان بالبكاء، على عادتهم عندما يتبينون خطأهم، واستغفروا الله على شكهم في الإمام».
ويقول فيلبي إنه في عام ١٩١٨-١٣٣٦هـ «كان الشعور في أوساط الإخوان أن تعاون عبد العزيز مع بريطانيا يحيد به عن طريق الإسلام».

وبعد الحملة «الاستعراضية» التي شنها ابن سعود لترضية «فيلبي» والتي وصلت إلى أسوار حايل، عقد ابن سعود مجلسًا حربيًا لبحث الخطوة التالية، وهل يفرض الحصار حول حايل حتى تستلم؟ ولكن «المسلمون ما رأوا ذلك» وقالوا ليس بيننا وبين ابن رشيد عداوة خاصة. وقد حصلنا على ما نريد (الغنائم) فلنعد إلى بيوتنا. وكان هذا قرار المجلس.

وعلق فيلبي مغتاظًا: «إن ابن سعود والمجلس بهذا القرار، أضاعا الفرصة التي أتيحت للقضاء على ابن رشيد نهائيًا من الساحة العربية، ولم تسنح هذه الفرصة مرة أخرى إلا في عام ١٩٢١-١٣٣٩هـ.

وقد شرحنا فلسفة ابن سعود في هذا الأمر، في الفصول السابقة. ولكن ما يعنينا هنا، هو هذا الجيش الواعي سياسيا، الذي يطلب ويحصل على تفسير سياسي لأهداف قيادته، ويناقش بحرية كاملة أسباب ونتائج التحرك العسكري، بل ويصوت على الاستمرار في الحرب أو الانسحاب.. والذي يتحرق شوقا لمقاتلة عملاء بريطانيا[(١)]، في نفس الوقت الذي كان فيه جنرالات الجيش العثماني من العرب مثل نوري السعيد يقاتلون تحت إمرة الضباط الإنجليز لفتح بلادهم للاستعمار البريطاني، ولم يفكروا في السؤال مجرد السؤال عن مصلحتهم في هذه الحرب التي أعلن الحلفاء ونشروا برنامجهم لتقسيم أوطان هؤلاء العرب بعد كسبها..

الإخواني في نجد، فيصل الدويش البدوي، رفض أن يفتح حايل، إذا كان ذلك يتفق ومصلحة بريطانيا، حتى وإن كانت راية التوحيد سترتفع فوق حايل.

وقد سجل فيلبي خلال تلك الحملة، بعض رسائل أهل خرمة لحث ابن سعود على التقدم لمساعدتهم ضد غزوات الأشراف.. وأورد نموذجًا من رسالة وردت

(١) قال فيلبي: «إن الإخوان كانوا يفسرون رؤية الحية في الحلم بأنها الشريف حسين».

بعد مقتل الشريف «محسن بن تركي» أحد زعماء خرمة، المنشقين على الأشراف، والذين انضموا إلى ابن سعود مع خالد بن لؤي: «وكانت الرسالة تتضمن تقريعا عنيفا لابن سعود لتقاعسه عن نجدة إخوانه: «فإذا كان عرض الدنيا هو ما يمنعك عن نصرتنا، فأخبرنا يا عبد العزيز لنلتمس العذر لك. لقد فشل رسلنا من الرجال في إثارة همتك، فسنبعث بنسائنا في المرة القادمة، لإثارة حمية أهل نجد». ومع الرسالة بعث أمير خرمة، بأصول ثلاث رسائل كان قد بعث بها الشريف عبد الله بن الحسين ينذر بها أهل «الهجر» في خرمة. كما بعثوا بمدفعين غنموهما من الأشراف، والأمر المحير حقا، هو هزيمة جيش الأشراف الجيد التسلح، مرتين في شهر واحد، ضد حفنة من القرويين والبدو».

والجواب على حيرة فيلبي، موجود في رسالة أهل خرمة: المواطنون الأحرار الذين يستطيعون مخاطبة إمامهم بهذه اللهجة، هم الجند القادر على صنع النصر. وهم قد نالوا حق المخاطبة والنقد، لأنهم لا يطلبون الاستسلام، بل الحرب والمزيد من الحرب. وعلى هؤلاء كان ابن سعود يعتمد عندما قال لفيلبي عشية معركة تربة، وعندما قرر الإنجليز إغلاق الملف السعودي، ودعم الكيان الشمري بزعامة ابن رشيد، أو تسليم الجبل وحايل لأحد أولاد الشريف[١]..! قال ابن سعود:

---

(١) أشرنا إلى ذلك في موضعه ونضيف هنا كتاب حكومة الهند إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٧ يناير ١٩١٨-١٣٣٦هـ -والذي جاء فيه: «أن ابن رشيد الآن، في وضع لا يمكنه من إيقاع أي ضرر بنا وهو في نفس الوقت يشكل شاغلا لابن سعود. وإزالته نهائيا من السياسة العربية قد تسبب إزعاجا لنا، لأن وجوده يشكل عنصر توازن بين ابن سعود والشريف (حسين) ولذا فقد أوصينا كوكس بأن يبقي ابن سعود في اللعبة بتقديم المال له، ولكن لا يعطي السلاح إلا بكميات هزيلة. نحن نقر تماما بمسئولياتنا نحو ابن سعود، ولا ننوي أن نظلمه ولكن لا نريد أن يؤدي كرمنا نحوه إلى وضعه في مركز يخل بتوازن الجزيرة العربية».

وفي برقية من اللنبي بتاريخ ٩/٦/١٩١٩ -١٣٣٨هـ «أن الإنجليز رتبوا تحالفا بين ابن رشيد والشريف حسين لموازنة ابن سعود، وأبدوا استعدادهم لمساعدة ابن رشيد، جون حبيب ص ١٩٤. ولكن ابن سعود أنهى اللعبة ودخل حايل ضد إرادة بريطانيا وبعد ما أصبحت حايل حجرا في اللعبة البريطانية.

«يوما ما ستندمون على سياستكم الخاطئة. أنا لا أريد أن أتدخل في شئون الحجاز، ولكن يجب أن تعرف، أنني بمجرد أن أطلق الصيحة ستهب مستجيبة، كل القوى من بيشة إلى نجران ومن رانية إلى تثليث، ليس فيهم من لا يؤمن بأن الموت خير من الحياة. ليس فيهم من لا يتمنى الموت من أجل الفوز الأعظم، ليس فيهم من لا يؤمن أن من يولي دبره للعدو أو يتراجع، فإنما يتراجع للنار»!

ولكن بريطانيا لم تأخذ هذا الإنذار على محمل الجد، كانت أجهزتها، رغم إحساسها بالخطر المستقبلي الذي تمثله فكرة بعث «الحركية» الوهابية أعجز من أن تدرك أن هذا الخطر قد أصبح حقيقة واقعة، كانت بريطانيا بحاجة إلى قارعة...

وسرعان ما جاءت القارعة!

ظهرت قوة أصيلة.. ليست من تلفيقاتنا!
الكولونيل فيكري

جلس «جهابذة» الإمبراطورية يحللون فشل حملة «ابن سعود» على حايل، ودبج كوكس تقريره مذكرًا برأيه القديم عن عدم كفاءة ابن سعود العسكرية! وانتشى مكتب القاهرة بصدق فراسته في تفوق الأشراف، وثبوت أنه لا أهمية لعبد العزيز والسعوديين عموما، ولكن قبل أن تصل التقارير إلى لندن، كانت البرقيات تنقل أنباء محمومة عن كارثة نزلت بالأشراف، وبالاستراتيجية البريطانية، وتعلن ظهور قوة غير قابلة للهزيمة!

كانت أنباء تربة قد وصلت إلى جدة، ومنها طارت إلى القاهرة ولندن وبغداد ودلهي.. الخ..

وقد كتبت مجلدات في معركة تربة التي غيرت تاريخ الجزيرة العربية، ووضعت بيت آل سعود على قمة الأحداث العربية، ولكني لا أعتقد أن هناك صورة أبلغ تعبيرًا عما جرى في تربة من تلك التي نقلها الريحاني على لسان الشريف عون بن هاشم «وكان يوم شاهد تربة، عمره خمس عشرة سنة»، قال يحدثني عن هول ذلك اليوم.

«رأيت الدم في تربة يجري كالنهر بين النخيل، وبقيت سنتين عندما أرى الماء الجارية أظنها والله حمراء. ورأيت جثث القتلى في الحصن متراكمة قبل أن طحت من الشباك. ومن أعجب ما رأيت يا أستاذ، رأيت الإخوان أثناء المعركة يدخلون

الجامع ليصلوا ثم يعودون للقتال»! ونقل عن الملك عبد الله أنه كان يحكي في عمان، بعد ما أصبح أميرًا لشرق الأردن، وبعد سنوات من ليلة تربة، قال: «مازال يرن في سمعي صوت المغيرين ليلة تربة: الجنة.. الجنة.. الجنة». وكعادته تنصل من الليلة وما جرى فيها فقال: «وما كنت أريد ذلك الزحف على الشرق لولا أن جلالة والدي أمرني وأصر حتى كاد يتهمني بالعصيان».

وإذا رجعنا لرسائل عبد الله عشية تربة، سنجد أن لهجتها لا تعزز روايته هذه أبدًا!

ولم تكن معركة «تربة» اجتياحا تتريًا تفوقت فيه الكثرة العددية على الكفاءة، ولا التخلف على الحضارة، أو العصبية على التخطيط، كما يبدو في كثير من الكتابات، بل كانت عملا عسكريا متكاملا، زاد من روعته الحماسة الدينية، واستعلاء المؤمن، وثقته في النصر، لأنه لا يسمح لنفسه بالهزيمة، فإما الشهادة أو النصر..

وقد شاهد فيلبي بعد ١٣ سنة من المعركة «هياكل القتلى متناثرة في كل مكان حول قلعة المدينة التي كانت تبدو وكأن زلزالا قد ضربها». «ويبدو أن عبد الله وأركان حربه، قد ولوا الأدبار عند أول طلقة، وتركوا جيشهم للذبح وليس للقتال. وكانت بقايا المعسكر تشير إلى أنه رتب وفقًا للقواعد العسكرية التي تدرس في الأكاديمية العسكرية باسطمبول لصد أي هجوم للبرابرة المتوحشين، ويقال إن امرأة حذرت عبد الله من وجود إخوان ذوي نظرات مشبوهة في الوادي[1]، وأنه

---

(١) كان الجيش الإخواني يمارس نظام مخابرات شديد التفوق، وقد روي غلوب أن الإخوان كانوا إذا أرادوا الإغارة على موقع أرسلوا أخا يعيش متنكرا بين أهل الموقع، حتى إذا حانت ساعة الصفر هرب تحت جنح الظلام وقابل الحملة القادمة وزودها بآخر المعلومات عن الوضع.

كان قلقًا يريد الانسحاب إلى مكان أكثر أمنا، ولكن صبري باشا رئيس أركانه، عارض هجرة معسكره النموذجي التسلح والدفاع، والجاهز لتلقين الإخوان درسًا إذا بلغت بهم الحماقة حد المجازفة، بالهجوم عليه، ولم يكن من الممكن الاعتماد على ولاء السكان، حيث أن عبد الله كان قد شنق اثنين من زعمائهم بتهمة الاتصال بالعدو. وقد ذهب أقاربهما إلى خرمة لاطلاع خالد بن لؤي على عورات معسكر الأشراف. على أية حال لم يكن هناك مصدر للقلق إلا النوم... وهذا عين ما حدث! وقد أراني دليلي خيم عبد الله وشاكر وحامد بن زيد، القادة الأشراف الثلاثة. وفي خيمة عبد الله عثر مرافقي على قدم امرأة، وهيكل عظمي لمدفعجي من الأشراف وقد مزق إربًا، وهو يعد مدفعه. وقد تم تطويق المعسكر من الأمام والخلف، في حركة زحف خلال ليلة ١٩ مايو (١٩١٩ -١٣٣٧هـ)، وبدأ الهجوم المفاجئ في الواحدة صباحًا، وقد بدأت المعركة وانتهت في الظلام».

وقال فيلبي: «وصلت أنباء الكارثة في تربة إلى هوايتهول، تدحض آراء جهابذة السياسة والحرب الذين قبل شهرين فقط، كانوا قد قرروا أن الوهابيين الهمج، ليس لديهم أي أمل في التصدي للقوات المدربة والحسنة التجهيز[1] التي حاربت مع لورنس».

ولكن عمر الإمبراطورية البريطانية قد طال كما قيل -ليس لأنها كانت تعترف بالأمر الواقع وتتعامل معه، بل وأيضا لأنها كانت تصر على استراتيجيتها إلى النفس الأخير، وهذا يفسر غضب الإنجليز لهذه الضربة التي خالفت كل الحسابات والخطط التي تدور حول إطلاق يد الشريف، وتحجيم ابن سعود،

(١) أي قوات الأشراف.

ويقول حافظ وهبه إن عبد العزيز رتب عملية تربة، أو على حد قوله كان له يد فيها. وإذا كان الانفعال البريطاني ولهجة الإنذار وحشد الطائرات في جدة، كل ذلك أقنع ابن سعود بأن جرعة تربة كافية -في الوقت الحالي -على الجبهة الغربية، فقد رأى أيضا أن الجبهة الشرقية بحاجة إلى درس آخر يقنع بريطانيا بأنها لا تستطيع «نكرزة» ابن سعود بواسطة أعوانها العرب، وأن عليها أن تضرب إذا أرادت مباشرة، أو تقبل سياسته في تجنب المواجهة وترك القوى المحلية تحسم الصراع على مستقبل الجزيرة..

كان الدرس الثاني في الكويت، وصحيح أن الملك حسين كان هو نجم الاستراتيجية البريطانية، وهو فعليا تحت حماية بريطانيا، إلا أنه اسميا، يعتبر مستقبلا وتستطيع بريطانيا، وقت الحاجة، أن تدعي الحياد، وقد فعلت، أما الكويت فهي محمية رسمية، والصدام معها صدام مباشر مع بريطانيا، ومن هنا كان هذا الدرس، أكثر خطورة، ولكن ابن سعود، كان يعرف أنه لابد مما ليس منه بد، ويعرف أنه بجيش الإخوان قادر على المخاطرة.. ولذلك أعطى فيصل الدويش الإشارة على طريقة: لا آمركم ولا أنهاكم» وقال وهبه مفتي السعوديين... «إن الملك ابن سعود، وإن لم يرغب في الاعتداءات على البلاد المجاورة، المشمولة بالنفوذ الإنجليزي أو يشجع عليها، فإنه لم يكره ذلك...»!

وقد كان الدرس الذي لقن للإنجليز قاسيًا، موجعًا، ولعله هو الذي خلق السمعة المرعبة للإخوان التي كفت ابن سعود شر الكثير من المعارك، وحقنت دماء أكثر..

في خريف ١٩٢٠ -١٣٣٩/٣٨هـ بعدما بلغ التحرش، مرحلة لا يمكن

السكوت عليها، تحرك فيصل الدويش، ليضع حدًا لذلك، استعدادًا لمواجهة الكبار..

وجاء فيصل الدويش، هذا البدوي قاطع الطريق، الذي هزمه عبد العزيز أكثر من مرة في «الجاهلية».. ثم استطاع أن يكسبه إلى الإسلام(١).. إلى الحركة الوهابية، فكان رائدا في حركة الإخوان، وزعيمها الأول بلا نزاع(٢)، وبطل الجزيرة الأسطوري خلال ١٥ سنة، وستظل ذاكره حية، ومرتبطة بقضية الحل الإسلامي، ما شاء الله، وما وعى التاريخ.. فهو المثل الكامل لقدرة تعاليم الإسلام على تغيير الإنسان العربي، أو صنع البطل العقائدي، من الفردية البدوية..

فيصل الدويش الذي يتهم بأنه ابن الشقحاء!! أصبح بالإسلام يطلب من عبد العزيز عندما زاره في الأرطاوية أن يقصر ثوبه لأنه أطول من الشرع، وفعلا يؤتي بالمقص، ويقص ثوب السلطان وهو لابسه! ليتفق مع تفسير ابن الدويش للسنة!

إن قراءة في تاريخ فيصل الدويش، الذي لم يكتب، بل ورغم كل التشويهات التي قيلت ضده، وافتريت على تاريخه، تقنعنا بأنه لا مبالغة في كل ما سمعناه عن التحول الأسطوري في الشخصيات في عصر النبوة...

كان فيصل الدويش أحد الذين هزموا تحت قيادة مبارك الصباح في موقعة الصريف، ولكنه في أكتوبر ١٩٢٠-١٣٣٩هـ -جاء بالإيمان وخيالة التوحيد في تلك المعركة التي ظلت حديث الجزيرة والخليج لسنوات طويلة.

---

(١) قال محمد المانع إن ابن سعود هزم الدويش في مايو ١٩٠٧-١٣٢٥هـ في معركة المجمعة وأسره ثم عفا عنه ليعود فيحاربه في معركة قرب البريدة، ويأسره عبد العزيز ويعفو عنه مرة ثانية. وهذا يؤكد أنه كان يحرص على كسبه لدعوته.

(٢) ولو بحكم الشهرة وإن كنا نعتقد أن ابن بجاد لا يقل عنه شجاعة وإخلاصا.

معركة الجهرا.. حيث هزمت البنادق الإنجليزية، وتحطمت الحصون، أمام السيل العقائدي الزاحف.. أما شيخ الكويت فقد استخدم الحيلة لخداع الجيش المهاجم فعندما حاصره الدويش ودعاه للإسلام: رد: «وهل من يرفض مثل هذه النعمة إلا الأحمق؟ إني والله منكم. ولكن أمهلوني يومين، وموعدنا في الصبيحة». وقد كان.

انخدع الإخوان. واعتذر الدويش عن ذلك -فيما بعد -بقول عمر: «من خدعنا بالله.. انخدعنا له».

قال مؤرخ الكويت: «في إثر الاجتماع الذي حصل بين كوكس وابن سعود في العقير أمر ابن سعود قائده المشهور فيصل الدويش بمهاجمة الجهري. فهجم عليها صبيحة الأحد ٢٦ محرم ١٣٣٩ (١١ أكتوبر ١٩٢٠) بنحو أربعة آلاف من الإخوان، ولم يكن في الجهري إذ ذاك إلا نحو ألف وخمسمائة مقاتل(١). أما الإخوان فقد أصيبوا في هجومهم ذلك بما أضاع رشدهم وتركهم حائرين وسط الميدان(٢)، فأسرعوا إلى جهة من القرية ظنوها خلوا من المقاتلين ولكنهم وجدوا رجالا أشداء اشتركوا وإياهم بمعركة تشيب لها الولدان كان الإخوان يتساقطون فيها بلا عدد ولا حساب وكاد يقضى عليهم لولا نفاذ ذخيرة الكويتيين الأمر الذي جعلهم يركنون إلى الفرار».

ولنقرأ وصف المؤرخ لجانب من المعركة اشترك فيها هو شخصيا: «أما أنا فكنت مع «ثلة» من الأصحاب وأمامنا «فرقة» من الإخوان، صبغنا الأرض من سواد جثثهم ولم يبق منهم ألا أفراد يعدون على الأصابع، أطلقوا لأنفسهم عنان الهرب،

(١) قدرهم الريحاني بضعف هذا الرقم أي ثلاثة آلاف.

(٢) أي هزموا وتركوا حائرين وسط الميدان.

فحصل لنا إذ ذاك فصل قصير من الراحة. كنا نتساءل فيه عن حقيقة الواقعة. وفيما نحن كذلك. وإذا بعبد الكريم بن سعيد أمير الجهري قد أقبل علينا، وليس عليه من اللباس إلا سرواله، وعلائم الدهشة والاستماتة ظاهرة في وجهه فسألناه عما وراءه فقال قضي الأمر، ودخل الإخوان القرية وانتشروا في شوارعها وبساتينها فانجوا بأنفسكم».

وهرع «المنتصرون» يقفزون فوق جثث الإخوان التي ملأت البر يقول: «وهناك طفقنا نعدو إلى القصر الأحمر لا يلوي أحد على أحد، وكنت وحدي أقفز من جدار إلى آخر ومن بستان إلى سواه، حتى أبصرت في أحد البساتين رجلا أصيب برجله وهو يقوم ويسقط، فنبهني إلى وجود أحد الإخوان في ذلك البستان». ووصل إلى القصر الأحمر: «فوجدته مكتظًا بالرجال والنساء والأطفال وعلى وجوه الكل إمارات الخوف ودلائل الذعر، وهم بحالة تطفر الأكباد وتذيب الفؤاد فمن واضع يديه على خديه، ومن ماسح دموعه بيديه، ومن متضرج بدمائه أو معلق يده المكسورة على عنقه، مشهد مريع، أيقن الجميع بعده بالهلاك العاجل».

«وخرجت بعد الصلح وجملة من الأصحاب لنشاهد بقية المعارك الشاسعة، فذهبنا إلى الموضع الذي حطمنا فيه تلك الفرقة من الإخوان، كما قصصت أمرها آنفا. فلم نجد أثرًا لقتلاها هناك فقلت سبحان الله أكانت عيوني إذ ذاك ترى ما لا حقيقة له من جراء الهول الشديد![1]»..

(١) وقال مؤلف الموسوعة الكويتية عن حرب الجهرا أنه لما فشل مؤتمر العقير «أوعز ابن سعود إلى حليفة فيصل الدويش للقيام بغزو الكويت فتم ذلك في ١٠ أكتوبر ١٩٢٠ بحجة المطالبة بإصلاح الدين في الكويت وترك شرب الدخان وتكفير الأتراك». وقال إن هذه المطالب «اعتبرت غير منطقية وليست سوى ذريعة لمقاتلة الكويتيين على حين غفلة». «ولكن الكويتيين حصدوهم وكسروا أرجلهم». و«أسقط في يد الأعداء وقطعوا كل أمل في الخلاص وأرادوا أن ينسحبوا من الميدان بمكسب ولو قليل، وطالبوا بعقد الصلح بشروط =

نعود للمفاوضات.

اعتصم ابن صباح بالقصر، ورفض الخروج لنجدة الكويتيين، بل قال: «اتركوهم سيدافعون عن أنفسهم بأنفسهم».

وبدأت عملية كسب الوقت. وفي الصباح وصل فقيه الإخوان، عثمان بن سليمان أو القوميسيير السياسي لجيش الإخوان. فانفرد به ابن صباح والشيخ على آل خليفة، ومؤرخ الكويت الذي يزعم أنه جادل ابن سليمان وأوشك أن يفحمه.

وقال دكسون أن الشيخ سالم «كان مسلما متزمتا عنيدا، فائق الشجاعة، ويتحمل كلية مسئولية الخلاف الذي نشب بينه وبين ابن سعود». وقال إن الشيخ سالم حوصر هو وستمائة من رجاله في القصر. «وإن الإخوان تركوا ما يقرب من ثمانمائة قتيل في الجهرا ومات على الطريق بعد انسحابهم حوالي، أربعمائة أصيبوا خلال المعركة». وختم تعليقه بقوله: «وهكذا انتهت معركة الجهرا التي تعتبر في نظر العرب نصرا كبيرا للكويت في صراعها الطويل مع ابن سعود على عهد الشيخ سالم[1]».

وروى مؤرخ الكويت مثالا لانضباطية الإخوان وطاعتهم النموذجية لقيادتهم على نحو لم تشهده الجزيرة خلال الألف سنة التي سبقت ظهورهم، فقال إن ابن سليمان أو المسئول السياسي في جيش التحرير الإخواني، بعد أن أشهر ابن صباح إسلامه، رفع طرف عباءته وقال: «أيها الإخوان. مال الكويت حرام عليكم» فإذا بالجنود يلقون ما كانوا قد جمعوه من الغنائم، وعلى الفور!.. ويعلق

= ترك الدخان والعودة إلى الإسلام وتكفير الأتراك ورفضت تلك المطالب وانسحب الإخوان مع دويشهم بعد أن تكبدوا ألفين من القتلى». وهذا وقد ضاقت «الموسوعة» عن الإشارة للنجدة البريطانية.

(١) من كتاب الكويت وجيرانها.

مؤرخ الكويت مذهولا: «فقلت في نفسي: ما أعظم وزرك يا ابن سليمان، وما أثقل حملك يوم القيامة في استطاعتك منع الإخوان عن الاعتداء بطرف عباءتك ثم لا تفعل!».

ويقول: «اضطر سالم إلى الاستنجاد بالحكومة (هكذا بدون تعريف، وهي غنية عن التعريف، فهي وحدها «الحكومة») وطلب معونتها وقد أجابته ولم تتأخر، فأرسلت إلى مياه الكويت المدمرتين لورنس واسبيكل، وطيارتين من العراق، وقد حلقت إحدى الطيارتين على الإخوان، فرمت عليهم منشورا تنذرهم فيه بالضرب إذا اعتدوا على الكويت مرة أخرى. وتأمرهم بالارتحال، فارتحلوا بعد هذا الإنذار من الصبيحة، وبذلك سكنت الزوبعة في الكويت واطمأن الناس، وعلى كل فحادثة الجهري لنا وعلينا».

ولعل قصيدة ابن عثيمين تعطي صورة لانطباع الناس وقتها، ولما أطلقته حركة الإخوان من رعب في المعادين، وأثارته من قوة وعزة في نفوس السعوديين:

سلم على فيصل[1] واذكر مآثره
وقل له هكذا فلتفعل النجب
سيف الإمام الذي بالكف قائمه
ماضي المضارب ما في حده لعب
الساكنين بأرطاوية نصحوا
للدين بالصدق ما في نصحهم خلب
كذاك إخوانهم لا تنس فضلهم
هم نصرة الحق صدقا أينما ذهبوا

---

(١) فيصل الدويش طبعا!.

أعـنـي بهم عصبة الإســلام مــن سكنوا

مـبـايـضـا ولــحــرب الــمــارق انــتــدبــوا

هـــم أهـــل قـــريـــة إخــــوان لــهــم قــدم

في الصالحات التي ترجى بها القرب

وقد اعترف مؤرخ الكويت بأن التحرش أو العدوان لم يكن من الجانب السعودي، وذلك طبعا في إطار مخطط مؤتمر القاهرة الذي قرر خنق ابن سعود، إذ يقول: «وبعدها أمرت الحكومة سالما (ابن صباح) بإيقاف الحركات العدائية ضد ابن سعود. وأن لا يجعل في الجهري قوة زائدة عما يحفظها».

ذهب وفد المفاوضة برئاسة ولي العهد الشيخ أحمد الجابر، ولكن الشيخ سالم مات أثناء المفاوضات، فقال ابن سعود للشيخ أحمد نفس ما قاله لأبيه جابر عندما وصل نبأ وفاة مبارك ما معناه: محا الموت أسباب العداوة بيننا.

وعلقت تايمس أوف إنديا على انتصار الإخوان قائلة[١]: «إن انتشار حركة الإخوان، هي أهم ما يستلفت النظر العميق في الأحداث الجارية في بلاد العرب هذه الأيام».

وبأسلوب الريحاني الرشيق أرخ وفاة سالم في ذلك العام الذي «نكب فيه سالم ودين[٢] واحتمى بالإنكليز».

المهم اقتنع الإنجليز بأن التحرش بابن سعود لعب بالنار، فأمروا محمياتهم بالكف والتزام الأدب، ومن ثم تفرغ ابن سعود للجبهات الأخرى، فأنهى حايلا

---

(١) في ١٥ نوفمبر ١٩٢٠.

(٢) قوله دين إشارة إلى قبوله دعوة الإخوان.

وجمد عسيرًا واقتربت ساعة المواجهة مع الشريف في الحجاز، وولداه يطوقان ابن سعود من العراق والأردن، فكيف يعطيهما ظهره، ويتوجه لضرب أبيهما؟!

بالرعب.. بالإخوان.

يقول وهبه: «إذا اذكر الإخوان على حدود العراق أو شرق الأردن أو الكويت، استولى الرعب على قلوب السكان، وهب البدو يطوون الصحراء[1] لائذين بالبلاد القريبة منهم، يحتمون بجدرانها وأبراجها فهم رسل الذعر والهلع في بلاد العرب».

يقول غلوب: «في خريف عام ١٩٢٢-١٣٤١ هـ كان وضع عبد العزيز كالآتي:

١- استطاع هزيمة منافسه ابن رشيد، وذلك أساسا، بفضل الحماس الديني الذي استطاع ابن سعود شخصيًا إثارته، وأصبح الحاكم الأوحد لوسط الجزيرة.

٢- أعلن أتباعه المتعصبون أن واجبهم الديني هو إخضاع العالم كله للوهابية. ولم يكن لديهم أي استعداد للوقوف عند حدود سياسة، رسمها شخص ما على الخريطة.

٣- أما عبد العزيز نفسه فكان رجلا ألمعيا ويعي إلى حد ما قوة وموارد الدول الأوروبية، ولذا كان حريصًا على تجنب أي صدام مع بريطانيا، ولكنه كان غير قادر على إقناع أتباعه بذلك، فقد ظل عشر سنوات يغذي حماستهم، وأصبح عاجزًا عن أكل كلماته».

ولخص جلوب استراتيجية عبد العزيز في شل التدخلات البريطانية والهاشمية بالإخوان فقال: «خلال حربه مع ابن رشيد، أنشأ ابن سعود وطور

(١) وها أنت ترى أن مشروع الهجر كان «يوطن» البدو على الجانبين!!

استراتيجية «الإخوان» على نحو لم يجعل لرعاة العراق حيلة معها، فقد أصبحت القبائل الوهابية قادرة على تركيز قوات غزو تتكون كل منها من ثلاثة إلى أربعة آلاف راكب جمل. يظلون متربصين حتى يكتشف جواسيسهم هدفا مناسبا، وعندها يتحركون قبيل الغروب[١]، ويستمرون في السير طوال الليل، فيقطعون حوالي سبعين ميلا ليفاجئوا خيمتهم بهجوم وحشي عند الفجر».

«ولم يكن مسموحا لطيراننا بعبور الحدود العراقية -النجدية للبحث عن الغزاة، والنتيجة أن الإخوان أصبح في وسعهم اختراق الحدود عند الغسق والوصول إلى هدف يقع على بعد سبعين ميلا داخل العراق عند الفجر. وبالتالي يستحيل وصول الطائرات لحماية الرعاة في حزام السبعين ميلا هذا.

«وهذه الغزوات كانت مذابح، فالإخوان يقتلون بدم بارد كل الذكور حتى الأولاد والأطفال الرضع من الذكور، ولكن النساء لا يقتلن، ولذا فإن كل ما يبقى من هذه الغارات، هن النساء النائحات[٢]، والفتيات المنهكات اللاتي يكون عليهن

---

(١) ويبدو أن الإخوان كأي جيش تحرير شعبي اعتمدوا على إيمان الشعب، وتعاطف الجماهير المسلمة في صفوف العدو فقد روى مؤرخ الكويت أن حملة سالم بن مبارك الصباح حاكم الكويت سنة ١٣٣٨-١٩١٩-١٩٢٠) فشلت لأنه «بينما كان الجيش سائرًا، انفلت أحد الموالين للإخوان خفية وذهب نذيرًا لابن شقير وقومه، وبذلك علم الجيش الكويتي، الصعوبة التي سيلاقيها فرجع أدراجه». وقد أجمع المؤرخون على أن الحركة كانت قد تفشت في «شمر» مما سهل غزو حايل، فقد كانت جماهير حايل متعاطفة مع عبد العزيز ودعوته التي أثارت ذكريات الوهابية الأولى، وشمر لم تتنكر قط للوهابية. وكان للإخوان عناصر في مستويات عليا في جبهة العدو، إذ يقول غلوب: «إن الإخوان الذين كانوا يمتلكون جهاز مخابرات قوي بين قبائلنا (لاحظ قبائلنا أي قبائل الخواجة غلوب!) سرعان ما عرفوا بقرار حظر الطيران عند الحدود. فنقلوا مخيماتهم شمالًا إلى مسافة أميال قليلة من قبائلنا (ثاني!) في المنطقة المحايدة. وقد ساعدنا هذا على دس جواسيسنا في معسكراتهم». صفحة ١٨١ من كتاب غلوب.

المهم أن قرار حظر الطيران لا يمكن أن يبلغ للأفراد العاديين مما يدل على أن أعوان الإخوان، أو العاطفين عليهم كانوا في مستويات عليا. وهذا غير مستبعد من العناصر الوطنية العراقية التي كانت ترى في الإخوان سيف الله المنتقم من الإنجليز والحكم العميل في بغداد.

(٢) لا حاجة للحديث عن كذب غلوب الذي تسمم بكراهية السعوديين، وإلا فلماذا يقتل الإخوان الأطفال الذكور الرضع وكيف تتاح الفرصة في المعركة لتمييز الرضيعة من الرضيع!

شق طريق العودة على أقدامهن مائة ميل أو أكثر» ويصف كيف قضى هو نفسه أربعة أيام من الرعب في انتظار هجوم الدويش، ويقول إنه حتى في معارك فرنسا ضد الألمان كان يمكن أن يتوقع النجاة أو الأسر، «ولكن الإخوان لا يأخذون أسرى، فأما أن تقتل في المعركة، أو يقبض عليك ليبطحك أرضا ثلاثة رجال ويذبحك الرابع»!

ويصف بأسلوب «مؤثر» قبيلة هاربة من الإخوان، ليبرر ما فعله الإنجليز، فيقول إنه في ديسمبر ١٩٢٤-١٣٤٣هـ «كانت جموع المنهزمين هائمة، لا يسمع منها رد على أسئلة القوات المسلمة بقيادة غلوب، إلا كلمات: الإخوان... الدويش..» ورغم مرور خمسين سنة، فإن غلوب لا يفوته أن يدس بين الوهابية والشيعة فيزعم أنه مازال يتذكر -رغم أنه وصل إلى أرذل العمر- «منظر النسوة وهن ينظرن خلفهن في هلع هاتفات: يا الله... يا محمد... يا علي[1]».

وقد نجحت استراتيجية ابن سعود نجاحا فاق كل الحسابات، واعترف ذلك غلوب فقال: «شهد خريف وشتاء ١٩٢٤-١٣٤٣هـ غارات متكررة وضربات عنيفة من الإخوان على بدو الصحراء العراقية، ولذلك تحول هؤلاء البدو اللاجئون من نجد، إلى موقف المدافع المذعور «حتى إنهم تنفسوا الصعداء عندما أعلن ابن سعود الحرب على الملك حسين ووجه قواته غربا في ربيع ١٩٢٥-١٣٤٣هـ». ولكن الرعب بقي، وإن توجه الإخوان غربا.. «فقد كان هذا الربيع مأساة لقبائل العراق، لقد كان حزام الصحراء الواقع شمال الحدود العراقية -النجدية بسبعين ميلا مزدهرا بالحشائش العالية في «أبي الغار».. حيث تتساقط جثث أغنامهم وحميرهم وجمالهم من الجوع.. وهو منظر يقطع القلب حقا».

---

(١) ربما الملك علي بن الحسين!

الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، لم يتقطع قلب غلوب، ولكن هذا الرعب، هو الذي أمن ظهر ابن سعود، وأطلق يده في تصفية الأشراف في الحجاز، فلولا «الإخوان» لما اكتفت قبائل العراق، أو اللاجئة من نجد برعي الحشائش، واستنشاق عبير الأزهار البرية، بل لبادروا باستغلال انشغال القوة الرئيسية في الحجاز، لطعن السعوديين من الخلف وذبح أطفالهم وسبي نساءهم. ونفس الشيء بالنسبة للأردن، فقد قال فيلبي: إنه على ضوء ما رآه بنفسه فإن «الإخوان قادرون على الاستيلاء على الجوف باسم ابن سعود متى أراد، ولا شيء أقل من حملة بريطانية يستطيع منعهم».

«وانتشر الذعر في شرق الأردن حتى عمان، لدرجة أن فيلبي رأى علامة على حائط، فاستدل بها على أن بعض الإخوان مروا من هنا، وسرعان ما جاءهم الخبر بأن الإخوان قد ضربوا ضربتهم في قريتين على بعد عشرة أميال فقط من عمان.. وعندما ذهبوا إلى القرية كانت جثث بني صخر متناثرة في كل مكان».

وبذلك فرض ابن سعود السلام الوهابي(١)، وبهذه القوة التي لا تقهر استطاع أن يأمن مؤامرات الإنجليز. تلك القوة التي انتشرت حول الحدود، ونشرت معها حاجزا اليكيترونيا، ولكنه من الإيمان وليس من التكنولوجيا.. حاجز الرعب، رعب المأجور من المؤمن، رعب المرتزقة من الذين اشتروا الآخرة بالدنيا..

(١) لم يقتصر الأمر على تأمين الدولة من اعتداءات العملاء من الخارج، بل إن هذه القوة استطاعت أن تحقق السلام والأمن في الداخل فكما قال فيلبي في مقال له عام ١٩٢٩-١٣٤٨هـ «إن إنجاز الإخوان في السلم كان أكبر منه في الحرب فالجزيرة يسودها الآن سلام لم تعرفه في تاريخها، إذ يستطيع الإنسان أن يتجول فيها بسيارة أو بجمل دون مخاطرة، وحتى الحجاز الذي كان أكثر المناطق مخافة وأخطارًا، أمن فيه الحجاج على حياتهم وأموالهم. ومع ذلك يصعب أن ترى قوات أمن أو شرطة مما اعتدنا رؤيتهم في البلاد التي تتمتع بهذا الأمن بل بالعكس هدمت القلاع القديمة التي كانت تحرس الطرق». ويلاحظ أنه منذ معركة تربة لم تتمرد قبيلة واحدة في دولة ابن سعود، فانقطع بذلك حبل التآمر الذي كان الإنجليز يجيدون اللعب به للضغط على حكام الجزيرة.

أرعب الإخوان هؤلاء المرتزقة والعملاء، فمنعوهم من لعب دور مخلب القط في إزعاج السعوديين، أو فتح ثغرة في دولتهم للأصابع الأجنبية، وأصبح على القط الأجنبي أن يتعامل مع عبد العزيز بما يقبله، أو يجرد خمسين ألف جندي كما قرر لورنس حجم الحملة اللازمة لهزيمة ابن سعود والإخوان!

ويقول فيلبي إن «عبد العزيز قد أرسل قوة للعراق لمجرد استعراض عضلاته أمام فيصل ليمنعه من اتخاذ أي إجراء خلال حربه مع أبيه (الملك حسين) كما أرسل قوة مماثلة تغلغلت في شرق الأردن».

ولقد وصل الإخوان في يونيه ١٩٢٢-١٣٤٠هـ إلى مسافة ١٥ ميلا من عمان عاصمة الأمير عبد الله في شرق الأردن، واضطر سلاح الطيران البريطاني للتدخل مدعوما، أو داعما للمدرعات البريطانية حتى أمكن منع دخول عمان في ملك ابن سعود.

وفي نوفمبر ١٩٢٢-١٣٤١هـ في اجتماع الجمعية الآسيوية، أعلن الكولونيل فيكري، وهو من أعمدة الاستراتيجية التي كان شعارها: «مصالح الحسين هي مصالح بريطانيا» أعلن عن ظهور قوة الإخوان بقوله: «**لقد شاهدت قوة جديدة نامية في الجزيرة، قوة أصيلة ليست من تلفيقاتنا.. قوة ستزيل تلك البيوتات التي أيدناها علنا وبإفراط. إن الوصاية على الحرمين اليوم يتولاها الشريف، ولكنني أعتقد أن السلام لن يحل على الإسلام إلا إذا أصبحت مكة مرة أخرى تحت سيطرة أمة تجمع بين الروح والقوة**».

والإنجليز كما قلنا هم أساتذة التعامل مع الحقائق الجديدة، لذلك نبذت الاستراتيجية القديمة التي تتمركز حول دعم الحسين ضد ابن سعود، وأعلنت بريطانيا الحياد فيما وصفته بأنه خلاف «فقهي» بين الرياض وجدة!! بينما عكف

خبراؤها على وضع خطة تطويق وسحق هذه القوى الجديدة التي توقعوا أنها إذا لم تعالج، فقد تواجه العالم بحالة شبيهة بما جابهه في القرن السابع الميلادي بالزحف الإسلامي الأول.. أو على الأقل ربما كانت قادرة على تفجير حركة تحرر ووحدة عربية.

ولعل أخطر ما قيل في حركة الإخوان «**إنها أصيلة وليست من تلفيقاتنا**»**!** وعبر تاريخ الاستعمار كله، لم يكن يثير رعبه وحقده إلا القوة «الأصيلة» مهما قيل عن تخلفها أو حجمها أو اعتدالها يمينيتها أو يساريتها**!** فالمهم هو الأصالة، وما عدا ذلك يعالج..

زحف الإخوان على الحجاز، وذاب الجيش الهاشمي، التهمه الإخوان، وكانت معركة الطائف التي، كما قلنا، لعبت رويتر والمقطم، وتايمس أوف أنديا، وأجهزة الإعلام البريطانية والهاشمية دورا كبيرا في ما أثير حولها، ونقلته كتابات المؤرخين دون تمحيص، حتى بدت وكأنها غزوة تترية.. وقد سبق أن أشرنا إلى إجماع المصادر على أن جميع قتلى «غزوة» الطائف لا يتجاوزون الثلاثمائة داخل وخارج المدينة، وهو أقل بكثير من ضحايا موقعة البكيرية مثلا.

وقد قال مؤلف كتاب «توحيد الجزيرة»: «أخبرني أمير الطائف نفسه أنه لم يذبح في المدينة إلا الحامية، وبعض أهل المدينة الذين حاولوا المقاومة. أما القصص المرعبة، فقد روجها رجال الشريف» ولعل جون حبيب كان شديد التوفيق عندما قال: «مهما قيل عن فظائع الإخوان فلم يسجل تاريخهم حرق مدينة واحدة أو تدميرها» وقد استلفت نظري فيما روى من قصص عن الطائف روايتان: الأولى تنفي تهمة الغزوة التترية، التي رسمتها دعاية الإنجليز والأشراف، ووراها الزركلي عن شاهد عيان قال: «أخبرني أحد شهود المعركة أن بعض المهاجمين للطائف،

دخلوا منزلا فيه مكتبة، فأخذوا كتب الحديث والتفسير كلها، وتركوا كتب النحو والأدب والفقه».

فهل يستقيم هذا الخبر في إطار الصورة التي تناقلتها المراجع والمعلقون، عن غارة تترية، لا تبقي ولا تذر، هل نستطيع تصور مدينة يجرى نهبها وحرقها، ويذبح نساؤها وأطفالها، وبعض هذا الجند يقلب في المكتبة ويراجع الفهارس، فيختار كتب الحديث، وينحي جانبا كتب النحو؟! وكيف نجا هذا البيت من الإعصار؟! أو هل يمكن تصور عملية الذبح والنهب تدور في المنزل، بينما وقف هؤلاء الجند المثقفون، ينقبون ويفحصون الكتب، وكأننا في فيلم كوميدي!

والحكاية الأخرى التي أوردها الريحاني كتشنيعه، ولكنها تثبت عقائدية «الغزاة» ومسلكيتهم المنضبطة بقواعد دقيقة، وإحساسهم بالتفوق العقائدي، وقد رأينا كيف رفع ابن سليمان عباءته، فتوقف سلب الكويت في لحظة واحدة! وهو ما لا مثيل له ولا حتى في الجيوش الأوروبية!

الحكاية أن الشيخ «عبد القادر الشيبي» سادن الكعبة، أسقط في يده، عندما دخل الإخوان الطائف، وكان هناك، واستل أحدهم السيف ليقطع عنق المشرك عندما بكى الشيخ وأجهش بالكباء... فسأله الأخ وسيفه معلق فوق عنق الشيخ: «وليش تبتسى يا تسافر» أي «ولماذا تبكى يا كافر»[(١)]؟! فأجابه الشيخ الأريب: «أبكي والله من شدة الفرح. أبكي يا إخوان لأني قضيت حياتي كلها في الشرك والكفر، ولم يشأ الله أن أموت إلا مؤمنا موحدا. الله أكبر ولا إله إلا الله». «وأثر هذا الكلام في الإخوان، تحكم العقيدة تصرفاته وعواطفه وانفعالاته، ولذا ينقلب

---

(١) كما ترجمها الريحاني، وإيراده النص النجدي يدل على الرغبة في الإغراب والفكاهة. والسؤال حقا عجيب؟ إلا إذا كان «الأخ» قد استغرب أن يخاف شيخ كبير وقور من الموت!

من قسوة الإعدام إلى رقة البكاء والرحمة في لحظة بمجرد انتقال العدو من خانة المخالفة العقائدية إلى الإيمان.. ولذلك فإني أرجح أن القتل كان صاعقا، كما هو أسلوب الحرب العقائدية، الضربة المروعة التي تشل العدو، وتفقده الرغبة في المقاومة، بقية الحرب، فتحقن دماء كثيرة، بما يبدو أنه قسوة.. ولكن لا غزوة تترية. وعلى أية حال فتلك الصورة التي روجوها عن الإخوان هي التي ألصقوها بكل شعب حاول التخلص من نيرهم..

فالجزائري والفلسطيني.. إرهابي متوحش لأنه يقاتل الغاصب[١].

وعندما توجه الإخوان لفتح مكة، تخوف بعض قادتهم من احتمال كمين من المشركين أو قريش! فطلبوا فتوى من العلماء بجواز الدفاع عن أنفسهم إذا ما هوجموا في مكة، رغم دخولهم بملابس الإحرام، وبنادقهم منكسة، إلا أن القيادة

---

(١) وفي الموسوعة الكويتية المختصرة تأليف حمد محمد السعيد أن طبعة ١٩٧٠ الموجودة بالمكتبة العامة لجامعة الملك سعود جاء ما يلي في وصف الإخوان: «الإخوان من محترفي الغزو والسلب والنهب، منظمة إرهابية ترأسها فيصل الدويش تألفت جماعتهم على شكل حزب عام ١٩١٤ بتشجيع من عبد العزيز السعود حاكم نجد ليأمن جانب الدويش.. وقالت الموسوعة: «وقد تهور الإخوان وقذفوا أهل الكويت بالكفر بسبب التدخين، واعتدوا على الكويت عدة مرات، أهم ذلك عدوان ١٩٢٠ الذي أدى إلى معركة الجهرا الشهيرة، وقد اندحروا في تلك الحرب وقتل منهم الكثير (...) وهم ليسوا وهابيون بالمعنى الصحيح ولكنهم من محترفي الغزو والسلب والنهب». وسجلت الموسوعة رأي الشعر الكويتي، الحديث والتقليدي، في معركة الجهرا. قال الشاعر الكويتي محمد الفايز:

فأصرخ يا هزار
هزم التتار
مات التتار
يا إخوتي الأبطال
قد مات التتار.

وقال الشاعر إبراهيم الخالد الديحاني:

وتفاقدت حمر الجموع العيال   ألفين «لحية» عددهم بالكمال

الدينية رفضت، وأفتت بعدم جواز دخول الحرم بنية القتال. وكان.. أطاع الجند المؤمن وانتصروا

ربما بسبب الرعب الذي أصبح يسبقهم بمسيرة شهر كما قيل في السلف الصالح!

وربما بسبب هذه الفتوى التي أكدت لأهل مكة تقوى القادمين، واحترامهم لحرمة البيت والبلد الحرام.

لقد كانوا خير جند عرفته الجزيرة منذ أيام محمد بن عبد الوهاب.. وهم وسلفهم أسطورة أو حلم رآه العالم الإسلامي الغافي يحلم بعصر كل حقائقه فاقت أغرب الأحلام.. عصر خالد وأسامة والمثنى وأبو عبيدة وعمرو.

وغفر الله لذلك الشاعر العربي الذي اكتشف الديالكتيك قبل هيغل فقال: لكل شيء إذا ما تم نقصان!

فقد كان فتح مكة هو نقطة الذروة في حلم جند التوحيد والحل الإسلامي... وبدأ العد العكسي.

الثورة أو الدولة؟

قلنا أن النهاية المؤسفة لحركة «الإخوان»، قد حالت دون تقييم التجربة بموضوعية، ومن باب أولى، لم يكن من الممكن مناقشة أسباب الخلاف، فالصدام.. ومن ثم النهاية.. فجميع الكتابات المعاصرة والحديثة -باستثناء محمد أسد[١] -أخذت بالطبع جانب ابن سعود، ولا لوم عليها في ذلك، ولكنها، وبالذات الحديثة منها، تلام لأنها رغم مرور السنين وزوال حدة الصدام، مازالت تتجافى للظاهرة، وترفض بحثها موضوعيا، والتاريخ يحب العدل، وما لم تنصف ظاهرة الإخوان، والهجر، فسيظل التاريخ يطالب بهذا الإنصاف في أشكال عديدة، ومفاجآت غير محسوبة..

والذين تبذلوا في التقليل من شأن «الهجر» فجعلوها مشروعا زراعيا، لتوطين البدو وتدجينهم، كان من الطبيعي أن يفشلوا أكثر في تحليل انهيارها.. فصاحب الجائزة الذي فاق جميع المشوهين والمفترين، نسب نجاح عبد العزيز في التغلب على التمرد الإخواني، إلى مساعدة بريطانيا العظمى له، كما سنرى.. وقال في أسباب الفشل: «أن بعض أدعياء العلم ثقفوهم بتعاليم دينية ناقصة، كانت من أهم الأسباب المعرقلة للمشروع، فلقنوهم أن غير الإخوان كفرة، **وغرسوا في نفوسهم**

(١) وبالطبع أولئك الذين حملوا عبد العزيز مسئولية التغرير بالإخوان ثم تصفيتهم بمساعدة الإنجليز وهم في هذا يلتقون مع مؤلف «الإصلاح الاجتماعي».

حب الإمام[١]، وقالوا لهم أن لبس العقال حرام، ويجب لبس العمامة، والتزام البساطة في الأكل والملبس وعليهم دفع الزكاة للإمام».

هل حب الإمام من أسباب فشل المشروع، بل من أهم أسباب فشله، كما يقول؟!..

كيف يمكن وصف هذه التعاليم بأنها ناقصة، وصادرة عن أدعياء العلم؟!

وباستثناء لبس العقال والعمامة، وهي مجرد تشنيعه، ففي كل عقيدة قضايا تبدو شكلية من هذا الطراز. والإخوان لم يكونوا أسخف من كمال أتاتورك الذي اعتقد أن لبس العمامة أو الطربوش يسب التخلف، ولبس القبعة يحقق التقدم والتمدن، ويحول تركيا إلى دولة أوروبية!!

فباستثناء هذه النكتة.. ما الخطأ في تلك التعاليم؟!

تعليمهم أن غير الإخوان كفرة؟!

نعم!

وإلا فبأي حق يستحل دمهم ومالهم، ويجندون لقتالهم؟! وكيف يستشهد الأخ، خيال «التوحيد» إلا في قتال الكفرة والمشركين.. هل لو علموهم أن غير «الإخوان» مسلمون وهم يعرفون: أن «القاتل والمقتول في النار»؟! وكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل.. «وكن في الفتنة كابن لبون لا ضرعا فيحلب ولا ظهرا فيركب»... أكان يقوم جيش الإخوان أو تتحرر وتقوم مملكة ابن سعود، وتخصص جائزة الملك فيصل ويفوز بها من يأسف على تعليمهم الجهاد؟!.. ألم

---

(١) ؟!!

يتساءل الإخوان.. إن كان أهل الكويت كفارا فلماذا لا نقاتلهم، وإن كانوا مسلمين، فلماذا نقاطعهم؟!..

وما الخطأ في غرس حب الإمام في نفوسهم؟!

أليس هو القائد ومؤسس ورمز الحركة؟.. هل حبه يفسد المشروع؟!

ربما! إذا كان الهدف، هو تحويل البدوي المقاتل إلى فلاح مسالم، وزيادة إنتاج الحبوب.. لأن حب الإمام، فعلا، قد عطلهم عن الزرع والحصاد إذ شغلهم الإمام المحبوب بالجهاد عن الزراعة، وضللهم العلماء فصوروا لهم المشروع جهادا في سبيل الله ضد الطاغوت، والتمزق، والنفوذ الدخيل، بينما الهدف الحقيقي هو زيادة الإنتاج الزراعي في مزرعة عبد العزيز! ونتيجة هذا الخطأ تحولت مشيخة عبد العزيز إلى مملكة، وأول الدول العربية استقلالا ووحدة!.

ومع هذا لا يمكن لعاقل القول بأن سبب الثورة وفشل التجربة، حب الإمام.. لأنهم ثاروا على هذا الإمام وحاربوه.. عندما ظنوا خروجه عن الدعوة، فهم قد أثبتوا أنهم يحبون الدعوة أكثر من الإمام!

وما الخطأ في دفع الزكاة للإمام أو البساطة في الأكل والملبس.. ويا ترى لو كان العلماء بدلا «من أدعياء العلم» قد علموهم التعليم الدينية «الكاملة» وليست «الناقصة»... وقالوا لهم «إن التأنق في المأكل والملبس من الإسلام» أكانوا يصلحون للجهاد، وبناء الدولة التي لا يحب ضيوفها وقصادها البساطة في العيش، وإن رضوا بالسذاجة في تفسير التاريخ؟!

وفقدان الموضوعية في تحليل أسباب انهيار تجربة عبد العزيز، لا تشمل تجربته وحدها، بل تنسحب ذيولها حتى على التجربة الأولى، ولذا نرى التحليل

التوطيني ينسب قصور التجربة إلى الدعاة الأوائل في بداية الحركة الوهابية، فالإخوان وأسلافهم: «لا يثقون البتة بالإفرنج المسيحيين، وهذا يفسر انغلاق نجد أمام الإفرنج، إلا فيما ندر. والسلفيون والإخوان يكنون كرها شديدا للإفرنج» وهذه منقولة عن ديكسون، ولكنه يعززها بقوله: «وقد لمست بنفسي أثناء إقامتي في السعودية، كره السعوديين بخاصة المتقدمين في السن منهم، للأجانب المسيحيين(١)».

«التعصب الديني الشديد الذي تميز به الإخوان، كان يماثله التشدد الديني عند السلفيين القدامى، ويفسر هذا اعتبار كل من هو ليس بأخ أو كل من هو ليس بسلفي، كافرا يحل قتله وأخذ أمواله، وأن الشدة القاسية التي عامل بها السلفيون الأوائل السكان في العراق وبلاد الشام أثناء غزواتهم الأولى تتشابه إلى حد كبير مع القسوة التي عامل بها الإخوان سكان نفس المناطق على اعتبارهم ليسوا سلفيين أو إخوانا».

إذا فالداء قديم، وهذه العصا من تلك العصية! والحركة تحمل الخطأ منذ ميلادها في عصر عبد الوهاب؟!

والغريب أنه في الجزء الذي أثنى فيه على المشروع الزراعي، لم يشر بحرف إلى أصله الوهابي، فلما انتقل إلى الذم نسبه إليها، فالوهابية كما قيل: «في مدحهم منسية، وفي ذمهم مدعوة»!

---

(١) وحتى في هذه جانبه التوفيق في التشنيع على الإخوان، والحركة السلفية -أي الوهابية. فقد سجل والين من أكثر من قرن دهشته من تسامح الوهابيين مع المسيحيين، وتشددهم مع المسلمين المخالفين، وعاد فيلبي فسجل نفس الظاهرة، على لسان ابن سعود في الحوار الذي أجراه معه في صيف ١٩١٨-١٣٣٦هـ.. فقد قال ابن سعود: «إذا قدمت أنت الإنجليزي ابنتك لي كزوجة، سأتزوجها، ولا أشترط إلا أن يكون أولادي مسلمين، ولكني لا أتزوج ابنة الشريف، ولا بنات أهل مكة، ولا غيرهم من المسلمين الذين نعتبرهم مشركين، أكل اللحم الذي ذبحه المسيحيون دون تردد، ولكن المشرك الذي يعبد مع الله إلها آخر فهذا هو ما نبغضه».

أين هذا التجني على حركة الإخوان، والتطاول على الحركة السلفية أو الوهابية، التي بدأت الدعوة؟ أين هذا من كلام عبد العزيز الذي عانى ما عانى من حركة الإخوان ولكنه يقول: «إن السلفية القديمة متحدة بحماسة الإخوان، تشكل أصفى وأنقى الحركات الدينية في العالم» وروى عنه أيضا قوله: «إن الإخوان مهما فعلوا فيجب احتمالهم، وأنا لا أنسى أعمالهم وأعتقد أنهم حسنوا النية، أما هذه العصبية والشدة، فالزمن كفيل بتخفيف حدتها».

ومعروف أن عبد العزيز كان لا يسمح لأحد بأن يتطاول على الإخوان في مجلسه إلى أن مات. وقيل في تفسير الحدة في مسلكية الإخوان أن الحركة نشأت في ظل الإحساس بالحصار من المشركين: الروم[1] والإنجليز والأشراف، فظل هذا الإحساس ملازما للحركة وزعمائها.

فلنقذف إذن بكل تطاول إلى مزبلة التاريخ، ونحن نتفق مع رأي عبد العزيز تمام الاتفاق، فحركة «الإخوان» منذ مولدها على يد عبد العزيز إلى قضائه عليها، عندما أخطأت الاجتهاد، كانت أنقى حركة دينية في العالم المعاصر لها. ومن لديه اعتراض فليتقدم!

أما حافظ وهبة الذي تعود أن يلعب الدور المزدوج، الوطني عدو الإنجليز في مصر، والدبلوماسي المؤمن بصداقة بريطانيا في بلاط عبد العزيز، فنراه حائرا ما بين إدانة «الإخوان» لتمردهم على عبد العزيز، وتخلفهم، وتعنتهم في قضايا شكلية، وبين إعجابه بهذه النماذج، التي أثبتت صحة ما آمن به في شبابه، أي قدرة الإيمان، قدرة الإسلام على إعادة صياغة البدوي، ليتحول إلى سوبرمان، إلى جيش الخلاص

(١) الأتراك..

الذي حلم به هو وأستاذه محمد عبده وأستاذ الأساتذة جمال الدين الأفغاني، فهو يشهد بالانقلاب الذي حدث ويقول أنه رأى الأم تودع ابنها: «جمعنا الله وإياك في الجنة» وكلمة الحرب هي: «هبت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها» وعند الهجوم: «إياك نعبد وإياك نستعين». «وقد شهدت بعض وقائعهم الحربية، فوجدتهم يقذفون بأنفسهم إلى الموت قذفا، ويتقدمون إلى أعدائهم صفا صفا، ولا يفكر أحدهم في شيء إلا هزيمة العدو وقتله. ولكنه يعود فيقول: «غير أن هذا الانقلاب كان خطيرا وعنيفا جدا»: «لقد تشرب هؤلاء كثيرا من المبادئ والتعاليم الناقصة، حتى اعتقدوا أنها هي الدين، وما سواها ضلالة، كما أساءوا الظن بغيرهم من حضر نجد، بل بولي أمرهم الإمام عبد العزيز. أصبحوا يعتقدون أن لبس العمامة هي السنة، وأن العقال من البدع المنكرة، بل غالى بعضهم فجعله من لباس الكفار ويجب مقاطعة لابسيه، وكان كثير منهم يعتقد أن لا إسلام لمن لم يسكن الهجرة[1]، مهما كان عليه من الإسلام. ومن لم يترك شرور البادية وعوائدها؛ فلا يبدأون غيرهم من هؤلاء بسلام، ولا يردون عليهم السلام، ولا يأكلون ذبائحهم. وذنب هؤلاء عندهم هو عدم سكن الهجرة.

«وكان فريق منهم يعتقد أن المشايخ مقصرون مداهنون لابن سعود، أو كتموا الحق عنه».

«وكانوا يعتقدون أن الحضر ضالون وأن غزو المجاورين واجب، وأنه القى عليهم هذا الواجب من قبل الله.

(١) وهذا بالطبع فهم متشدد لآيات الهجرة وأحاديثها، ولكن يبرره فهمهم لمعنى الهجر كتحول عقائدي ومراكز جهاد، ولكنه يغدو مضحكا في ظل مفهوم التوطين، إذ لم يقل أحد أن الإسلام لأهل الزراعة وليس لأهل الرعي!

«وقد نال بعضهم من الإمام عبد العزيز فرموه بموالاة الكفار والتساهل في الدين، وأنكروا عليه تطويل الثياب والشارب ولبس العقال... وأن سريان هذه الروح المتمردة يرجع إلى هؤلاء الجهلة وأنصاف المتعلمين الذين انتشروا في قرى الإخوان باسم العلم، ولقنوهم هذه التعاليم، وحببوا إليهم التعصب الذميم».

ونقل عن أهل مكة أنهم كانوا يقولون في أنديتهم: «لولا غلظة الإخوان، وخشونتهم وقسوتهم، لكان عهد ابن سعود في استتباب الأمن، والضرب على أيدي المفسدين، والقضاء على البدع والمنكرات لا يعادله إلا عهد الصحابة والتابعين». ويقول «إن الإخوان على العموم قلوبهم لا تعرف الرحمة على الأعداء، ولا يفلت من تحت يدهم أحد، فهم رسل الموت أينما حلوا». ولا يقول لنا الشيخ، كيف يمكن «الضرب» على أيدي المفسدين بحنان؟! ولا كيف كان من الممكن إزالة السلطة المفسدة، لولا هذه الشدة وهذه الخشونة[١].. وهل نسى الشيخ أن هذه هي صفات المجاهدين أو المقاتلين العقائديين في كل زمان ومكان، هل نسى وصف الله ﷻ لنبي الرحمة وصحابته: «محمد رسول الله والذين معه، أشداء على الكفار رحماء بينهم». ولا أحد ينكر، أن الإخوان كانوا يبالغون في التراحم فيما بينهم، بل وأتحفنا الشيخ نفسه بنماذج من هذا التراحم. فالشدة كانت على الأعداء.. والتاريخ لا يكتب بمداد الرحمة وحده، بل وبسيف العدل..

وماذا يفعلون يا شيخنا وقد أمرهم الله: «قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة». أليس تطبيقها هو بالضبط غزو «المجاورين» والغلظة

---

(١) القسوة كانت، بل والبعض يعتقد أنها لا تزال الوسيلة الوحيدة لحفظ الأمن، فأين جلوى حمى الشيعة من قسوة الإخوان، بالقسوة في الإجراءات ضد الإخوان حتى سمى «جبار آل سعود».. والدعوة ترتفع في الدول الغربية مطالبة بإعادة العقوبات الشديدة لتحقيق الأمن.

عليهم. أما عن أنه لا أحد يفلت من سيفهم في المعركة.. ألم يقل الله ﷻ: «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض». هذا هو الجيش الذي منذ أول هزيمة أنزلها بنا الصليبيون، ومشايخنا يدعون الناس ليكونوه.. هو الجيش الذي تمناه أهل الأندلس قبل أن يبادوا، وتمناه الجبرتي ليمنع نابليون من دخول الأزهر بخيوله، وتمناه الجزائريون ليحول دون جيش «الثورة» الفرنسية، ورفع الصليب على المسجد الكبير في الجزائر، وتحويله إلى كنيسة، وتمناه الشيخ وهبة ليخرج الإنجليز من مصر، ويمنع فتك الإيطاليين بأمة القرآن «الأمة الملعونة» كما تغنوا في كباريهات روما ومواخيرها!

هو الجيش الذي تمناه الشيخ في كهولته، وهو يرى نقيضه اليهودي، يهزم سبع دول، وهو الجيش الذي افترس نفسه لأن الشيخ وتلاميذه، بل وأساتذته لم يستطيعوا أن يوجدوا التعاليم أو النظرية أو التفسير الذي يجمع بين هذه النصوص الخالدة، وبين ضرورات الحياة المعاصرة، ومازلنا نعيش في مأساة القدرة على تحضير الجان، والعجز عن توجيهه.. فلا تحملوا القوم أوزار عجزنا.. كفاهم شهادتكم بأنهم أقوى جيش إسلامي ظهر في العالم منذ انهيار الإنكشارية حتى اليوم.

ولعل الزركلي اقترب شيئا ما من المشكلة، وإن لم يمس جوهرها عندما قال إن تخلف نجد، وليس تخلف المشايخ، هو المسئول عن بعض التشنجات الإخوانية، وخاصة معارضة المخترعات الحديثة. أما عن «العطار» فحدث ولا حرج، فهذا الذي رأيناه موضوعيا يثني على ابن رشيد، ومتعاطفا مع الهاشميين، أفاض في سب الإخوان، ورميهم بكل نقيصة تخطر على البال، فوصفهم بأن «أكثرهم كانوا

جامدين يعيشون فيما يشبه الجب لا يبرحونه، وبلغوا من الشدة والعنف والجهل أن حرموا ما أحل الله، وأفتوا بغير ما أنزل. وكفروا المسلمين، وأعلنوا الحرب على كل ما أنتجته الحضارة، وأنكروا على المصلحين صلاحهم». وقال: «إن أتباع فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن حثلين يعيشون عيشة بدوية فظة غليظة. فإن ابن سعود لم يكن مثلهم، بل كان على نقيضهم».

ولا أحد يقول إن ابن سعود كان نقيضا لفيصل الدويش في لذيذ العيش ولينه، بل في الثقافة والتصور الإسلامي، وإلا فالروايات تؤكد[(١)] أن الدويش كان ينال كل ما يطلب، وكان يعيش حياة لا تختلف كثيرا عن مستوى «رفاهية» سلطانه!

وينفعل العطار كعادته، فما تكاد الصفحة تنتهي حتى يصبح الإخوان: «الذين هم تحت أمرة فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وابن حثلين وأشباههم الغلاظ الشداد أعداء الحضارة والمدنية، فقد كانوا مثل رؤسائهم في الجلف والشدة والنقمة العارمة على المتمدينين والمدينة وكانوا جميعا وحوشا ضارية مفترسة»! ثم «غرائزهم المتوحشة» وعداءهم لأن سعود مبعثه «الحقد والنقمة والعداوة والبغضاء الصادرة عن أطماعهم، فهم عبيد دنيا وأسرى مظاهر» «المتمردون الموتورون» «طمعا في الكسب الحرام». ثم نرى «سلطان بن بجاد». «لقب نفسه بسلطان الدين وكان **سفاحا قاتلا**» (!!) بل تفتح الدفاتر القديمة، ويستعار من الإعلام الهاشمي فيتهم سلطان بن بجاد، بأنه عند فتح الطائف «قتل هو وجماعته الأبرياء من سكان الطائف والمصطافين من أهل مكة المكرمة، ونهبوا الأموال»!

---

(١) ومنها العطار نفسه، بعد صفحتين وليس أكثر عندما قال إن الدويش كان يتزود من خزانة الدولة بالمال الكثير كما كانت له ولأولاده وزوجاته مخصصات ضخمة شهرية وسنوية.

ونسى تماما أنهم الجيش الذي أقام الدولة التي يتمتع بجنسيتها.. وقد قاموا بكل هذه الأعمال باسم عبد العزيز!...

بل تعاد كتابة التاريخ، فنجد أن الدويش لم يكن بطل الفتوح ولا قائدها، بل «اشترك في كثير من حروب ابن سعود، كما كان مع الجيش السعودي الذي حاصر المدينة حتى استسلمت للأمير محمد بن عبد العزيز» ويكاد يقول إنه كان مع الجيش السعودي كمراسل حربي! أو كمرافق أو نديم للأمير محمد!

وفجأة يقول إن «الدويش كانت له مكانة عند ابن سعود جعلته يلبي كل مطالبه»! لماذا؟!

أما مؤتمر الأرطاوية والاتهامات التي وجهت للقيادة فقد لخصت على أساس أن الدويش زار ذات يوم ابن بجاد في مقر إمارته بهجرة الغطغط «وتكاشفا فقررا الثورة.. ولكسب الأنصار اتهموا ابن سعود «بترك الجهاد وقتال المشركين، والمشركون في نظرهم، من لم يكونوا من الإخوان. وهناك أسباب أخرى، ولكن الجهاد كان أعظمها، فهم يريدون ابن سعود أن يجعل سيفه دائم الأصلات على رقاب العباد، ولكنه أغمده، بل حوله إلى «محراث» يعمر الأرض»!! وهذه أول مرة يكشف لنا العطار أن سيف ابن سعود كان مصلتا على رقاب العباد قبل أن يغمده، وهذه أيضا أول وآخر مرة نعرف أن ابن سعود حول سيفه لمحراث، لأنه سيحارب بعد ذلك الإخوان وابن رفادة واليمن!

بل وحتى مفهوم الإخوان عن الجهاد خاطئ ويستحق النقد.. لماذا؟ وهم الذين جاهدوا على جميع الجبهات أكثر من ١٥ سنة؟!

لأن مفهومهم مخالف لما قاله العطار في كتابه «إنسانية الإسلام»!

ورحم الله مؤلفا عرف قدر نفسه..!

«محمد أسد» تفرد بنقد عبد العزيز وحمله مسئولية ما جرى، وإن كان في نفس الوقت -كما سنرى -قد هاجم الإخوان وشكك في نواياهم، وأثبت لعبد العزيز تعاونهم مع الإنجليز، واشترك في الحملة الإعلامية ضدهم!

قال: «إن ابن سعود قد ضاق ذرعا بتقلب البدو وخاصة مطير بزعامة الدويش، وتقلبهم بينه وبين ابن رشيد، ففكر في خطة لعله لم يقصد منها بادئ الأمر سوى أن تكون مناورة سياسية، إلا أن قدر لها في ما بعد أن تنقلب إلى فكرة عظيمة، استطاعت أن تبدل وجه شبه الجزيرة كله، وهي خطة توطين القبائل الرحل. فقد كان واضحا أن البدو، متى استقروا، لابد وأن يقلعوا عن لعبتهم المزدوجة بين الفريقين، ذلك أنه كان من السهل عليهم، في حياتهم البدوية غير المستقرة، أن يطووا بيوتهم الشعرية في لحظة، وأن يسيروا بقطعانهم من جهة إلى أخرى ومن جانب إلى جانب، ولكن حياة الاستقرار، لابد أن تجعل ذلك مستحيلا عليهم، إذ أن انتقالهم إلى محالفة العدو لابد أن يجلب معه خطر فقدان بيوتهم ومزارعهم، وليس أعز على قلب البدوي مما تملك يداه».

ورغم إقراره بأنها كانت خطة عسكرية وسياسية، إلا أن تفسيره لظهورها وتدهورها غير دقيق، فهي فكرة عظيمة من البداية، ولكن نتائجها هي التي فاقت أي توقع. وهكذا الثورات والعقائد لا يمكن التنبؤ بحجم تأثيرها في البداية، ورغم إقراره بأنها كانت خطة عسكرية وسياسية، إلا أنه أخطأ أيضا في تفسير حجر الزاوية فيها، فربط البدوي بالملكية، أي تنمية غريزة التملك فيه، لا تكون بدايته، إقناعه ببيع أبله، لإثبات تحرره من حب الملكية! وما دمنا في مجال الحديث عن قلب البدوي، فالإبل هي أعز ما يملك، ورغم زرع «حب الملكية» ما يقرب من عشرين

سنة في قلوب الإخوان، فإنهم عندما ظنوا في الدولة الخروج عن العقيدة، لا اهتموا بالملكية ولا بالأرض ولا بالبيوت ولا المزارع.. بل طووا بيوتهم الشعرية، ووقفوا ضد السلطة، ورأوا «مستوطناتهم» تدك دكا كما حدث في الغطغط.. فليست الملكية هي التي أوقفت ترددهم بين ابن سعود وخصومه، ولكن الرباط العقائدي، فما كان الدويش ليترك «الإمام» وينحاز لملك العراق مثلا.. لأن ذلك في مفهومه الجديد يعني الردة، والانحياز إلى المشركين.. فالعقيدة هي الرباط الحقيقي الذي يصر الجميع على إنكاره، لكي يجردوا الإخوان من شرف المبدأية، ويحولوهم إلى مرتزقة انضموا لعبد العزيز مقابل ما منحهم من أملاك! حتى ليوبولد الذي ترك وطنه وعائلته في النمسا وحملته العقيدة إلى صحراء العرب، يتحدث عن رابط الملكية!.. وكأن «الهجرات» لم تكن تدرس حديث «من كانت هجرته لله ورسوله...» الخ حتى يقال إن الإخوان هاجروا من أجل تجارة أو زراعة وليس من أجل جنات الخلد!..

ولكن محمد أسد يصبح أكثر وضوحا في الفقرة التالية: «وقد جعل ابن سعود توطين البدو أهم نقطة في برنامج، وقد ساعدته في ذلك إلى حد كبير تعاليم الإسلام التي تؤكد دائمًا فضل الحضارة على البداوة. وأرسل الملك المعلمين الدينيين يفقهون البدو في الدين، ويبشرون بالفكرة الجديدة التي لاقت نجاحًا لم يكن يتوقعه أحد، وبرزت مؤسسة «الإخوان» كما أخذ البدو المتحضرون يسمون أنفسهم. وأول هجرة «مستقر» للإخوان كانت هجرة مطير، قبيلة الدويش».

«وأصبحت حماسة الإخوان الدينية وقوتهم الحربية أداة فعالة في يدي ابن سعود. ومن ذلك الحين فصاعدا اتخذت حروبه مظهرا جديدا. ذلك أنها بعد أن حمل لواءها الإخوان بحميتهم الدينية، تخلت عن صفتها السابقة كنزاع عائلي

على السلطة، وأصبحت جهادا دينيا. وفي نظر الإخوان، على الأقل. (لماذا هذا التحفظ يا أسد. وقد شهدت في أكثر من موضوع بعمق إيمان عبد العزيز!)»

«كان هذا التجدد الديني يتضمن أكثر من معنى شخصي. ففي تمسكهم تمسكا لا يعرف اللين أو المهاودة بتعاليم المصلح العظيم في القرن الثامن عشر، محمد بن عبد الوهاب، فإن الإخوان كثيرا ما كان يستحوذ عليهم شعور مغالى فيه من التقى والورع الشخصيين، إلا أن ما كان يرغب فيه معظمهم قبل أي شيء آخر، لم يكن التقى الشخصي فقط، بل إقامة مجتمع جديد يمكن أن يدعى إسلاميًا بحق. صحيح إن كثيرًا من مفاهيمهم كانت بدائية، وأن حماستهم الدينية كثيرًا ما قاربت الغلو، ولكنهم لو أتيح لهم إرشاد وتعليم صحيحان، فإن ورعهم الديني العميق كان خليقًا به أن يمكنهم من توسيع أفقهم، وأن يصبحوا مع الزمن النواة لانبعاث جزيرة العرب كلها انبعاثًا صحيحًا، اجتماعيًا وروحيًا **إلا أن ابن سعود، لسوء الحظ، قد أخفق في إدراك الأهمية الكبرى لمثل هذا التطور، وبقي قانعا بتعريف الإخوان إلى أبسط مبادئ الثقافة الدينية والدنيوية والحق أنه لم يعرفهم إلى شيء من هذا إلا بالمقدار الذي بدا ضروريا للحفاظ على حماستهم وغيرتهم. بكلمة أخرى، لم ير ابن سعود في حركة الإخوان إلا وسيلة لبلوغه القوة واستتباب الحكم**[1]. **وفي السنوات التي تلت، كان من المقدر لهذا الإخفاق أن يرتد وينكص على سياسته هو بالذات، وأن يهدد في الصميم وجود المملكة التي بناها بيديه. ولعل هذا الإخفاق قد أعطى أيضًا الدليل الأول على أنه كان يفتقر إلى العظمة الداخلية التي أصبح شعبه**

(١) لاحظ أن هذا الكلام مترجم ويباع في المكتبات ويقرأه الشباب بدون حوار أو رأي معارض، إلا زيد النفاق التافه الذي يدعم أدعاء أسد!

يتوقعها منه. ولكن خيبة أمل الإخوان في الملك، وخيبة أمل الملك في الإخوان، لم تتضح إلا بعد سنوات طويلة».

وكما أخطأ محمد أسد في الثناء على «مكر» ابن سعود السياسي، فقد أخطأ أكثر في اتهامه بالتقصير الديني والأيديولوجي، أو حكاية الافتقار للعظمة الداخلية!

والحقيقة هي أن ابن سعود وصل إلى الهجرات والإخوان. انطلاقًا من ثقافته وتاريخه، من استيعابه لتاريخ الإسلام، وتاريخ أسرته[1]. فهو كان يعرف من تاريخ الإسلام، ومن تجربة أسرته الخاصة، قدرة العقيدة على تفجير الطاقة، وكل ما أراده عبد العزيز هو تجديد هذه الروح، تجنيد المؤمنين، التحول من طالب ملك إلى قائد حركة، أي اتخاذ وضعه الطبيعي كأمير عظيم من أمراء البيت السعودي، فهو بيت رسالة، كما قال مرة، وعظيم هذا البيت لابد أن يكون قائد حركة، وإلا فليقبل دور عبد الله الفيصل وسعود الفيصل وغيرهما! والتحديات التي تثيرها هذه الحركة داخليا وخارجيا، لا يمكن مواجهتها بالأساليب المعتادة، بل لابد من مؤمنين بمستوى الدعوة، وهكذا تكونت «الهجر» لا مشروعا زراعيًا، ولا خطة سياسية ماكرة! بل تطبيقًا عبقريًا لمفهوم الجهاد الإسلامي، وتطويرًا لدور تحمله هذا البيت الذي أصبح عبد العزيز عميده.

ولم يكن الإخوان وحدهم الذين أرادوا إقامة المجتمع الإسلامي الصحيح، بل أراد ذلك عبد العزيز بكل قواه، وأراده أولا، ومن ثم جند الإخوان وأقنعهم بالاستشهاد في سبيل إقامته، ثم حاول جاهدا أن يقيمه بهم، تمامًا كما أراد محمد أسد، وكما توقع هو وغيره من عبد العزيز.. ولم يخفق عبد العزيز أبدًا في إدراك

---

(١) والأدلة متوفرة على الاستيعاب في الاثنين، من تفسيراته ومناقشاته، وتحليلاته لأخطاء أسلافه، والتعليق على تصرفاتهم مثل سعود الكبير وعبد الله بن فيصل. وإشارته إلى معاهدات ومواقف تكاد تكون مجهولة.

أهمية بناء المجتمع الإسلامي الصحيح، ولا كان يرفض أن يعطيه هذا المجتمع ما أعطاه المجتمع القديم في عصر الخلفاء الراشدين، من مجد وعزة وخلود للجزيرة العربية وأبطالها.. وما من واقعة واحدة، وردت ولو على لسان عدو، توحي بأنه شخصيًا كان يتناقض مع هذا المجتمع المنشود.. ولا كان سبب الفشل، أنه يفتقر إلى العظمة الداخلية، إلا إذا كنا نعني بها تلك الصفات المطلوبة في «المهدي المنتظر» الذي سيحل لغز أبي الهول ويعيد لنا «إرم ذات العماد» التي لم يخلق مثلها في البلاد.

ومنذ ابن سعود، بل وقبله بألف سنة، وها نحن ندخل القرن الثاني منذ ولد عبد العزيز، ومازلنا نفتقر جميعا بما فينا المؤلف الناقد لتلك العظمة الداخلية أو الخارجية التي تمكننا من اكتشاف السر في بناء المجتمع الإسلامي الصحيح.

أما خيبة الأمل المزدوجة، فهي المأساة الناجمة عن الخطيئة الأولى، أعني عجزنا جميعا عن إيجاد المعادلة الصحيحة التي يمكن أن تتم بها عملية البعث الإسلامي.

وسامح الله محمد أسد، فقد ضن علينا وعلى عبد العزيز والإخوان والباكستانيين، بالتعاليم التي يرى أنها كانت كافية لخلق هذا المجتمع، وتطوير الإخوان، فلا يضلون بعدها أبدا.. والتي يعتقد –خطأ وظلما –أن الملك «أوكى عليها» (كما في حديث علي عن أبي ذر رضي الله عنهما) أي كتمها عن الإخوان!

فلنؤجل حديث خيبة الأمل[١]..

(١) وها هو قد غادر الساحة كلها واعتكف في طنجة! فلماذا التجني على الذين اجتهدوا وجاهدوا وإن اختلفوا فقد كان خلافهم في ساحة العمل وليس في برج التأمل!

المهم أن جميع المعاصرين، قد رأوا في حركة الإخوان ملامح هذا الحدث الأسطوري الذي تم في القرن الأول الهجري، ورجوا له أو توجسوا منه أن يكرر نفس النتائج، رغم علمهم بمدى الفارق الهائل في التكنولوجيا بين نجد وأوروبا في هذه المرحلة مما يؤكد قناعة الطرفين بصحة النظرية، وهي قدرة الإيمان على عبور فارق التقدم.

وإذا كنا نسلم مقدمًا بالعجز عن تقديم الحل الذي كان يجب أن يتبع لتنجح التجربة، إذ لو كنا نعلم الغيب، لاستكثرنا من الخير، أو لفتحنا نحن الكنز، وركبنا الدواء الذي يشفي بنت السلطان.. ويقيم المجتمع الموعود. فلنقنع إذا بشرح كيف ولماذا فشلت التجربة..

الصدام

كما كانت فكرة الإخوان من عبقرية عبد العزيز وحده، فإن تصفيتهم كانت مهمة مستحيلة إلا على عبد العزيز.. أو كما قيل «من يحضر الجان يعرف كيف يصرفه». وكما كانت الظاهرة محيرة، وفوق قدرة التفسير بالمنطق العادي.. فإن انشقاق الحركة، وتمردها، ثم انهيارها السريع، عسير على الفهم، يفوق القدرة على التفسير، إذا ما استعان المفسر بالمنطق الجاري، والروايات التي تستظرف الأخبار، أو تتجنب المواجهة الموضوعية، أو محاولة البحث عن أسباب في نقص خلقي، أو سوء نية في أحد الطرفين أو هما معا.. مع أن قناعتنا هي أنه ما من طرف في القضية يستحق الإدانة بمسئولية ما حدث! أو تسيء الحقيقة إليه.. بل كل مضى إلى مصيره المحتوم، وكل لعب الدور الذي يفترض فيه أن يلعبه، ويتوقع منه..

وليس ما جرى في السعودية هو الأول من نوعه، ولا كان الأخير.. وفي صدر الإسلام، اضطر رئيس الدولة إلى عزل قائد الجيش سيف الله المسلول الذي لم يهزم قط، ولا حتى في أحد! وإذا كان الأمر لم يحتج وقتها إلى معركة، ولا إجراءات أمن خاصة، فلأن السلطان كان عمر بن الخطاب، والقائد خالد بن الوليد والجند صحابة رسول الله. وهيهات أن يتكرروا. كذلك تقاتل المسلمون الأوائل قبل مرور ثلاثين عامًا على هجرتهم! وقال شاعر الأمويين: واللؤم تحت عمائم الأنصار قبل أن ينقرض جيل الأنصار.

وكل الجيوش التي كانت لها مهمة سياسية من خلال تربية عقائدية، لابد عقب النصر من دخولها في مواجهة مع القيادة المدنية، فأما أن يتولى العسكر السلطة، ويصبح الجيش هو الطريق إلى الحكم. أو تصفي القيادة السياسية، العسكر المنتصر.. حدث ذلك في الصين وفي إسرائيل وفي جيش التحرير الجزائري وفي روسيا.. وقبل ذلك في السعودية..

وفي كل الثورات، فإن الخلاف يبدأ عندما يصل الخط البياني إلى نقطة الذروة، عندها يحدث الانشقاق، ويبدأ الانفراج الذي يظل يتسع بانحداره من القمة إلى القاعدة حتى يتحول إلى صدع.

والثورات التي تتصدع أو تموت بسبب انحرافات أو أخطأ كان يمكن تفاديها، لا تشكل ظاهرة، ولا تستحق اهتمام المنشغلين بفلسفة التاريخ. أما حركة عبد العزيز، فقد فشلت بسبب الخلاف القدري أو المحتوم، الذي لم يكن هناك من سبيل لتفاديه. ومن ثم تفرعت عنه كل الخلافات الأخرى، التي قد تبدو للبعض أنها أهم، ولكنها مجرد نتائج للسبب الحقيقي، وهذا السبب الذي يشكل -كما قلنا أكثر من مرة -عقدة الحل الإسلامي، ومن ثم يحتاج إلى كل جهد وصبر وموضوعية في فهمه.

وقد أشرنا إليه في تجربة سعود الكبير، عندما عجز عن الخروج من رحم الجزيرة العربية، فاختنقت الدولة والثورة معا، وقد أشار إليه. «غلوب» على سبيل السخرية والتشفي، دون أن يفهم أبعاده بالطبع. فهي أعمق وأكثر تعقيدًا من فهم هذا الجلف الذي لم تؤثر السنون على مستواه الثقافي أو فهمه للأحداث، فظل يفكر في السبعينات بعقلية موظفي الإمبراطورية في الهند ونيجيريا في العشرينات!

قال غلوب في تقرير أحداث ١٩٢٢-٤٠/ ١٣٤١هـ: «أعتقد الإخوان أن مهمتهم هي إخضاع العالم للوهابية، ولم يكن لديهم أي استعداد للوقوف عند حدود سياسية رسمها شخص على الخريطة ولذلك شرعوا في إدخال العراق في مملكة ابن سعود أو في دين الله كما فعلوا في حايل!»

وقال فيلبي: «لو استطاع ابن سعود وخلفاؤه أن يقودوا سفينة الوهابية، ببراعة، ويتفادوا صخور السياسية، فلربما استطاعوا أن يعيدوا الإمبراطورية العربية، ويملأوا الفراغ الذي أحدثه سقوط الترك». ويضيف فيلبي إلى عوامل نجاح هذا الاحتمال «أنه لا توجد قوة شرقية يهمها أو قادرة على التدخل باسم الإسلام ضدهم كما حدث في المرة الأولى، عندما استولى الوهابيون على مكة[1]».

وتوقع الريحاني انتهاء مهمة «الهجر» بتحقيقها الوحدة العربية: «السائرة البلاد نحوها. فهذه الوحدة ستضيق مجال الغزو، ثم تزيله في النهاية تماما، فلا يجد العرب إذ ذاك أعداء من العرب، أو عربًا مشركين، للغزو والجهاد فيهم» وتوقع كلايتون أنه لو سار ابن سعود والإخوان بالمعدل الذي حققوه حتى عام ١٩٢٧ (٤٦/ ١٣٤٥هـ) لأعادوا «إمبراطورية» العرب الأولى.

وعبد العزيز نفسه توقع: «لو وفق الله أبنائي، كما وفقني فسيملكون مقدرات مائة مليون مسلم».

فكل الأطراف كانت ترى أن مهمة وقدرة الإخوان أكبر من أن تحتويها الجزيرة، فضلا عن مملكة ابن سعود.

ولكن فيلبي وغلوب اتفقا على أن بريطانيا هي العقبة في وجه أي محاولة لتجاوز حدود مملكة ابن سعود.. قال فيلبي: «إن عبد العزيز يدرك تمامًا أن بريطانيا

(١) هذا صحيح.. ولكن القوى الغربية كانت أكثر اهتمامًا وأكثر فعالية في مقاومة البعث الوهابي الثاني.

هي العقبة الكؤود في وجه أية محاولة لإعادة روح الجهاد عبر الحدود». وقال غلوب: «لولا الانتداب البريطاني لكان من الممكن أن يغزو ابن سعود العراق، ويلقي به في الفوضى».

رأى ابن سعود أن طاقة جيله انتهت بتوحيد ما وحدته وأنه لا يستطيع محاربة بريطانيا في العراق والكويت وعدن.. الخ ربما لأن شعوب هذه البلاد لم تكن ناضجة للتحرير... وهكذا اختلفت الدولة مع الثورة. وكان خلافا محتومًا. وخيار كل فريق كأنه القدر المكتوب، أو الدراما الإغريقية.. ابن سعود أراد فترة بناء بعد حروب دامت ثلاثين عاما، أراد إقامة دولة نموذج تكون قاعدة لكل النشاط الإسلامي، سواء باحتضان الثائرين أو بدعمهم بالمال والسلاح وربما المتطوعين ولكن دون اللجؤ إلى الفتح أو الاصطدام المباشر مع بريطانيا وفرنسا.

الإخوان اختاروا الثورة، وما كان لهم أن يختاروا غيرها، بحكم تربيتهم وعقيدتهم وتكوينهم كمؤسسة عسكرية. اختاروا استمرار الثورة، استمرار تحرير الوطن الإسلامي من حولهم.. وهل يمكن القول بأن الإخوان أرادوا استمرار الثورة، حتى ولو كان الثمن تعريض الدولة السعودية للخطر أم الأحرى القول بأنهم رأوا أنه لا معنى ولا إمكانية لاستمرار «السعودية» إذا لم تستمر الثورة، فليست القصيم بأعز على الإسلام من بغداد ودمشق والقاهرة؟!.. وأنه إذا ما انحصرت الثورة في الدولة السعودية، جفت الدولة، وذوت الثورة في الصحراء، كما حدث في تجربة سعود الكبير. ويمكن القول إنهم كانوا على حق نظريا، فقد كانت سنوات جفاف شديد ومن الناحية العلمية لم يكن للدولة من موارد إلا الفتح، أو التساهل وقبول المكوس حتى على الدخان. ولولا مصادفة جيولوجية ما كانت في حسبان أحد وهو ظهور النفط لذوت الدولة.. فهي ضربة حظ جعلت ابن سعود يربح المراهنة،

وأيضا كان «الإخوان» يعتقدون أنهم لو اتخذوا خطة الدفاع فلن يتركهم المشركون، بل سيزحفون عليهم كما فعلوا مع التجربة الوهابية الأولى، فكان شعارهم «أغزوهم قبل أن يغزوكم».

عبد العزيز اختار الدولة، وما كان له أن يختار غيرها، لأنه لا الظروف الموضوعية، ولا الذاتية، كانت تسمح له بتصور انتصار إسلامي عالمي، أو تهاوي بريطانيا وفرنسا كما تهاوت إمبراطوريتي الروم والفرس[1]. فاختار بناء المجتمع الإسلامي في بلد واحد، ليكون نموذجا وحافزًا، لتجدد الثورة، وانتشارها، عندما تأتي اللحظة المناسبة. ومن ثم كان عليه أن يعترف بالحدود، والكيانات، والسيادات، لأنه لا يملك القدرة إلى إزالتها، ولأن استمرار الثورة، يعرض «حصن الإسلام» للخطر، بل للزوال! ولأنه بدأ رجل دولة، فإذا كانت «العظمة الداخلية» المطلوبة هي تلك التي أقنعت عرب الجزيرة الأوائل بفتح العالم بالقرآن، فإننا جميعا نفتقر إلى هذه العظمة، ونسأل الله أن ينعم بها علينا أو على جيل من بعدنا.

الخلاف في جميع الثورات هو:

الثورة الدائمة.. أم بناء دولة الثورة؟! ولا أستطيع أن أتذكر حالة واحدة انتصر فيها تيار الثورة الدائمة.. وبقيت الثورة أو الدولة..! فإذا شئنا أن نجلس في مقاعد القضاة، فيمكننا القول إن رأي الإخوان كان يعني ضياع الدولة والثورة معا.. أما موقف عبد العزيز فكان المتفق مع كل الخيارات التي سبقته وإن كانت التطورات حالت دون تنفيذ ما أراده.

---

(١) وهذا واضح عندما قال له كلايتون إنه لو استمر له الفتح بنفس المعدل فقد يقيم إمبراطورية مثل الإمبراطورية البريطانية فكان رد عبد العزيز «هذه وإن كانت أمنية العرب، ولكنني لا أعتقد في نفسي القدرة على تحقيق ذلك».

هذا هو الخلاف الأساسي.. أما كيف تفجر عند السطح وما هي الأشكال التي اتخذها فقد تكون أقل أهمية ولكنها جديرة بالدراسة والتسجيل..

نجم الخلاف تحت أسوار جدة، والحق أنه منذ أن دخل «الإخوان» الحجاز تفجر التناقض، وبدأت الأزمة، فطالما ظلوا شرق الحجاز، لم يكن هناك فارق أساسي في أسلوب الحياة بينهم وبين «المشركين»، ولكن في الحجاز، تتجمع شتى الحضارات والثقافات والتقاليد من مختلف المجتمعات الإسلامية، فبدأ التنافر على الفور بين البدو المسلمين المتطهرين الذين يريدون الإسلام في أكثر صوره تجريدًا، ويرون في أبسط الطقوس مظهرًا من مظاهر الوثنية، وبين المجتمع الحجازي المدني، الشديد الاهتمام بالطقوس، مع ما يبدو من عدم اهتمام أو حتى لا مبالاة أو عدم تقدير لعظمة المكان الذي يعيشون فيه، والذي يسافر إليه الحاج من جاوة أو نجد في لهفة وشوق واقتنان لرؤية المشاعر، فيصدم بأن مطوفه المكي لا يكاد يلقي نظرة على المسجد الحرام، أو الكعبة، وقل أن يشرب من زمزم، (إذ يستحيل عليه أن يشرب مع كل حاج طبعًا) وقد كان هذا الحاج يغبط هؤلاء السعداء الذين يعيشون بجانب هذه المشاعر، ويتمنى -وكثيرًا ما يفعل -أن يجاور ما بقي من عمره، ليفجع بأن هؤلاء المحظوظين لا يقدرون النعمة التي هم فيها، بل ويبنون بيوتهم خارج الحرمين، ليتجنبوا ازدحام الحجاج! والقادم من الخارج، يتوقع، من أهل الحرمين والحجاز عموما، سلوك أولياء الله الصالحين، حديثهم تلاوة وذكر، وحياتهم عبادة وزهد في الدنيا... وبيعهم وشراؤهم، كما في الأسطورة، وبالصلاة على النبي، وليس بالريالات..! ومن ثم يصدم عندما يكتشف اهتمامهم بشئون الحياة، بل وتكسبهم من المناسك، وهو سلوك طبيعي، معروف عن كل الذين يعيشون حول الأماكن المقدسة في كل الديانات، فهذه هي حياتهم ومصدر رزقهم

بل يعتبرون أن الله أكرمهم بهذه المناسك ليتعيشوا منها.. وإن كان إيمانهم لا يقل عن الحاج.. إلا أنهم يعيشون دنياهم حولها، وهو جاء ليبدأ آخرته..

جاء الإخوان بشعور الحاج مضاعفًا آلاف المرات، فهم المهاجرون والأنصار معًا! وهؤلاء قريش وأحابيشها، يمارسون الشرك ويرتكبون المنكرات في البلد الحرام. وقد اضطر ابن سعود للتدخل أكثر من مرة ليمنع الإخوان من التعبير -بأساليبهم -عن سخطهم على أهل مكة. واستطاع الحكم السعودي أن يطمئن المكيين والحجازيين، بل والمسلمين عموما، بتدخله للحد من تشدد الإخوان، ولكن على حساب علاقته مع هؤلاء، بل استطاع الحجازيون بخبرة أهل المدن أن يدقوا إسفينا بين الثورة والدولة ابتداء من طلبهم التسليم لأمير سعودي وليس لقائد إخواني، معلنين بذلك ثقتهم وقبولهم للدولة، وشكهم في الثورة أو رفضهم لها(١)..

وظهر الخلاف على السطح تحت أسوار جدة. عندما فرضت سياسة «الدولة» والمستشارين، اختيار الحصار والمفاوضة، بدلا من اقتحام البلد بإعصار الإخوان، الذي كان قادرًا ومتحفزًا، ونافذ الصبر لتنفيذ هذا الاجتياح، ولعل الإخوان، أو قيادتهم، كانت تخشى أن تتكرر غلطة سعود الكبير، عندما تباطأ في غزو جدة، والسيطرة على الساحل، فكانت ثغرة خطيرة. ولعل الإخوان كانوا قد سمعوا بمحاولات بعض أعيان جدة في الحصول على الانتداب البريطاني أو الحماية.

---

(١) وكان ابن سعود يعرف مدى التناقض بين مفاهيم الإخوان ومسلكهم، وبين الحياة في الحجاز، وخاصة في جدة التي مازال بقايا هذا الجيل العجيب يسميها بلاد «الكفرية» أو الكفار. وقد ذكر «الصبان» أنه بعد انتهاء حرب اليمن التي كسبها الإخوان (المعتدلون -فقد كان ذلك بعد القضاء على الجناح المتشدد) تحت قيادة سعود وفيصل. ناداه الملك وقال له: «أحضروا السيارات في جدة، بمجرد وصول الإخوان والجيش، من البحر، انقلوهم في السيارات، ولا بأس من أن يعتمروا، وإذا أدوا العمرة، فعليهم أن يذهبوا حالا إلى بلادهم لئلا يكون منهم على المدن بعض ما لا يحسن».

هذا عن المعتدلين وبعد ٤ سنوات من تحطيم الجناح المتطرف فما بالك بالمتشددين؟!

وقد سجل الريحاني اجتماع ٤ جمادى الثانية ١٣٤٣ -٣٠ ديسمبر ١٩٢٤. الذي طالب فيه زعماء الإخوان بالهجوم على جدة. وتجرأوا على مخاطبة عبد العزيز بألفاظ قاسية وهو في قمة نصره:

قال الريحاني: «وعقد في الشهداء مجلس حربي (٤ جمادى الثانية ١٣٤٣) حضره جمع من القواد والإخوان: فتكلم أبو حميد ابن بجاد مخاطبا الإمام عبد العزيز: «إننا نعلم أن لا صلاح في أمر دين ودنيا للمسلمين عمومًا، ولهذا البيت وأهله خصوصًا، بوجود الحسين وأولاده في الحجاز. فإذا كان هذا ثابتًا عندنا، ونعتقده دينًا، فما المانع من الزحف عليهم وقالتهم؟ فإن كنت تخاف على أحد من رعايا الأجانب أو أحد من أهل جدة، فلك منا العهد والميثاق أننا لا نمسهم بشر، إلا من برز منهم لقتالنا أو بلانا بنفسه، ونحن كما تعلم نتجنب ما تأمرنا بتجنبه.. والآن فلابد لنا من أحد أمرين: الأول أن تعلمنا الطريق الذي يجب أن نسير فيه، ونحن نكفيك مؤونة الأمر.

الثاني: إذا كنت لا توافق في الزحف لما تراه من الأمور التي أنت أعلم بها منا، فلا يجوز أن نظل بعيدين عن أعداء الله هذا البعد. بل يجب أن نقترب منهم ونضيق علهم الخناق حتى يحكم الله بيننا وبينهم. أما الأمر الأول فهو مرادنا. وأما الثاني، فليس إلا مرضاة لخاطركم يا الإمام. لأن الله أوجب علينا طاعتك».

والانشقاقات تبدأ دائما بالمزايدة على القيادة السياسية، وقد طرح خالد بن لؤي المزايدة بصريح العبارة، فقال في نفس الاجتماع، عندما تكلم بعد ابن بجاد: «يا عبد العزيز إني أقول كلمة وإن كانت تغيظك. كنا نتحدث فيما بيننا ونقول: قد بدل عبد العزيز الشجاعة بالجبانة. وكنا قبل قدومه نتمنى قدومه. أما اليوم فصرنا نقول، ليته ظل في بلده بعيدًا عنا، فإن كان هناك دليل شرعي يؤخرنا عن القوم فبينه

لنا حتى نتبعه، وما نحن إلا خدام الشرع. وإذا كان لا قصد لك غير الشح بأنفسنا عن الموت فما من أحد يموت قبل يومه. وما نتمنى والله أن نموت إلا شهداء. فأي قتال تراه أفضل من قتال الحسين وأولاده؟ وأي عمل جاء فيه الضرر للإسلام والمسلمين أكثر من عمل الحسين وأولاده».

وخالد بن لؤى كما نعرف، من الأشراف، وتولى مفاوضة عبد العزيز، وتبادلا الإعجاب في قضية سعد بن عبد الرحمن، وعندما ستنشب الثورة المضادة بعد سنوات، لن يشترك فيها خالد، وهذه العناصر هي دائما الأكثر تطرفًا في المؤتمرات! ولكن ابن بجاد وابن لؤى كان يعبران عن شعور «الإخوان».. لماذا نتوقف عن إحراز نصر أكيد..؟ لماذا المساومة.. لما نترك المجال لبقايا الأشراف يدعمون مواقفهم؟.. والإنجليز يستثمرون الموقف.

وحجة الإخوان وقتها، أو على صفحات التاريخ، هي أن حصار جدة، قد أتاح الفرصة للإنجليز للمساومة، واقتطاع أجزاء كان يفترض أن تضم للوطن.. فلو تم الاجتياح العاصف، وقد كان ممكنًا، لأسقط في يد الجميع، ولا أتيحت فرصة للإنجليز للتفاوض على حدود الأردن، واقتطاع العقبة ومعان.. الخ.

وحجة الدولة.. أن دخول الإخوان، ربما أدى إلى أحداث مشابهة لما جرى في الطائف، والتي بالغت الدعاية المعادية في ترويجها واستغلالها، وأخطر من ذلك: أن جدة بلد القناصل والجاليات الأجنبية، ويزعم حافظ وهبة، أن أحد مستشاري الملك استخدم حادثة قتل السردار في القاهرة، والعقوبات البريطانية التي فرضت وقتها على مصر من إسقاط الوزارة المنتخبة وحل البرلمان، وطرد مصر من السودان، وزيادة المساحة المزروعة قطنًا! ونصف مليون جنيه... الخ استغل المستشار هذه الحادثة ليروع عبد العزيز من مخاطر الاعتداء على حياة

الأجانب. وربما كان عبد العزيز يخشى -وله الحق -من تدخل بريطاني أو أوروبي مشترك بحجة حماية الأرواح والممتلكات، خاصة وأن الوفود كانت تتدفق من البلاد العربية والإسلامية وكلها ترفع شعار حقن الدماء، والسوريون والفلسطينيون يثيرون العالم العربي لمنع سقوط جدة أو على الأقل أخذها بالسيف. وكان السلطان يعرف أن مصير الحرب قد حسم نهائيًا، فلماذا المخاطرة، وتحدي العالم الإسلامي والعرب، وما عليه إن كبح جماح فرسانه وأخذ جدة بالمفاوضات؟

وقد أضاف «محمد المانع» في كتابه «توحيد الجزيرة[١]» رواية جديدة عما جرى في حصار جدة: «سقطت المدينة في ديسمبر ١٩٢٥-١٣٤٤هـ»، بينما لم يبد على «جدة» علامات التسليم وبدا للدويش أن ابن سعود في حاجة ماسة لدعمه، ولذلك فكر قائد الإخوان الماكر في استغلال الموقف لصالحه، فذهب لمقابلة ابن بجاد الذي كان يعسكر خارج مكة في منطقة اسمها «المعابدة» حيث يعيش جزء من قبيلة عتيبة. وهناك اقترح على ابن بجاد أن يتقدما لابن سعود بطلب تعيينهما أميرين على مكة والمدينة على الترتيب، مقابل استمرار دعمهما له في الحرب ضد الحجازيين. وقد وافق ابن بجاد على الفور على الاقتراح. ولم يبدد الرئيسان وقتا في طلب لقاء مع ابن سعود في خيمته بالرغامة[٢]، حيث طرحا اقتراحهما أمامه، والذي رفض على الفور، فحتى لو خسر دعم مطير وعتيبة فذلك أفضل من أن يعطي مثل هذين الرجلين الطموحين النفعيين، مراكز قوة في الحجاز، لأن ذلك معناه زرع ثورة في المستقبل. وبمرارة انسحب القائدان بقواتهما على الفور إلى نجد ولم يساهما بعد ذلك بأي شيء في الصراع. وعاد فكرر نفس القول: «بداية الثورة عندما

(١) الصادر في ١٩٨٠-١٤٠٠هـ

(٢) نفس الموقع الذي ذكره الريحاني.

رفض ابن سعود تعيين ابن بجاد والدويش حاكمين على مكة والمدينة. وانسحب الرجلان إلى قلب نجد وبدأ العمل على قلب ابن سعود». والانسحاب حقيقة ولكن كل ما نسجه سيادة المؤلف حول المطالب والتآمر لا أساس له. وإن كان الخلاف قد ظهر، وقادة الإخوان أحسوا بتضخم حجمهم.

وقد روى حافظ وهبة واقعة أخرى من أحداث تلك الثورة التي كانت تتجمع خلال حصار جدة فقال إنه في أول عيد الفطر في مكة سنة ١٣٤٣ -٢٥ إبريل ١٩٢٥: «زرت الشريف «خالد بن لؤي» أنا والدكتور عبد الله الدملوجي، وكان لديه فيصل الدويش وجماعة من الإخوان، اجتمعوا هنالك بعد صلاة العيد للمعايدة على بعضهم، فخطب الحضور، فيصل الدويش وهذه عادة من عادات الإخوان، لا تخلو مجالسهم من نصيحة أو عظة. فقال مخاطبًا خالدًا وجماعته: «نحمد الله يا خالد، ويا الإخوان.. على نعمته، فقد دخلنا بلد الله الحرام، وطردنا الشريف من هذا البيت. إننا جند الله وخدم دينه، لا نريد إلا أن تكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر، ولا نريد إلا رفع المظالم، وإزالة البدع والمنكرات. وإن هذا السيف وهذا الجند سيعمل هذا العمل في كل من يسير في طريق الشريف، ويعمل عمله. «فأمن الإخوان كلهم على كلامه»!

وعلق مستشار الملك: «فكان هذا في الحقيقة أول إنذار من أحد قادة الإخوان، ولم تمض سنة على هذه الخطبة حتى سمعنا أن هناك مؤتمرا عقد في الأرطاويه حضره رؤساء الإخوان من مطير وعتيبة والعجمان، تعاهدوا فيه على نصرة دين الله والجهاد في سبيله وأعلنوا اعتراضاتهم في ٨ نقاط هي:

- استخدام السيارات والتلغرافات والتليفون وهي من أعمال السحر.
- دخول المحمل المصري إلى مكة مسلحًا.

- إرسال سعود إلى مصر وفيصل إلى لندن وهما من بلاد الشرك.

- طلب تفسير لمنع التجارة مع الكويت. فإن كانوا مسلمين تعاملنا معهم، وإن كانوا مشركين حاربناهم.

- المكوس والضرائب في الحجاز ونجد والتشريعات الوضعية.

- لماذا السكوت عن شيعة الأحساء والقطيف والتغاضي عن إدخالهم في دين الجماعة.

- لماذا السماح لبادية العراق وشرق الأردن بالرعي في مراعي المسلمين؟

- هدم القبور.

ولكن لنعد إلى أسوار جدة، فسواء انسحب الدويش وابن بجاد، أو بقيا فقد اتضح الخلاف بين رئيس الدولة، وقادة الثورة.. ولم تكن قضية حصار جدة هي وحدها نقطة الخلاف، بل بدأت تتجمع المياه خلف السد، من تعدد اللقاءات بين عبد العزيز والإنجليز، التي انتهت بعقد معاهدة مع بريطانيا، وتخطيط الحدود، إلى المؤتمر الإسلامي، حيث رأى الإخوان وفود مصر وإيران تأتي لتقرير مصير الحجاز الذي فتحوه.. والدولة تلتقي بهم وتعاملهم كمسلمين، وهم الذين احتجوا على سفر سعود إلى مصر للعلاج، بل وسمعوا أن ملك مصر حفيد محمد علي هو الذي سيتولى الدعوة لهذا المؤتمر الذي سيقرر مصير الحجاز!! ورأوا المحمل يدخل «بعوايده المنكرة» -كما قال سعود الكبير -بالطبل والزمر والسلاح تحت سمع وبصر عبد العزيز، فلما هجموا يحطمون الصنم الذي يعبده أتباع المقوقس[١] منعهم عبد العزيز..!

(١) حاكم مصر في زمن النبي صلوات الله عليه.

وقد ساعدت المطالب «الجماهيرية[(١)]» والاشتباكات «العقائدية[(٢)]» على زيادة نفوذ القيادات الإخوانية، وإملاء شروطهم على الملك، فمنعوه من استخدام التلغراف خلال حرب الحجاز وفي أثناء حصار جدة لم يستطع الملك أن يمد التليفون من مكة إلى معسكره، واضطر عام ١٩٢٦ -٤٤/ ١٣٤٥هـ إلى إلغاء تلغراف المدينة، وكان الإخوان يقطعون أسلاك التليفون لأنه منكر يجب إزالته، وهذا يعني اتهام الدولة، وتحديها[(٣)]..

وكما كان قرار محاصرة جدة أول صدع بين الحركة والدولة، فقد كان جمرك جدة عندما استسلمت، أول صدع بين الشعارات والممارسة. فقد أصدر الملك أمره بحرق الدخان الموجود في مخازن «جدة» «ولم يكن هناك ظل من الشك في جدية القرار. ولكن تجار التمباك قرروا أنه لا يأس مع الحياة، فتوجهوا للملك الذي كما يقول فيلبي «فزع عندما أخبروه بأن مخازن جدة بها تمباك بمائة ألف جنيه» وهو فزع مفهوم، من ملك أعطى امتياز نفط المنطقة الشرقية كلها بألفي جنيه فقط.. واستفظع الملك ومستشاروه أن يكبدوا رعاياهم في أول عهدهم خسارة

---

(١) مثل هدم القبور وفرض الإسلام على المخالفين.

(٢) حادثة المحمل.

(٣) ويبدو أن أنباء أخرى مثيرة وصلت للإخوان، عن دخول مسيحيين في مكة، وهم إن صحت الروايات الفنيون الذين مدوا أسلاك التليفون والتلغراف، ولكن التقارير الأميركية، بل حتى التقارير التي كتبها الريحاني إلى الأجهزة الأميركية للدفاع عن نظام ابن سعود ونفي تهمة التعصب عنه، ركزت على هذا الوجود المسيحي واعتبرته ظاهرة تقدم. مع أن الثابت قطعًا أن الملك عبد العزيز رفض استقبال فيلبي والريحاني نفسه في مكة عندما جاءا أثناء الحصار بحجة الوساطة بين الملك علي وعبد العزيز.. ويحتمل أن هذه كانت إشاعات تروج عن قصد لاستفزاز الإخوان ويضاف إلى ذلك حادثة المبشرين اللذين اعتقلا وهما يحاولان التبشير في الحجاز.. والآخر الذي قتل على حدود الكويت، والضجة التي أقامها الأمريكيون والتقرير الذي أعده المبشر الأمريكي السيء السمعة الشديد العداوة للإسلام «زويمر» حول «القدسية المزعومة للحجاز» والذي أكد فيه ضرورة السماح بالتبشير في الحجاز، وما قيل عن اشتراط الحكومة الأمريكية السماح بالتبشير مقابل الاعتراف بالنظام الجديد ٧م.

هذا المبلغ، فسمح لهم ببيعه على ألا يستوردوا غيره، وبيعه يعني تدخينه، فلما لأن الجو، تشجع التجار، وهم موجهوا السياسة في كل زمان ومكان، فتحدثوا عن إيرادات الحكومة من الدخان، والضرائب المستحقة لحكومة الملك علي، والتي أصبحت الآن من حق الإمام... أنها تشكل موردًا رئيسيًا من موارد الدولة، لذلك أفتى بعضهم، بأن الدخان مكروه ولكنه ليس من الكبائر» وشرب الدخان في جدة لتمول الهجر في نجد.. أو لدعم ميزانية الدولة التي بناها راعي البعير «نوار» الذي كان كلما رأى الدخان في يد مشرك.. تلا: قول أعوذ برب الفلق!..

وقد حاول ابن سعود تطويق الثورة، على طريقته، بطرحها في نقاش مفتوح في مؤتمر دعا إليه في ٢٥ رجب ١٣٤٥ -يناير ١٩٢٧ وحضره كل زعماء الإخوان[١]، ما عدا ابن بجاد وقد استمر إلى ٨ شعبان. وكل التطورات التي وقعت حتى نشوب القتال تؤكد أن ابن سعود حاول بكل قواه منع هذا القتال وكسب الإخوان، مما ينفي التفسيرات الساذجة والقصص البوليسية عن أنه انشأ الحركة ثم قرر تصفيتها!

ولعل حضور زعماء الإخوان كان له أثره في قرارات المؤتمر أو بالأحرى في الفتوى الصادرة عنه، إذ تضمنت إقرار معظم المطالب تقريبًا باستثناء اللاسلكي وحتى هذا تجنبت الفتوى إباحته، قبل قالت: «أما مسألة البرق، وهي أمر حادث في آخر هذا الزمان، ولا نص فيه، ولا نعلم حقيقته، فتوقفنا في مسألته»:

وقرروا

- هدم مسجد أبي رشيد وحمزة فورا.
- إلغاء كل القوانين الموجودة في الحجاز، ولا يحكم إلا بالشرع.

---

(١) قال جون حبيب إن المؤتمر حضره ثلاثة آلاف عضو قيادي وقيادات الإخوان كلها بما فيهم الدويش وابن بجاد.. الخ ص٢٢٤.

- منع دخول المحمل المسجد الحرام، ومنع دخول الحاج المصري بالسلاح في مكة.

- إلزام الرافضة بالبيعة على الإسلام، ومنعهم من إظهار شعائر دينهم الباطل، وعلى الإمام أن يلزم نائبه في الأحساء، أن يحضرهم عند الشيخ ابن بشر ٨م ويبايعوه على دين الله ورسوله، وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم وترك سائر البدع من اجتماعهم على مآتمهم وغيرها مما يقيمون به شعائر مذهبهم الباطل ويمنعون من زيارة المشاهد وكذلك يلزمون بالاجتماع على الصلوات الخمس هم، وغيرهم، في المساجد، ويرتب فيهم أئمة ومؤذنون ونواب من أهل السنة، ويلزمون بتعليم الأصول، وكذلك إن كان لهم محال مبنية لإقامة البدع تهدم، ويمنعون من إقامة البدع في المساجد وغيرها. ومن أبى قبول ما ذكر ينفى من بلاد المسلمين. وأما الرافضة من أهل القطيف، فيلزم الإمام -أيده الله -الشيخ ابن بشر أن يسافر ويلزمهم بما ذكرنا.

- أما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين، فأتينا الإمام بكفهم عن الدخول في مراتع المسلمين وأرضهم.

- وأما المكوس، فأفتينا بأنها من المحرمات الظاهرة، فإن تركها فهو الواجب عليه. وإن امتنع فلا يجوز شق عصا الطاعة، والخروج عن طاعته من أجلها.

أما الجهاد فهو محول إلى نظر الإمام، وعليه أن يراعي ما هو الأصلح للإسلام والمسلمين، على حسب ما تقتضيه الشريعة الغراء.

وقال وهبة إنه إزاء هذه الفتوى اضطر الملك إلى عدم قبول المحمل، كما اضطر إلى هدم مسجد حمزة، وتعطيل التلغراف واللاسلكي فعمل بذلك على

تلافي الفتنة أو تأجيلها، وعالجت الدولة قضية المكوس بالقول بأن الضرائب هي المصدر الوحيد للدخل. أما الشيعة فقد كان ابن جلوى هناك يحميهم بمنع «الإخوان» من ممارسة أي نشاط في إمارته، بل كان يجبرهم على خلع عمامتهم، وهي رمزهم، إذا دخلوا الأحساء لأي سبب».

واستنادًا إلى فتوى منع رافضة العراق عن الدخول في مراتع المسلمين، هجم الدويش على «مخفر البصية» في أكتوبر ١٩٢٧ -١٣٤٦هـ.

وكما هي العادة في كل الانقسامات الأيديولوجية، اختلف الفريقان في تفسير قرارات المؤتمر. فقال الجانب الملكي إن «أعظم ما أسفر عنه الاجتماع، هو إبطال ما كان يدعيه الغلاة من حق الجهاد بغير إذن الإمام، وأصبح المخالف له حلال الدم والمال». وصيغة الفتوى لا تسمح بهذا الادعاء بل قالت «حول إلى نظر الإمام» وفي نفس الوقت قالت «منع رافضة العراق من الدخول في مراتع المسلمين» وقد استند إليها تفسير الثائرين بأنهم خولوا تنفيذ هذا المنع، فهم أهل الثغور... ومن ثم فقد زعموا أن «جهادهم» في العراق هو في إطار قرارات المؤتمر.. وبالجهاد «الشعبي» في العراق تفاقم الموقف، ودخلت فيه قوى خارجية، وحاول الملك تهدئة الموقف مرة أخرى كما يقول وهبة: «عبد الملك مؤتمر بريده في إبريل ١٩٢٨ -١٣٤٦ هـ لتهدئة ثائرة الإخوان، وإفهامهم أنه يشاركهم الرأي في سخطه على بناء المخافر على الحدود، ولكنه يفضل حلها بالمفاوضات[1]».

---

(١) ويقول جون حبيب إن «ابن سعود كان يحتج لدى البريطانيين على بناء المخافر ويبعث في نفس الوقت للإخوان يهددهم ويتوعدهم لأنهم يهاجمون هذه الحصون. ومرة أخرى يبعث للإنجليز يهدئهم ويقبل احتجاجهم ويعد بضبط الإخوان، بينما يرسل سرًا يعبر للإخوان عن سروره بغاراتهم ويفسر هذا السلوك بأن عبد العزيز كان يريد الضغط على حكومة العراق دون التوريط في مواجهة مع بريطانيا، وتجنب انفجار الإخوان دون أن يطلق لهم الحبل على الغارب» ص٢٢٨ وهذا تفسير صحيح.

ولذلك اتفق على تأجيل مؤتمر بريده في انتظار نتيجة مفاوضاته مع الإنجليز، فلما فشلت هذه المفاوضات؟(١) ودعا إلى جمعية عمومية(٢) هي مؤتمر الرياض(٣) الذي حضره ما بين ١٢ ألف و١٦ ألف مندوب، واختير للتحدث باسمهم ثمانمائة ولكنه لم يكن مؤتمرًا حزبيًا إذ اعتبر الإخوان إحدى الجماعات، مثل التجار والعلماء وأهل المدن والبدو.. والإخوان وبذلك تجنب ابن سعود أن يطرح النزاع بينه وبين الإخوان وحدهم.

وقد قاطع زعماء الإخوان المؤتمر، استنادًا إلى أن مؤتمر الرياض فيه الكفاية، وقد ثبت رفض الإنجليز هدم المخافر وبالتالي أصبح على الإمام أن يشن الجهاد أو ينتدب المسلمون أنفسهم للجهاد. أو ربما كانت المقاطعة تحت تأثير الأنباء التي وصلت عن رفض الإنجليز الاستجابة لمطالبه، مما أعطى انطباعًا بأن مركزه ضعيف.

وقد ناب عن الدويش ابنه، ولكن الصوت الإخواني في المؤتمر لم يكن ضعيفًا بأية حال، وقد نشرت أم القرى ملخصًا وافيًا برأي الإخوان، وهو ما تحاشاه مؤرخو «ولا تقربوا الصلاة» فيما بعد.. رغم أن الحوار وحيويته وصراحته يشكل صفحة مشرفة للتجربة السعودية، ولا نجد له مثيلا إلا في المؤتمرات الحزبية في أعرق الدول في العمل الجماهيري الثوري، وهو على أية حال ظاهرة غريبة على العالم العربي ولا نذهب بعيدًا إذا قلنا إنها لم تتكرر حتى اليوم.

---

(١) الاجتماع مع سير جلبرت كلايتون كان في جدة من ٧ مايو ١٩٢٨ إلى ١٧ مايو ١٩٢٨ (ذو القعدة ١٣٤٦هـ).

(٢) كما سمتها أم القرى.

(٣) قال وهبه إنه انعقد في ١٩ أكتوبر ١٩٢٨ (جماد أول -١٣٤٧هـ) وقال جون حبيب ٥ نوفمبر ١٩٢٨ (جماد ثاني -١٣٤٧هـ) بعد ساعتين من طلوع الفجر.

قال ممثلو الإخوان في المؤتمر «إن مسألة القصور (الحصون) هي أهم المسائل وهم يسألون هل يجيز الدين إقامة حدود في بلاد كانت لهم ولآبائهم وأجدادهم مئات السنين؟ وإذا كان الإمام قد سمح للمسيحيين بتقسيم أراضي المسلمين بالحدود، فكيف يسمح لهم بخرق ذات المعاهدة التي وقعها معهم حول بناء القصور على الآبار؟! إن المرأة في خبائها تطالب بتفسير لهذا السكوت. وهم سامعون مطيعون للإمام فيما يراه في هذا الأمر على شرط:

- أن تصدر فتوى من العلماء بأن سكوتهم عن هذا الأمر إن تسبب عنه ضرر للدين والمسلمين فذمتهم بريئة أمام الله.

- أن يتعهد الإمام شخصيًا بأنه لا أذى سيصل إليهم ولا لدينهم أو بلادهم نتيجة هذه القصور. فإن لم يكن بوسعه التعهد بذلك، فإنهم، بإذن الله، لن يسمحوا باستمرارها مادام في أخ واحد عرق ينبض أو نفس يتردد. لأننا نفضل أن نموت جميعًا عن أن نسكت على خطر يهدد ديننا أو بلادنا.

- أن يسمعوا تفسيرًا من الإمام عن الأسباب التي جعلته يمنع المسلمين من الجهاد ونشر كلمة الله؟..

وقد طلب عبد العزيز المزيد من الأسئلة، وكرر ذلك ثلاث مرات، فردوا عليه بأنهم قد قالوا كل ما عندهم..

وهنا قال ابن سعود إن الحصون قامت نتيجة لاعتداءات الإخوان، والبريطانيون يتهمون الدويش وأتباعه بقتل رجال البوليس «وأنا عبد العزيز لم أفعل ذلك وهم يقولون إنهم بنوا القصور خوفًا منكم».

فتعالت الأصوات من المؤتمر تتبرأ من الدويش وتعلن الاستعداد لقتاله إذا ما تعهد عبد العزيز بأمرين:

أ- هدم المخافر التي لا مساومة فيها، والتي تزداد قوة كل يوم «إننا نقولها، صراحة.. إن ديننا وحياتنا في خطر، والإنكليز هم البادئون بالشر».

ب- أن لا يتدخل الإنكليز بينهم وبين من يريدون معاقبته مثل يوسف السعدون العراقي.

وفي ظل هذا المناخ «الوطني» و«الجهادي» الذي أثاره الإخوان، أفتى العلماء بأن «القصور تشكل خطرا على المسلمين، وبالذات مسلمي نجد، وأن الإمام مطالب ببذل كل ما في طاقته لإزالتها، وأن هذا الجهد ليس جهادًا، بل دفاعًا عن الدين».

ومعروف أن الفتاوى السابقة، جعلت «الجهاد» من حق الإمام وحده، أما الدفاع ففرض عين على كل مسلم. وهذه الفتوى بالطبع برأت موقف الإخوان من شق عصا الطاعة، بل جعلت غاراتهم على الحصون دفاعا عن الإسلام وبيضة الإسلام. ولا تحتاج لأذن الإمام. ولعل هذه هي القاعدة الشرعية التي استند إليها الإخوان فيما بعد في هجومهم وغزواتهم ضد العراق والكويت، وهي أيضًا التي جعلت ابن سعود يمتنع عن قتالهم، بسبب هذه الهجمات وينتظر حتى تحركوا خارج دائرة الفتوى، وقتلوا المسلمين من أهل القصيم.

هذه الفتوى كانت أيضًا انتصارًا كبيرًا للإخوان في هذا المؤتمر، ولذا كان من الطبيعي أن يقفوا هاتفين «الله أكبر.. هل سمعت يا الإمام ما قاله العلماء.. نسألك بالله أن تقول رأيك فيما قاله العلماء»!

وقد تبين أن الجو كله ضد الإنجليز وضد هذه المخافر.. وقد رد عبد العزيز: «أقول بأن ما قاله العلماء صحيح، وأعاهدكم على أن أعالج هذا الأمر. أما عن موضوع الجهاد فأريد أن أتحدث فهي في مختصر...».

وطلب من الحاضرين اختيار خمسين شخصا ليخبرهم برأيه في موضوع الجهاد وعندها يمكن أن يصلوا إلى قرارات لمعالجة القضية[١]»

وختم كلمته قائلا: «أقول لكم جميعًا إنه لا حياة لنا إلا بالإسلام الذي يضمن حقنا الكامل في الدفاع عن حقوقنا، فأما النصر أو الشهادة دفاعا عن ديننا وأمتنا وألزم نفسي بذلك أمام الله».

ولا مصادر متاحة عما قاله عبد العزيز في الاجتماع الضيق للقيادات، ولكن من الواضح أن المؤتمر تمخض عن اتجاهين..

- الاتجاه الإخواني العام وهؤلاء هم الذين سمعوا فتوى العلماء وسمعوا تعهد ابن سعود بإزالة المخافر[٢]، ومن ثم استمروا في قناعتهم بصوابية موقفهم، واستأنفوا الهجوم ثم التمرد.

- اتجاه الأغلبية من غير الإخوان وبعض قيادات الإخوان التي اقتنعت بتفسيرات عبد العزيز، والتي رأت أن الالتفاف حول الإمام أضمن لمصالح الدين والأمة.

ويروي محمد المانع جوا غريبًا، لم تشر إليه المصادر الأخرى، ساد الرياض خلال تلك الفترة، حيث سيطر «الإخوان» على الشارع، وعزلوا السلطة الرسمية

---

(١) أم القرى العدد رقم (٢٠٨).

(٢) جاء في تقرير المقيم البريطاني بالكويت أن ابن سعود أكد في هذا المؤتمر للإخوان «بأنه إذا لم يستطع إزالة الحصون العراقية بالمفاوضات فسيقودهم في هجومهم على العراق» ١٤/ ١٢/ ١٩٢٨ (رجب ١٣٤٧هـ) من كتاب كرستين.

فيقول: «لم يكن الإخوان على استعداد للمساومة، وحول ابن بجاد اسمه إلى سلطان الدين، ومشى أتباعه في شوارع الرياض يتباهون: قام سلطان جديد في سبيل العقيدة، مما صدم مشاعر أهل المدينة، وجعلهم يقولون لهم «أنتم تدعون أنكم مسلمون مؤمنون، ولكن الإسلام ينهي عن الكبرياء، فكان يرددون: المسلم القوي خير من المسلم الضعيف».

«لم يكن من غير المألوف رؤية جماعات كبيرة من الإخوان المسلحين داخل وخارج الرياض يستعرضون علنًا قوتهم، وعدم اعترافهم بسلطة الملك، وأصبح نفوذهم يحسه كل فرد في المملكة في حياته الخاصة، حتى رئيس الديوان نفسه جلد علنًا بواسطة الإخوان لمجرد الشك في أنه لم يحضر صلاة الجماعة[1]. وكانت جماعات الإخوان تطوف في الشوارع كبوليس ديني ذاتي، ويضربون أي شخص لا يخضع لتعاليمهم. أما هم فكانوا مضرب المثل في التقشف، وتجنب أية ملذات، أو متع، مهما كانت تافهة. ولا يلبسون إلا الخشن من الثياب، ويحرمون الذهب والمجوهرات، حتى خيوط الذهب في العباءة كانوا يقصونها» ثم روى حكاية قص الدويش لثوب عبد العزيز لأنه جاوز الكعبين. وبالطبع كان للحادثة أثرها الدعائي عن تقوى الدويش، و«رفاهية» ابن سعود أو الملك، وشجاعة الدويش في قول الحق عند إمام طال ثوبه حتى جاوز الكعبين، وما جاوز الكعبين في النار!!

وبينما كان الطرفان.. الإخوان والدولة يندفعان بقوة الأحداث والفعل ورد الفعل، إلى الصدام، دون تخطيط أو تصميم، بل لعل المخلصين في الجانبين كانوا يرجون تفادي هذا الصدام، والطيبون كانوا يظنون أنه مدبر ومفتعل بين الملك ورفاق

(١) قال مصدر آخر إنهم أرادوا حتى جلد الزعيم الإسلامي والثوري الكبير السيد أحمد السنوسي لأنه اعترض على هدم قبر السيدة خديجة. ولكن الملك منعهم.

السلاح لكي يخدعوا الإنجليز، كان هؤلاء -أي الإنجليز -يتوقعون هذا التطور، ويسعون إليه، بل ويتعجلونه. لأن الإنجليز يقرأون التاريخ ويدرسون الإسلام، ويعرفون أن تلك الطاقة الجبارة التي فجرها عبد العزيز، والتي تحولت إلى هذا الجيش «فوق البشرى» لا يمكن أن تتوقف عند حدود مملكته، بل ستعتبر هذه المملكة، مجرد نقطة انطلاق أو قاعدة لنشر الإسلام وتحرير المسلمين الذين تخضع غالبيتهم العظمى لحكم بريطانيا.. **خاصة وأن موجة الآمال التي أثارتها حركتهم في العالم العربي، بل والإسلامي، كانت تغري بالتحرك، وتستصرخ السعوديين لمواصلة الجهاد وتحرير المسلمين، بعد أن سقطت كل الرايات، وارتفعت راية السعوديين وحدها، بعدما جربت كل النظريات والشعارات والمعادلات، فانتهت بالحماية والانتداب.. وانفرد السعوديون بالاستقلال، فكانوا أول دولة عربية كاملة الاستقلال، وأصبح في مقدمة مسئولياتها تحرير الأشقاء.**

كانت بريطانيا تعرف أنه مادامت قوة الإخوان قائمة وملتفة حول ابن سعود فإنها لن تستطيع حكم العراق، وقهر الحركة الوطنية فيه، مستعينة بملك مستورد، توجته امرأة إنكليزية على صندوق بيرة.. ولا قهر الإسلام في أرض العباسيين، حيث استشهد الحسين سيد شباب أهل الجنة. ولا كان في وسع بريطانيا أن تستمر في إذلال مشيخات وسلطنات الخليج من الكويت إلى لحج.. إذا ما ظلت سيوف السعوديين مستعدة للجهاد ومنح العزة للمؤمنين. ويقول ج. هـ. جانس في كتابه «الإسلام الحركي» إن الثورة الوطنية التي اجتاحت العراق بعد فرض الانتداب عليه، كانت لها دوافعها الإسلامية، وإرشاداتها، وبين قياداتها كان رجال الدين الشيعة في النجف وكربلاء الذين نشروا فتوى بفرض الجهاد على المسلمين. وقد كتب أحد البريطانيين المعاصرين لأحداث هذه الثورة يقول: «لو توفر قادة مقدامون

لتوجيه وتنظيم هؤلاء الثوار الجيدي التسلح وإثارة تعصبهم لخضع العراق لسيطرة عصبة من المتعصبين لا يقلون ضراوة عن الوهابيين».

بل ويذهب فيلبي وغيره إلى أن العراقيين، بعدما جربوا الاحتلال البريطاني وعملائه الأشراف، حنوا لأيام الترك، ولم يكن إخضاع الثورة المصرية وضرب ثورة العراق، إلا مزيدا من التأكيد على أن الحل الوهابي هو الحل الناجح.. وأصبحت ضربات فيصل الدويش على حدود العراق والأردن حيث بريطانيا العظمى تحكم وتحرس المخافر، وتقاتل، أسطورة يتناقل المجاهدون أخبارها من طرابلس الغرب إلى الهند[١]. وقد بدأ بعض مشايخ القبائل المحسوبة على العراق بالانضمام إلى «الإخوان» فتدين شيخ الضفير، ولبس العمامة، واستنجد بالإخوان في صيف سنة ١٩٢٣-١٣٤١هـ فهاجموا العراق، وفتكوا بالسعدون الذي كان الملك فيصل قد عينه قائدا للجبهة الجنوبية[٢]».

شكل الإنجليز في العراق وحدة مخابرات خاصة للإخوان، ساهمت بدون شك في صنع الفتنة، فالمخابرات البريطانية لم تكن تقصر نشاطها على جمع المعلومات عن الأحداث، بل كانت تصنعها. و«غلوب» الذين عين -كما يفخر- مسئولا عن «وحدة المخابرات الخاصة بالدفاع ضد الإخوان» في أكتوبر ١٩٢٤ -ربيع أول ١٣٤٣ يقول: «إن مهمته بدأت بالاتصال بالقبائل لكسب ثقتها».

---

(١) تأمل اقتداء مصر بالسعودية، ففي عام ١٩٢٨-١٩٢٩/١٣٤٦-١٣٤٧ هـ بدأ حسن البنا حركة «الإخوان المسلمين» بنفس التفكير ولكن مع خلافات أشرنا إليها. وفي سيناء حاول بعض الشباب العرب بناء «هجرة». وجاء في تقرير القنصل الأمريكي في بغداد «أن المعلومات المتوفرة تفيد أن سلطان الدويش زعيم الإخوان المتمردين ينوي بعد الانتهاء من ابن سعود توجيه قواته إلى فلسطين. وقد سمعت من ضابط في سلاح الطيران البريطاني أن الدويش سيحاول نصر القضية العربية في فلسطين» روبرت برون ٥-١٠-١٩٢٩ / جماد أول ١٣٤٨هـ.

(٢) بل حتى في الكويت انتشر لبس العمامة، وإن كانت التقارير البريطانية قالت إنه «عن خوف وليس عن تدين».

ولكن قبل أن ننتقل إلى دور الإنجليز نقف لحظة عند تهمة الدوافع الشخصية لزعماء الإخوان.. فجميع المصادر ركزت على غضب الدويش وابن بجاد من استثنائهما من التعيينات بعد فتح الحجاز.. وقد سمعنا رواية بن مانع وحافظ وهبة وبقي أن نسمع رواية محمد أسد أو بالأصح فلسفته!

فقد تحدث عن أسباب الثورة، فأشار إلى «إهمال ابن سعود لقيادات المجاهدين، عندما جاء الدور في توزيع المناصب، إذا اختص البيت المالك بالإمارة، كما هو العرف في الجزيرة وبعكس آل الشيخ، الذين اعتبروا الإمارة حقا مشروعا للبيت السعودي، لا ينازعون فيه. فإن رؤساء قبائل ومقاتلين من طراز ابن بجاد وابن الدويش، لم يكن من السهل إقناعهم، بأن الوضع الطبيعي، أو الأصح إسلاميا (!) أن يفتح الدويش مدينة حايل «فيعين الملك عليها» «ابن مساعد» ابن عمه. ويحاصر الدويش المدينة ويجبرها على التسليم، ولكنه لم يكن هو الذي عين أميرًا عليها» ويقول: «إنه لم يعرف طعم الراحة بسبب عدم تحقق رغبته الملحة الجامحة في الحكم. وقال في ذات نفسه: إذا كان ابن سعود من قبيلة عنزة، فأنا من قبيلة مطير، فنحن متساوون في شرف المحتد، فلماذا أعترف أنا بسلطة ابن سعود.. مثل هذا التفكير كان وما يزال لعنة التاريخ العربي، فليس من أحد يقر بأن هناك من يفضله». وهو ينسب نفس التفكير لابن بجاد ٩م (الذي تلقب بسلطان الدين، ليكون أعظم من سلطان الدنيا سلطان نجد).

غفر الله لمحمد أسد.. فلا أحد يعلم إلا الله ما قال فيصل الدويش «لذات نفسه[1]» وما من أساس، ولا واقعة تجعلنا نصدق أن الدويش كان يرى نفسه مساويًا

(١) قلنا مرة إن معظم الكتابات عن التجربة السعودية اتخذت شكل سيناريو!

لعبد العزيز بالمقاييس الجاهلية، فهذا ابن الملوك لسابع جد كما يقولون، وفيصل سواء أصدقت التشنيعة بأنه ابن الشقحاء أو لم تصدق لا يمكن أن يعتبر نفسه مساويًا لكبير البيت السعودي، وقد قبل قيادته وإمامته.. ولكن ابن الدويش قد يعتبر نفسه ندا، بل وأفضل من عبد العزيز بالمقاييس الإسلامية، ليس لعبد العزيز من فضل عليه إلا بحقوق الإمامة، فإن لم يقم بحقها فالدويش أفضل وليس أبدًا على أساس مطير ١٠م وعنيزة!.. أما أن زعماء الإخوان انتقدوا تقريب الملك لأهل بيته، وخصهم بالمناصب، فقد نقم من هم خير منهم، على من هو أفضل من عبد العزيز، الصحابة في عهد عثمان، والطرفان نسبًا موقفهما للصالح العام وليس لأهداف شخصية، وكانت لعثمان وجهة نظره، في من ولاهم، ويمكن القول: إنه قد ثبتت صحتها، عندما سادت الفوضى في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم استقر الأمر لما تولاه الذين عينهم هو وحقيقة اختلاف المسلمين حول سياسة عثمان، قبل انقضاء ربع قرن على الهجرة، تؤكد أن خلاف السعوديين، لم يكن ظاهرة شاذة، ولا تشين أي طرف من أطرافها.. ومهما تكن دوافع الدويش وأصحابه[1]، فقد رأوا -عن حق -أن وقف الجهاد ينهي دورهم، الروحي، والسياسي، والعسكري، والشخصي.. وهم يربطون بين وقف الجهاد، واستئثار القيادة «بمكاسب» جهادهم.

وكل الثورات التي تتحول إلى نظم، يصبح عليها تصفية قيادة جيش التحرير، وكل قادة جيوش التحرير تبدأ متاعبهم فور تحقق الهدف واستقرار السلام، والدخول في مرحلة العلاقات العادية مع العالم، بل وحتى مع خصوم الأمس،

(١) ونحن لا ننكر عنصر «البغلات البيض» فقد روى أن زوجة عبد الله بن عمر طلبت منه أن ينصر ابن الزبير الذي يقاتل الخليفة نصرة للدين، فرد عليها.. هل رأيت البغلات البيض التي حج عليها معاوية؟ والله ما يقاتل ابن الزبير إلا عليها»... لا ننكر الدافع الشخصي، ولكن هذا لا يعني إهمال الموقف الأيديولوجي للمتصارعين.

وبينما ترى الدولة أن التعامل مع هؤلاء الأعداء القدامى، هو نوع من الاعتراف بشرعية النظام الثوري وتأكيد انتصاره. فالصين مثلا، أكثر سعادة باعتراف الولايات المتحدة واليابان والتعامل معهما، منها بالتأييد الأخوي من كمبوديا وألبانيا!.. والجزائر اعتبرت استقلالها قد تم بتبادل السفراء مع فرنسا، ورفع العلم الجزائري فوق السفارة الجزائرية في باريس، بل لعل الجزائريين كانوا أكثر زهوا برفع العلم الفرنسي على «سفارة» فرنسا في الجزائر..!

كذلك كان موقف الدولة السعودية من التعامل مع الأشراف الحاكمين في العراق والأردن، ومع الإنجليز من فوقهم.. ليس عن تغير في النظرة إليهم، بل لأن هذا التعامل يشكل اعترافًا من هؤلاء بمكاسب الثورة الإسلامية. أما «قدامى» المجاهدين، فهم يرون في هذا التعامل خيانة لدم الشهداء، وللثورة والجهاد، ولا ينتبهون إلى كلمة «قدامى» التي أصبحت تلحق بلقبهم دلالة على أن عهدهم قد ولى، وولى معه فكرهم ومكانتهم.

وبناء الدولة يحتاج لكفاءات تختلف تمامًا عن مواصفات «المجاهدين» كفاءات توجد في الذين كانوا يديرون «الدولة» التي سقطت!.. وإذا كان الصحابة والتابعون قد روعوا عندما رأوا من ذمهم القرآن وأهدر النبي دمهم، يتولون الإمارة على الذين قاتلوهم حتى أدخلوهم في الإسلام! فمن السهل أن نفهم نفسية الإخوان. ولكن الناقمين ينسون أن بناء الدولة يتطلب إنهاء ذكريات مرحلة الثورة وخلافاتها...

ومن ثم لا يبقى أمام قدامى المجاهدين.. لكي يستمروا على مسرح الأحداث، إلا الاستمرار في الجهاد، أو إطلاق الصيحة باتهام القيادة بخيانة الثورة.. وقد اختار الإخوان، استئناف الجهاد ضد الأشراف الخاضعين لحماية الكفار الإنكليز

بالهجوم على الأردن والعراق. ويمكن القول إنهم أرادوا جر عبد العزيز إلى الجهاد، وليس كما يقول مترجم الديوان الملكي «كان الإخوان يأملون بأن تصدق السلطات البريطانية في العراق والأردن أن هذه الغارات موجهة من ابن سعود نفسه ومن ثم تتخذ إجراءات لخلعه». فهذا التفكير الشديد التآمر لم يعرف عن الإخوان، فضلا عن أنه لا يستقيم مع السذاجة الواضحة في مثل هذا المخطط، لأن قلب ابن سعود لن يتم إلا على جثة الإخوان.. أو هل نتهم الإخوان بأنهم كانوا يخططون للتعاون مع الإنجليز في قلبه؟!..

لو زحف الإنجليز لقلب ابن سعود لكان موقف الإخوان هو نفس موقف معاوية عندما كتب إليه ملك الروم يعرض عليه مساعدته ضد علي بن أبي طالب. فقال له إنه إذا كرر ذلك «فسآتيك بجيش من قبله، فأملكه ما تحت قدميك». ولو تدخل الإنجليز لضرب الإخوان لقابلهم ابن سعود بنفس القوة[١].

لنفهم ما حدث في تلك السنوات الحاسمة، من ١٩٢٧-١٩٣٠/ ١٣٤٥-١٣٤٩، سنحاول أن نحدد مواقف واستراتيجية وتاكتيكات كل من القوى الثلاث التي صنعت أحداث تلك الفترة:

بريطانيا..

الإخوان..

الملك -الإمام عبد العزيز.

---

(١) لقاء الشيخ حمد التويجري وهو من المعاصرين (قال ابن سعود للقنصل البريطاني ونحن نسمع «والله وبالله وتالله إن لم تسلموني الدويش لا شب فوقكم نارا وتحتك نارا في الهند والسند» فلما جيء بالدويش ورجع عبد العزيز إلى الرياض «قال هذا قضاء الله وقدره ولا أريد أن أسمع هذا عدو وهذا صديق كلنا أهل». وجمع أنصار الدويش وأحضرهم أمام العلماء وسألهم هل بيني وبينكم من عهد أو أمان؟ قالوا أبدا.. ولو وجدنا أفضل منك. ما رجعنا إليك فأحكم فينا بما تراه فهذا حقك بما فعلنا. قال: أنتم زندي الأيمن لو أقطعكم أيش أسوي؟). (لقاء معه -الرياض، ديسمبر ١٩٨١).

وكما قلت، جرت عملية تشويه فظيعة لموقف ودوافع ومسلكية الإخوان، ولكن هذه الدراسات، التي كالت التهم للإخوان، وإن ادعت أنها فعلت ذلك للدفاع عن الملك، إلا أنها في الحقيقة، رمت الملك بأشنع التهم، بل بأفظع من كل ما قالت ضد الإخوان.. لأن الخطأ لا يثمر إلا الخطيئة. إذ زعمت أن الملك لم ينتصر على الإخوان إلا بدعم من الإنجليز وبفضل مساندتهم له!..

وهذا ما يقوله الفائز بجائزة الملك فيصل: «ساعدت بريطانيا الملك عبد العزيز في ضرب فرق الإخوان بقنابل طائراتها». «كما أن القائد الإنجليزي السير جون غلوب قائد الجيش في شرقي الأردن، قدم خدمات عسكرية لحكومته وللعراق والسعودية ضد الإخوان، والسير همفري أرسل «شكرًا للسيد جون غلوب لموقفه هذا» (!) كما وأن بريطانيا اتفقت مع ابن سعود على محاصرة الثوار من الحدود الكويتية والعراقية. ولما دخل الثوار حدود العراق مستسلمين، سلمتهم بريطانيا للملك عبد العزيز عن طريق الكولونيل بيسكو رئيس قناصل الخليج، وديكسون الوكيل البريطاني في البحرين في ١٩ يناير ١٩٣٠ (شعبان ١٣٤٨). هذا وأن بريطانيا أرسلت رسالة تهنئة للملك بعد نجاحه في القضاء على ثورة الإخوان».!! هذه هي الأدلة التي سمح المؤلف لنفسه بأن يستنتج منها: «والواقع أن ثورة الإخوان كادت تعصب بحكم الملك بعد العزيز لولا مساندة بريطانيا[1] له باستخدامها قواتها الجوية، ووضعها قوة كبيرة على الحدود الكويتية، وإبقائها للكويت والعراق على الحياد، وهذا كله أجبر الثوار على الاستسلام. ولولا هذه الأعمال لما تمكن الملك

---

(١) سنرى أن غلوب نفسه لم يجرؤ على هذا الادعاء، بل اعترف بأن سياسة بريطانيا في البداية أدت إلى نمو قوة المعارضة الإخوانية وعرضت ملك ابن سعود للدمار. كما لا ندري كيف يفهم أو يستدل الكاتب من شكر بريطاني لبريطاني على أن غلوب ساعد عبد العزيز! الذي نعرفه أن عبد العزيز لم يكره إنجليزيا حتى عام ١٩٣٠-١٣٤٩ مثلما كره غلوب وبيسكو!

من سحق الثورة بهذه السهولة، ولتعرض البيت السعودي لأخطر النتائج، وبهذا استطاع الملك عبد العزيز آل سعود أن يتخلص من ثورة الإخوان التي دوخته».

هذه دراسة تستحق جائزة الملكة اليزابث لا الملك فيصل (ابن) عبد العزيز آل سعود!

فبمفهوم وصريح عبارة تلك الدراسة، نعرف أن الملك عبد العزيز يدين بعرشه للطائرات البريطانية، بل البيت السعودي كله، يدين للإنجليز بتدخلهم وضربهم مواطنيهم، في سبيل إنقاذ حكم آل سعود..!

إن هذا القول ليس فقط غير لائق، بل الأهم طبعا، هو أنه يخالف الحقيقة مائة وثمانين درجة كاملة، ولكن الجهل والادعاء إذا اجتمعا مع التزييف كان الناتج مرعبًا حقًا، فجميع الوقائع تؤكد العكس تماما..

بريطانيا أرادت الفتنة، وساعدت عليها بكل السبل: فهي التي فجرتها ببناء الحصون، وهي تعرف مسبقًا معارضة الإخوان لها، وهي التي شجعتهم على مهاجمة هذه المخافر وتسجيل انتصارات في المرحلة الأولى لإعطائهم الشعبية، وأغرائهم بمعارضة أوامر الملك، ثم هي التي ضربتهم، أو بالأحرى قبائلهم بالطائرات، رغم احتجاج الملك، ومحاولته منع ذلك، مؤكدًا أن هذا العمل من جانب بريطانيا يؤجج الثورة ولا يخمدها، ويضعف مركزه ولا يقوي حكمه -كما يدعي مؤلف الجائزة -فلما صدق ظن الملك، ونشبت الثورة ضده، ساعدت بريطانيا والحكومات الموالية لها، الثوار بالمال والسلاح، طارحة كعادة السياسة البريطانية كل الاحتمالات: فأما أن ينتصر الإخوان، وبذلك تتمزق وحدة البلاد، وتقام مجموعة دويلات في الأحساء وشمال نجد وجنوبها[1]. وأما أن يمزق

(١) وهذا ليس استنتاجا نطرحه دفاعًا عن عبد العزيز، بل من الوثائق: قال غلوب: «أن الملك فيصل أعرب =

المتحاربون بعضهم بعضا فتفرض هي هيمنتها وشروطها على الجميع. وإذا انتصر ابن سعود، فقد كان تصور بريطانيا أن هذا النصر لن يتم إلا بعد معارك طاحنة، يفقد فيها عبد العزيز قدراته العسكرية لزمن طويل، وهذا على ضوء سمعة الإخوان القتالية. كذلك كان في حساباتها أن حركة ابن سعود ستتحول إلى دولة فقيرة، بل إلى أفقر دولة عربية. فينشغل بهموم تدبير قوت هذه المملكة عن طموح تحرير العالم العربي والبعث الإسلامي.

ويمكن أن نلخص الاستراتيجية البريطانية خلال أزمة الإخوان على النحو التالي:

أ- مرحلة تفجير الثورة:

الهدف: جر الإخوان إلى مهاجمة العراق لتقوية شعبيتهم في الداخل. وتصعيد الصدام بينهم وبين ابن سعود، وإظهار الدولة بمظهر العاجز عن السيطرة على الإخوان. أو المعارضة للجهاد.

الأسلوب: بناء المخافر لاستفزازهم، وإعطاء التعليمات لسلاح الطيران

= لهربرت يونغ المندوب السامي في العراق عن اعتقاده بأن الإخوان سينجحون في قلب السلطة السعودية» وقد صدق يونغ فكتب لوزارة المستعمرات «إذا نجح الثوار في القضاء على جيش ابن سعود كما توقع الملك فيصل فمن المؤكد أن «شمر» ستلقي بثقلها مع الثوار، وتعود إلى نجد لأخذ حصتها، ولا أعتقد أنه من الممكن منعهم من ذلك ولا أستطيع أن أجزم بطبيعة الاتفاق الذي تم بين الشيخ عقاب بن عقيل رئيس شمر وفيصل الدويش بمباركة الملك فيصل حول تسليم حايل لشمر في حالة انتصار الثورة، ولكني أعتقد أن ذلك يوافق مخطط الملك فيصل، ولن أدهش إذا ما كانت هناك اتفاقية من هذا النوع». (٢١/ ١٠/ ١٩٢٩-١٣٤٨).
وقال جون حبيب أن الدوائر الهاشمية في العراق والأردن وآل الصباح في الكويت كانوا يأملون في إقامة الدويش أميرا على «ميني -إمارة» أو إمارة «جيب» على الحدود بين نجد والعراق والكويت. صفحة ٢٧١.
وكتب غلوب في ١٧/ ١١/ ١٩٢٨-١٣٤٧ يقول إن مصادره داخل الإخوان تؤكد أن ابن سعود لا يستطيع هزيمة الإخوان.

بعدم ضربهم أو تعقبهم، وترك المخافر بلا حراسة كافية لإغرائهم بالهجوم وتصعيد عملياتهم.

ب- مرحلة إسقاط هيبة ابن سعود:

الهدف: لما تحقق الهدف الأول وأنشق الإخوان، واستمروا في عملياتهم ضد العراق.. بدأ الإنجليز تنفيذ المرحلة الثانية، وهدفها إضعاف هيبة الدولة والحط من شأنها، وتفجير سخط الإخوان على حكومتهم العاجزة، ونسف جهود ابن سعود للسيطرة على الموقف بالحوار من خلال المؤتمرات.

الأسلوب: ادعاء أن ابن سعود لا يسيطر على رعاياه، وعدم الاعتراف من جانبها بسيادته على أراضيه، باختراق مجاله الجوي، والإغارة على القبائل وقتل النساء والأطفال وهدم المساجد.. مع إعطاء حق اللجوء للهاربين من السعودية وتسليحهم ودفعهم لاختراق الحدود والاعتداء على المواطنين السعوديين.

فلما نجح الهدفان الأول والثاني، واشتعلت الثورة انتقلت الأجهزة البريطانية إلى الهدف الثالث وهو.

ت- القضاء على الدولة السعودية:

الأسلوب: تشجيع ودعم «الإخوان»، ليس إلى الحد الذي يمكنهم من إقامة دولة الإسلام، بل إلى الحد الذي يمكنهم من أحداث أكبر قدر من التدمير للدولة السعودية، ولمكانة ابن سعود، وفي سمعتهم كقوى وطنية. وذلك بتزويدهم بالسلاح والمال، وتنظيم اتصالات معهم، ورفض إغلاق الحدود، في وجه تحركاتهم، ورفض الاتفاق على تسليمهم، وتحريض العملاء في الكويت والعراق على استقبالهم وتشجيعهم ودعمهم.

مع الاستعداد للتدخل إذا كان الموقف يغري بالمراهنة، وذلك في حالة انزال الإخوان هزيمة واضحة بابن سعود.

وهذه الأهداف، وعاها عبد العزيز، وحاول إفشالها واحدا تلو الآخر.. فقد احتج على بناء المخافر وطالب بهدمها، واحتج بكل قوة على ضرب الطيران البريطاني للمواطنين العزل، فالغارة على اللصافة لم تكن أبدا لتؤثر في القدرة العسكرية للإخوان، بل كانت تزيدها، بإثارة حماسة ونخوة النجديين بمناظر وأخبار القتلى من الأطفال والنساء. وقد عبر عبد العزيز عن وعيه بخطورة المؤامرة البريطانية، بالحملة الإعلامية التي شنها ضد بريطانيا»(١)، وأيضا بالتعبئة الشاملة التي خرج بها على نحو يفوق الحاجة لضرب الإخوان بل يوحي بالاستعداد لمواجهة شتى الاحتمالات.

وقد هزم الإخوان، بالقوة السعودية وحدها، وبسهولة مدهشة، فعلا، ولكن دون أية مساعدة خارجية. ولم يحدث قط أن ضربت الطائرات البريطانية الإخوان خلال الصدام المسلح بين جيش عبد العزيز وقوات الإخوان، وكنا نتمنى لو أشار المؤلف المذكور ومن يرددون زعمه، إلى واقعة واحدة توحد الله. بل على العكس، كان الضرب قبل الحرب، وجاء كعنصر مفجر للثورة، وليس كعامل مساعد في القضاء عليها! وقد احتج عبد العزيز عليه بأعلى نبرة ممكنة(٢).. إلا إذا كان ذلك

(١) قال جون حبيب: «أن ابن سعود طلب من جريدته أم القرى مهاجمة الغارات الجوية البريطانية على رعاياه ووصفها بأنها جزء من مؤامرة إمبريالية ضد حكومته» صفحة ٢٢٥.

وقالت كريستين هلمز: «اضطرب عبد العزيز وغضب لقيام الإنجليز بقصف القبائل بالطائرات، هذا العمل الذي قتل أناسا أبرياء **ولم يكن له أي تأثير على الإخوان**، ورفض عبد العزيز منطق بريطانيا المزدوج، فهو ممنوع من مطاردة الذين يغيرون على نجد إذا لجأوا إلى العراق، أما بريطانيا فتعتبر الحدود وتقصف رعاياه بالقنابل وتحط من قدر قيادته أمام شعب الجزيرة. صفحة ٢٣٥».

(٢) قال عبد العزيز في برقيته للمقيم البريطاني في البحرين: «أن إرسال الطائرات إلى داخل أراضينا لمعاقبة رعايانا مبدأ لا يمكن قبوله» ٢١/ ١/ ١٩٢٨-رجب ١٣٤٦هـ.

على سبيل المناورة ولأحكام التضليل! واحتج عليه أصدقاء عبد العزيز في مجلس العموم البريطاني، وردت الحكومة البريطانية ردا يتسم بالعداء الشديد والتحدي لعبد العزيز. وغلوب يعترف بأن سياسة بريطانيا هي التي دعمت الإخوان، وقوت مركزهم ضد ابن سعود.

فلما سحقت قوات عبد العزيز، الإخوان، وبسرعة، لم تترك مجالا للمناورة، بل قلبت كل الخطط، سارعت بريطانيا بدورها إلى التلاؤم مع الواقع السعودي الجديد، وتصرفت بالخسة البريطانية، التي تضع المصالح فوق الأخلاق، فسلمت الذين لجأوا إليها، اطمئنانا لما لمسوه من دعمها. ووعودها المباشرة أو غير المباشرة بالحماية. وذلك بعد أن اعتصرت ورقتهم، وساومت على تسليمهم، واستفادت من نتائج الوضع الذي ساعدت على خلقه.

فالأقرب للحقيقة هو القول: لولا دسائس بريطانيا، ومساعداتها هي والحكومات الخاضعة لها، لما اتخذت ثورة الإخوان هذا البعد الخاص.

هذا تحليلنا، وسوف نثبته بالوقائع والمستندات على لسان العدو[١].

---

(١) بقي أن نقول: أن تعبير الثورة «**التي دوخته**» تعبير غير لائق، لا بعبد العزيز، ولا ببحث علمي، ولا بجائزة ابن عبد العزيز.. لأن عبد العزيز «دوخ» كل القوى، كذلك لا يجوز القول: أن ثورة الإخوان: «علمت عبد العزيز الحنكة السياسية» فالحنكة السياسية، لا تعلم، بل هي موهبة من الله، قد تصقل وتنمى، ولكنها لا تعلم، تماما كحسن التعبير، لا يكتسب ولا يصطنع مهما حمل الكاتب من ألقاب وجوائز فإنه سيبقى بأفق راعي البذور!.. ولو كان عبد العزيز قد انتظر حتى يتعلم الحنكة السياسية من ثورة الإخوان، لما انتصر عليهم. وعن علي بن أبي طالب: «تعلموا قبل أن تسودوا»! ويا ويل من يتعلم يوم القتال أو في المعركة الحاسمة، فلا أحد يتعلم في الامتحان، أو يتعلم التاريخ بالتأليف في تحليله!

لقد كانت معالجة عبد العزيز لثورة الإخوان دليل الأستاذية في الحنكة السياسية، أما المؤتمرات والنقاش المفتوح فهو أسلوب مارسه عبد العزيز قبل ثورة الإخوان بسنوات، بل يمكن القول منذ فتح الرياض، ورأينا نماذج منه أكثر وضوحا عند الإعداد لفتح الحجاز... بل ذكرنا أن حملة حايل الغيث في مؤتمر «عندما لم ير المسلمون ذلك»!

وأخيرا نقول أن «الخطر العسكري» لثورة الإخوان، كان أقل العناصر أهمية، فقد تغلب عليهم ابن سعود، «بسهولة» مازالت تثير دهشة المعلقين إلى اليوم. كما أثارت حنق المراهنين عليهم وقتها.

من الجانب الآخر كانت خطة الإخوان، أو استراتيجيتهم، إن صح التعبير، أو قل منطق الأحداث، إن لم نشأ تكريمهم بتصور وجود استراتيجية أو خطة لهم! المهم أن تطور الأحداث، وضع الإخوان أمام اختيار واحد: هو استئناف «الجهاد» فأما أن يستجيب عبد العزيز، فتتحقق وحدة المسلمين، وتعود الأيام الخوالي.. أو يتخلف مع «القاعدين» فيكون للمجاهدين، عليه درجة، وأما -والعياذ بالله -أن يسقط في خطيئة ضربهم من الخلف، فيتحالف مع أعداء الله، وبذلك تحل مقاتلته شرعا، وتسقط إمامته..!

وهكذا التقت رغبة الإنجليز مع تحرك الإخوان، رغم اختلاف الدوافع والأهداف، بل ومع انتفاء أي احتمال لاتصال مسبق، فضلا عن التنسيق، فنحن نؤكد -مرة أخرى- أن الإنجليز أو المخابرات البريطانية، لم تخلق ثورة الإخوان، ولا صنعت تمردهم، ولكنها استثمرته، وساعدت في تفجيره، وتطويره، أما التمرد أو الثورة، فكانت لها أسبابها الموضوعية والذاتية، التي لا دخل مباشر لبريطانيا فيها، فالاستعمار لا يخلق ثورات، بل يستغل الثورات غير الناضجة، فيجهضهما أو يحرفها، أو يمزقها.. أو حتى يستفيد منها في تقويض نظام يتعرض خططه ومشاريعه.

وقد بذلت حكومة العراق كل جهد لاستفزاز الإخوان والتحرش بهم، واعترف غلوب بأن بعض اللاجئين من السعودية، إلى العراق: «لم يفوزوا فقط بحق اللجوء، بل سمح لهم بشن غارات على رعايا ابن سعود». ويعترف أيضًا بأن:

«الملك فيصل (ملك العراق) كان يشجع غارات السطو على نجد، خلال عامي ١٩٢٤ و١٩٢٥/ ١٣٤٢-١٣٤٣ وكان الملك والإخوان يحاربون بعيدا في الحجاز ولكن في بداية عام ١٩٢٦/ ١٣٤٤ انتهت حرب الحجاز ورجع الإخوان

إلى نجد»، ويقول «إن انتصار الإخوان وكسبهم الحرب في الحجاز، لم يحقق إلا فتح شهيتهم من أجل المزيد من الانتصارات، وأسوأ من هذا كانت قبائل مطير وعتيبة يعتقدون أنهم هم الذين فتحوا الحجاز وليس ابن سعود، الذي لم يكن لديه جيش نظامي، والذي كان يعتمد على قبائله لشن حروبه. وقد أصبح رؤساء هذه القبائل متعالين لدرجة رفض الانصياع لأوامر ابن سعود. وهناك قليل من الشك في أنهم قرروا خلع ابن سعود وتقسيم الجزيرة بينهم».

ويقول غلوب: أن الإخوان عرفوا: «أنهم لو ثاروا ضد ابن سعود مباشرة، لانضمت بقية القبائل في نجد للملك. ولكن إذا أغاروا على المشركين في العراق فإن كل قبيلة في نجد ستعطف عليهم. ولذا فإن الهدف الحقيقي من هجومهم على العراق، كان خلع ابن سعود». وقد هاجم الدويش قبائل الكويت عند الجهرة في ٤ ديسمبر ١٩٢٧ -جماد ثاني ١٣٤٦ والمنطقة المحايدة.

وهذا يثبت أن الإنجليز كانوا على وعي تام بالمأزق الذي يواجه ابن سعود بهجوم الإخوان على العراق. ولذلك حرصوا على استفزازهم، وإغرائهم معا، بشن هذه الهجمات. فكان بناء المخافر، أو القصور -كما يسميها البدو -وهي تعني: «الحصون الأمامية عند الحدود» -كما عرفها «والين» قبل مائة سنة استنادًا للبدو -. والبدو ضد الحدود التي تقسم الصحراء، لأن هذا التقسيم يخالف الطبيعة، ويعارض حق البدوي المقدس في أرضه التي اختص بها، ويصبر على شظفها، ويتمسك بها لأنها بلا حواجز تقيد حركته. ولكن عندما أجبرت الأوضاع الجديدة، حكام الصحراء على تقسيمها، نص على حق البدو في الوصول إلى آبار الماء بصرف النظر عن خطوط الحدود، باعتبار أن الماء حق مقدس لكل صحراوي لا يجوز منعه، ويحل القتال عليه.. ولتأكيد هذا الحق، تقرر منع إقامة أية حصون حول الماء

منعه، ويحل القتال عليه.. ولتأكيد هذا الحق، تقرر منع إقامة أية حصون حول الماء لكي لا تستخدم في الدفاع عن البئر، أو بمعنى أصح في منع البدو من الانتفاع منه، من أية جهة جاءوا.. والبدوي «الأخ» يتبنى نفس الموقف، وإن كان بتعبير أكثر سموا، فهو لا يعترف بتقسيم «أرض المسلمين»، ولا يقبل أن يقام حاجز في وجهه. وبريطانيا تحاول منذ ظهور الخطر الإخواني إقامة حاجز في وجه السعوديين، سواء بدويلة تحت الحماية، أو بتقسيم الصحراء. وقد قضى ابن سعود على المحاولة الأولى بسيفه، ورفض إقرار الثانية. ووافقه الإنجليز على عدم إقامة عراقيل، أو سد الطريق على «تلك النزوحات الضروية». أي حرية انتقال البدو. وأنه يجب «ألا تقام استحكامات من أي نوع على كل من جانبي الحدود النجدية -العراقية[١]».

«إلا أنه في صيف عام ١٩٢٧-١٣٤٦ بنت الحكومة العراقية، الخاضعة للإدارة البريطانية، وحصنت قلعة في جواز آبار[٢] الحدود عند «بصية» وأعلنت رسميا عزمها على بناء قلاع أخرى على طول الحدود، وسرت موجة من القلق بين أفراد القبائل في شمالي نجد، إذ وجدوا أنفسهم مهددين في صميم وجودهم.

---

(١) بروتوكول العقير.

(٢) أثار بعض المؤلفين الغربيين صخبا حول مسألة الحدود، وقالوا أن بريطانيا علمت المسلمين قبول الحدود الدولية بالمفهوم الغربي، وأن ابن سعود أجبر بعد ثورة الإخوان على تبني هذا المفهوم الذي رفضه الإخوان. والحقيقة أن القضية ليست قضية حدود، فهذه موجودة ومعروفة في الحضارة الإسلامية منذ القرن الأول، مهما جعل صبية الغرب ومؤرخوه، وإلا فما معنى كل ما ألف في الغرب عن دار الإسلام ودار الحرب؟ وعمر بن الخطاب عرف حدود مصر وعمرو بن العاص أيضا، وإلا فما معنى رسالة عمر «إن كنت قد دخلت أرض مصر.. الخ». القضية أعمق من ذلك وهي دولة أم حركة؟ رسالة تمتد حيث وطأت خيول الله أم حركة وطنية محصورة داخل إطار وطني أو إقليمي؟.. فالجهاد ليس عن جهل بفكرة الحدود، بل عن رفض لها. والمسلم لا يعترف بحدود قومية داخل ديار المسلمين، ولكنه يقبل الحدود بين ديار الإسلام وديار الشرك. ويقبل التقسيمات الإدارية داخل دار الإسلام. وكل حركة تحرير عربية كان تصورها يتخطى الحدود المصطنعة، وليس الدويش بل ابن بليهد الذي اقترح تحرير الجزيرة العربية. وبعد خمسين سنة سيرفع زعماء العروبة شعار إلغاء الحدود. فالمفهوم مختلف تماما عما تردده تلميذة الدعى فاتيكوس.

معزولين عن الآبار التي كانوا يعتمدون عليها الاعتماد كله. واحتج ابن سعود على هذا الخرق المكشوف للاتفاقات، ولكنه لم يتلق بعد أشهر، سوى إجابة مراوغة من المندوب البريطاني في العراق» بل استفزازية! ففي ١٧ نوفمبر ١٩٢٧-٢٢ جمادى الأول ١٣٤٦ أبرق المندوب السامي للملك يقول: وصلني كتابكم المؤرخ ٥ أيلول فتعجبت من احتجاجكم على بناء نقطة «بصية» من قبل حكومة العراق. إذ تبعد بصية خمسين ميلا من المنطقة المحايدة، وخمسة وسبعين ميلا من الحدود النجدية. فمن الواضح أن المادة الثالثة ١١م من ملحق العقير، لا تشمل هذه المسألة. «وزعم أن الشرطة كانوا هناك من ديسمبر ١٩٢٦ -جماد ثاني ١٣٤٥ وأكد حافظ وهبة أن الملك اعتبر هذه المخافر حصونا أمامية في الصحراء لتكون مراكز لغزو بلاده في المستقبل».

ولعل إحساس المحيطين بالملك بضيقة ومعارضته بل وتخوفه من هذه القصور جعل رجال البلاط[١] «لا يصدقون أن غارات الدويش على هذه المخافر، ليست بعلم الملك ورضاه، وكانوا يظنون أنه يخطط لضم العراق. ولما هاجمت الصحف العراقية النجديين وذكرتهم بهزيمتهم من قبل أمام العراقيين قال الملك: دعوا بريطانيا تقف على الحياد، ونحن نرى من ينتصر».

وقال محمد أسد: «إن فيصل الدويش فكر في أنه، قد لا يكون مناسبًا للملك أن يبدأ نزاعا مع البريطانيين ولكني أنا سأجترى عليهم».

بمعنى أن يكرر الدويش قصة تربة في عام ١٩١٩-١٣٣٧. والتي انتهت بانتصار ساحق، فوقتها كان الملك يعارض تحركات الأشراف أي ملك الحجاز..

---

(١) انظر محمد المانع: العربية تتوحد.

ولكنه أيضا كان يعلن رفضه لأية مبادرة إخوانية ضد هذه التحركات. وينصحهم بالهدوء، وانتظار مفاوضاته مع الإنجليز، وينذر الإخوان بمضاعفات الوضع لو استفزوا الإنجليز. ولكن الإخوان حسموا الموقف بالهجوم الصاعق على «تربة». وحتى عندما جاء الإنذار البريطاني، كان الهدف قد تحقق والإمام في غاية السعادة..!

فلماذا لا يكررها الدويش؟ مع نفس الأعداء؟.. لماذا لا يكرر التاريخ نفسه؟!

خاصة والدويش لا يعرف الحكمة «الكافرة» السخيفة، التي تقول أن التاريخ إذا كرر نفسه، ففي الأولى كإنجاز عبقري، وفي الثانية كتقليد هزلي. وكيف ذاك والدويش يعتبر نفسه الحجة القاطعة على إمكانية تكرار التاريخ، أو إجباره على تكرار نفسه، ألم يعد هو وأصحابه عهد الفتوح في صدر الإسلام، ويجددوا دعوة التوحيد؟!

وإذا تمشينا مع هذا التفسير، واستعرنا بلاغة محمد أسد نقول إن الدويش «حدث ذات نفسه». «نغزو العراق، ونهدم الحصن الذي بناه المشركون الإنجليز وأعوانهم، فإذا استجاب الإمام، وبعث من خلفنا البعوث، فتحنا العراق، وقضينا على الفرس في القادسية الثانية، وانطلق ابن لؤي من الحجاز إلى الشام لطرد «الدولة القيصرية البهية[١]» وعمالها من الغساسنة.. وهبي يا رياح الجنة.. وازحفي يا خيل وابل الله المنصورة، ولا بأس من بعض المصفحات..! حتى يتسلم الإمام مفاتيح القدس، ويستسلم المقوقس في قصر بابليون أو عابدين سيان!

وإن لم يستجب الإمام، نتراجع، ونكون قد أنجزنا المهمة.. هدمنا الحصن، وأكدنا رفضنا لإقرار المبدأ.. وأثبتنا للمنافقين في العراق، أن الإنجليز لا يحمونهم من سيوف التوحيد.. وسيعتب الإمام علينا أمام الناس ثم يعفو..

---

(١) لقب بريطانيا في مخاطباتها مع البدو.

وسارت الأمور في البداية، وفق هذا التصور، ففي سبتمبر ١٩٢٧ -ربيع أول ١٣٤٦ أرسلت حكومة العراق فرقة من اثني عشر عاملا في حراسة سبعة من رجال البوليس! لبناء مخفر «بصية». وواضح من الأرقام أنهم أرسلوا للذبح، وإلا لما غفل الإنجليز عن إرسال مصفحة معهم. وكان ذلك كافيا لصد الهجوم..

وفعلا في ليلة خمسة على ستة نوفمبر ١٩٢٧ -جماد أول [١]١٣٤٦ على طريقة البلاغات العراقية بعد ثلاثين سنة -هجم الإخوان وهدموا الحصن، وقتلوا من فيه. وحملوا ما وجدوه من الفيء[٢].

«وظهرت الطائرات البريطانية فوق مسرح الحادثة، فاستطلعت ثم انسحبت خلافا لعادتها، دون أن تلقي قنبلة واحدة. ولقد كان من السهل عليهم أن يصدوا الغارة، وهو عمل كان من حقهم بموجب معاهدتهم مع ابن سعود، ثم ينهوا مشكلة الحدود عن طريق المفاوضات الدبلوماسية، ولكن -يتساءل محمد أسد -هل كانت الحكومة البريطانية -العراقية تهتم حقا بإيجاد حل سلمي سريع للخلاف؟!».

وتدفقت القبائل تطلب الإذن بالجهاد، «وفتح» العراق. ولكن ابن سعود «رفض بقوة كل تلك المطالب وأعلن عصيان الدويش، وأصدر أمره إلى أمير حايل[٣] بأن يسهر على مراقبة الحدود، ثم أوقف مرتبات الإخوان في القبائل التي تحت سيطرة الدويش، الذي وضعه تحت الإقامة الجبرية في الأرطاوية في انتظار

(١) هذا في رواية غلوب. أما بقية المصادر فجعلتها في أكتوبر ١٢م.

(٢) حتى اليوم يعتقد أولاد الإخوان أن الحملة على العراق كانت بعلم ابن سعود. في مقابلة جرت في شتاء عام ١٩٧٩ -١٣٩٩ بالرياض مع ابن عم الدويش، قال لي: «أن الخبر المتواتر يوكد أن الملك عبد العزيز كان راضيا عن هذا العمل. وأخذ خمس غنائم المعركة باعتباره الإمام. وهذا دليل مباركته للعملية».

(٣) وهنا تأكدت حكمة الملك في تعيين الأمراء. فلو كان الدويش أميرًا لحايل لانفصل بالإمارة، ووجدها الإنجليز أو غيرهم فرصة -ربما- للاعتراف به! فهذا حلمهم القديم.. أما الآن فإن الدويش ليس أكثر من شيخ قبيلة متمرد.

قضاء الملك، وأحيطت حكومة العراق علما بهذه الإجراءات، كما أعلمت بأن الدويش سيلقي أشد العقاب». ويفسر غلوب على عادته موقف الملك بأن «ابن سعود كان قد حقق كل ما اعتقد أنه يمكن تحقيقه. والعراق والأردن كانتا تحت الانتداب البريطاني ولم تكن به رغبة في محاربة بريطانيا».

وهذا صحيح، إلى حد بعيد، وهو يعزز رأينا بأنه لم يكن هناك تنسيق بين تحرك الدويش ومخططات الملك، الذي مهما يكن استياؤه من المخافر، فهو يفضل حل الأمر بنفسه، وبأساليبه، وكان يدرك خطورة الهجوم الإخواني سواء نجح أو فشل. وأكدت الأحداث مخاوفة، وأيضا وعيه..

المهم نجح الإنجليز في إشعال الفتيل.. وقد حاول ابن سعود نزع هذا الفتيل، وبإلحاح كبير من جانبه، وافقت بريطانيا على إرسال السير «جلبرت كلايتون» للاجتماع به في جدة، وبين الرجلين احترام متبادل في حدود إخلاص كل منهما لسياسة بلاده ومصالحها. وخلال اجتماعاتهما -يقول غلوب -حاول عبد العزيز -عبثا -اقتناع الجانب الإنجليزي بهدم المخفر في بصية[1] بأمل أن يرجع إلى الإخوان قائلا: «انظروا بالدبلوماسية وحدها حققت ما فشلتم أنتم في إنجازه بالقوة، فاتركوا لي معالجة الأمور مع العراق. ولكننا لم نقتنع بأن ذلك سيجدي في إخضاع الإخوان الذين كانوا قد صمموا على خلعه.. وهكذا بعد أسبوع واحد من مباحثات لا طائل وراءها عدنا للعراق».

لو كانت بريطانيا تريد مساعدة عبد العزيز، أو حريصة على حكمه لأعطته هذا الذي فهمه الوفد البريطاني جيدا، فليس من المعقول أن عبد العزيز قال للإنجليز:

---

(١) في خطاب الملك عبد العزيز للمندوب السامي البريطاني بالعراق سماها «بصوة» وفي رد المندوب السامي سماها «بصية» وبعض المصادر العربية تسميها «بسية» وهي واقعة في أراضي العراق تجاه الحدود مع السعودية.

«أهدموا المخافر لكي أرجع فأقول للإخوان: انظروا.. الخ» ولكن الطرفين بدأ المفاوضات وقطعاها، وهما يعرفان تمام المعرفة، أنه إذا فشل عبد العزيز في الوصول إلى حل سلمي، حول قضية المخافر، يقبله الإخوان، فإن هيبة الدولة ستسقط وحجة الثورة ضده ستقوى. وهو ما كان ابن سعود يخشاه، والمفاوض البريطاني يتمناه، ولذلك استحال الاتفاق وانفض الاجتماع بما يخدم التمرد ودعاية الرافضين.

ولزيادة إغراء الإخوان واستدراجهم للاعتداء على العراق صدرت الأوامر بمنع سلاح الطيران البريطاني من العمل فوق الحدود. يقول غلوب: «في نوفمبر ١٩٢٨ جماد أول / ثاني ١٣٤٧ أعلن المتمردون الإخوان من قبائل مطير وعتيبة والعجمان، أنهم سيهاجمون العراق، شاء ابن سعود أم أبي[١]، فأسرعت إلى بغداد، لإعداد الترتيبات النهائية مع الجيش العراقي والسلاح الجوي الملكي البريطاني. وقد تقدم الجيش العراقي لمساعدتنا بنبل[٢]، وكانت قواته موجودة بالفعل في بصية وسلمان وشبيشة. ووافق السلاح الجوي البريطاني على القيام بطلعات استطلاعية... **ولكن... في تلك اللحظات الحرجة، أصدرت الحكومة البريطانية فجأة أمرًا للسلاح الجوي بأن يبقى بعيدًا عن الحدود مسافة عشرين ميلا. لقد فشلت** الحكومة البريطانية[٣] في تقدير الموقف، إذ ظنت أنها تتخذ هذا القرار مجاملة لابن سعود، **وفي الحقيقة ربما كانت تقضي عليه بهذا القرار، لأن الإخوان المتمردين،**

---

(١) بعد فشل المفاوضات، أي حدث بالضبط ما توقعه عبد العزيز وأراده الإنجليز.

(٢) تأمل! مع أن الهجوم وقع على الأراضي العراقية، ولكن غلوب يعتبر اشتراك الجيش العراقي، مساعدة نبيلة للإنجليزي!؟

(٣) هذا تواضع من غلوب!! إذ يعتبر نفسه أذكى من الحكومة البريطانية. أو محاولة منه لتزييف التاريخ مفضلا اتهام بريطانيا بالغفلة، عن إثبات تهمة التآمر من جانبها!

كانوا يهاجمون العراق ضد أوامر ابن سعود، ولو عادوا منتصرين يحملون الغنائم والأسلاب لانضمت إليهم القبائل الأخرى، وسقط ابن سعود. والعكس صحيح، لو هزم المتمردون فستبقى القبائل الأخرى على إخلاصها مما يمكنه من هزيمة المتمردين».

وشهادة أخرى يعترف فيها غلوب، بأن جميع الإجراءات قد اتخذت لتشجيع أو إغراء الإخوان بالهجوم وإحراز نصر: «فقد صدرت الأوامر للطيران البريطاني بمنع التحليق فوق الحدود. بل وإلى مسافة سبعين ميلا منها. كما سحبت السيارات المسلحة والمدافع الميكانيكية من قوات غلوب المتقدمة. وحظر عليه دخول الكويت لتعقب أو ضرب الإخوان الذين أغاروا على قبائل بني مالك العراقية في الكويت في فجر يوم ٢١ يناير ١٩٢٩». فقد اكتشف الإنجليز فجأة أن معاهدة العقير تمنعهم من حشد قوات عند الحدود! بينما رفضوا الاعتراف بالنص الخاص بعدم بناء الحصون!..

ولا أحد يطالبنا بأن نفترض تفوق غلوب، على الحكومة البريطانية في تقدير الموقف، أو الذكاء وبعد النظر الاستراتيجي، والوعي بمصلحة بريطانيا! بل يحق لنا أن نقول بكل اطمئنان إن بريطانيا كانت تريد بالضبط هذا الذي يدعي «غلوب» أنها لم تقدره، أعني تشجيع الإخوان على الهجوم وإغراء المترددين من القبائل للانضمام إليهم، وبذلك يسقط ابن سعود، ويقضى عليه. وغلوب الذي أصبح مؤلفا في عام ١٩٨٠ (١٤٠٠) والذي تضخم في الأردن، لم يكن في هذا الوقت الذي يكتب عنه، أكثر من ضابط حدود لا يفهم ولا يحاط علما بالاستراتيجية العليا التي توضح في دار المندوب السامي البريطاني بالعراق، فضلا عن لندن.. والحكومة البريطانية التي دبرت اغتيال أكبر ضابط بريطاني في الجيش المصري لتنفيذ خطتها

في الإطاحة بالحكومة الدستورية في مصر[١]، لم تكن بالتي تهتم بأزمة ضابط حدود يرتعد رعبا من الإخوان، ويريد حماية حياته، وهيبته، بالطائرات والمصفحات. كان الأهم في نظر مخططي السياسة البريطانية، هو إتاحة الفرصة للإخوان، لكي ينفذوا «ما صمموا عليه» وهو: «خلع ابن سعود» بألفاظ التقارير البريطانية وقتها.

وهكذا نرى أنه في هذه المرحلة، «امتنع» الطيران البريطاني عن ضرب الإخوان، ضد مصلحة ابن سعود، وليس كما يفترى الفائز بجائزة ابنه... «أنه ضرب الإخوان لمساعدة ابن سعود»... وها هي شهادة ثالثة من غلوب:

«في فبراير ١٩٢٩ -رمضان ١٣٤٧ تلقيت معلومات بأن الدويش ومعه عشر رايات (عشرة آلاف من الإخوان[٢]) قد تحرك منذ يومين لمهاجمتنا في مغيزل، وباستشارة مساعدي من فرقة الهجانة، حددنا موعد الهجوم في فجر يوم ١٩ فبراير.. وبعثت بموعد الغزو إلى بغداد، وطلبت معونة المدرعات التابعة للسلاح الجوي الملكي البريطاني، وسيارات مصفحة، ولكني لم أتلق ردا. وكانت لنا تجمعات هائلة في بصية، من السيارات المدرعة التابعة للطيران البريطاني، والمدفعية الآلية للجيش العراقي، ولو اشتركت هذه الأسلحة في رد غارات الدويش لأنزلت بهم إصابات كانت كفيلة بإنهاء غارات الإخوان إلى الأبد، **ولو تم ذلك لانهار التمرد واستعاد ابن سعود سلطاته ومع ذلك كنت أشك في أن تساعدنا هذه القوات[٣] حتى لو هوجمنا (!!)**.

(١) حادثة اغتيال السيرلي ستاك سنة ١٩٢٤-١٣٤٣ وسقوط حكومة سعد زغلول.

(٢) لاحظ أن الدويش كان أقدر على تجميع «المجاهدين» للقتال ضد الإنجليز منه في تجميع الثائرين ضد عبد العزيز فقوات الإخوان في معركة السبيلة كانت ثلاث آلاف فقط.

(٣) البريطانية.

«وكل ما أتصوره هو أن هذا الموقف غير المتعاون[١] إنما يعود للحكومة البريطانية التي كانت تعتبرنا نوعا ما من مؤيدي الإشراف، نحارب ابن سعود لهذا السبب، مع أن الحقيقة هي أن هزيمتنا للإخوان -لو تمت -كانت ستنقذ عرش ابن سعود».

فالحقيقة المتفق عليها هي أن سلوك بريطانيا في هذه المرحلة، كان يساعد على تقوية الإخوان وانتشار التمرد. وأن بريطانيا لو صدت هذه الغارة، داخل الأراضي التي تسيطر عليها -أي بدون تعقيدات دولية ولا اعتداء على السيادة السعودية لو فعلت ذلك في فبراير، لانهار التمرد تماما، في رأي غلوب، ولاتجه التاريخ اتجاها آخر في اعتقادنا. ولكنها لم تفعل، ولم تنقذ عرش ابن سعود، بل إن هذا الموقف باعتراف غلوب نفسه، ساعد على تهديد عرش ابن سعود.

والحقيقة الثانية التي يسجلها اعتراف غلوب، وسط اعترافه بعجزة عن فهم دوافع موقف لندن، ومحاولته استنتاج الأسباب. اعترف أيضا، بأن الإنجليز الصغار في العراق والأردن، كانوا معروفين في لندن، بعداوتهم لابن سعود، وتصورهم أن ضرب الإخوان هو ضربة لابن سعود. ودعم للسلطة الشريفية. فالإنجليز في المنطقة والذين في لندن، مجتمعة إرادتهم على ضرب ابن سعود والإضرار به والعداوة والكيد له.. ولكن دهاقنة الإمبراطورية في لندن، كانوا أكثر خبثا وأعمق غورا، وأطول نفسا..

وقال فيلبي إن «فيصل الدويش والعجمان ساعدتهم عناصر في الكويت والعراق[٢] تكره ابن سعود وتتمنى له أي إزعاج»، وقال أيضا: «كان الثوار يتلقون

---

(١) من الجيش البريطاني.

(٢) وقال مؤلف Arabia Unifed: «يجدر القول بأنه لا الكويتيون ولا العراقيون كان لهم من الأمر شيء، لأن بلديهما تحت حكم بريطانيا».

الإمدادات من الكويت لدعم تمردهم» وتساءل الزركلي: «ألا يمكن القول بأن الجهة العراقية، وهي تابعة يومئذ، لتوجيه السياسة البريطانية، ومن مصلحة بريطانيا إزعاج عبد العزيز، ولذلك كان إقدامها على بناء المخافر -خلافا لبروتوكول العقير؟».

وأرسل الملك مذكرة بتاريخ ٢٤ ربيع أول ١٣٤٦ -أكتوبر ١٩٢٧ قال فيها إن شيوع أخبار تحصين الحكومة العراقية للحدود وإقامة المخافر والمواقع العسكرية عليها، قد أوجب قلق القبائل النجدية[١] وهياجها هياجا لا يمكن إخماده، إلا بإقناعها بحسن نية الحكومة[٢] العراقية.

ولما بدا أن الملك قد استطاع تطويق الفتيل، بتحديد إقامة الدويش، والدعوة إلى حوار فكري واسع.. بادرت بريطانيا بتنفيذ مخطط المرحلة الثانية، مرحلة تحطيم

---

(١) هناك نماذج عديدة لأسلوب تفجير الثورات، للوصول إلى ضربها أو ضرب قوة معادية لها، مثل إفساح المجال لثورة المهدي في السودان، ومنع الحكومة المصرية من مواجهتها في البداية، بل وإجبارها على إخلاء السودان، حتى لا تتوحد بقايا الثورة العربية مع الثورة السودانية، تحت قيادة أكثر وعيا بما يدور في العالم. وبذلك أصبح السودان كله تحت سيطرة المهديين. ومثل ضربها محافظة الإسماعيلية في ٢٥ يناير لإجهاض الحركة الوطنية، والإطاحة بحكومة الوفد من خلال انفجار غير ناضج، ومثل دورها في الحركة الوطنية بالبحرين عام ١٩٥٦-١٣٧٥.

(٢) وقد اعترف غلوب لكرستين هلمز بأن الملك فيصل قد منح حق اللجوء للإخوان المتمردين على ابن سعود ليس عن شهامة عربية، بل لتفجير الوضع في نجد كراهية لابن سعود».

وكتب المندوب السامي البريطاني في العراق إلى وزير المستعمرات: «في مثل هذه الظروف يصعب على رجل بأخلاق الملك فيصل (!!) أن يتخذ موقفا محايدًا من ثورة الإخوان. وليس لدي شك في أنه أرسل رسلا برسائل تشجيعه للمتمردين الإخوان. واعدا بالمساعدة. ولا أشك في أن أحد أسباب زيارة الأمير عبد الله للعراق، هي أن يبحث مع أخيه في تنسيق التعجيل بإسقاط ابن سعود، وتنظيم الاستفادة من هذا السقوط». ٢١/ ١٠/ ١٩٢٩ جمادي الثاني ١٣٤٩هـ.

وأبلغ أحمد الجابر بن صباح ديكسون أن على شوير بات رسول الملك فيصل أبلغه أن هذا الأخير استدعى زعماء شمر اللاجئين في العراق وأنبهم على جبنهم لأنهم لا يزحفون للاستيلاء على حايل، وأنهم إذا لم يتحركوا الآن فإنهم يستحقون العبودية للأبد. فلما أبدى شيوخ شمر تخوفهم من الدويش رد عليهم الملك فيصل «لا تخافون.. الدويش عندي»! (من ديكسون إلى رئيس الخليج ٢٦/ ٩/ ١٩٢٩ -ربيع أول ١٣٤٦هـ).

هيبة ابن سعود، واستفزاز القبائل للثورة ضده، أو على الأقل، الانضمام لمقاوميه، دعاة الحرب ضد الإنجليز.. وهكذا انقلب الموقف البريطاني رأسا على عقب، من منع الطيران من حماية الأراضي العراقية ذاتها، أو التعرض «للمقاتلين» السعوديين داخل الأراضي العراقية مسافة سبعين ميلا... إلى ضرب الأرطاوية، واللصافة داخل الأراضي السعودية، وقتل النساء والأطفال وتهديم المنازل والآبار..

وهكذا بعد أن أعلن الملك قراراته، وظن أن الموقف قد هدأ، وأن السلطة في الرياض قادرة على معالجة أمر الدويش، فأما أن يدخل في الطاعة، أو يعزل عن قواعده، التي بدأ الملك حملة توعية بينها.. بادر الإنجليز بتسخين الموقف، باستفزاز الإخوان، وتحدي سيادة الدولة السعودية، وإظهار أن موقف ابن سعود لا ينبعث من قوة الحكمة، بل من حكمة الضعف أو حتى الخوف، فبعد أن سيطر ابن سعود على الوضع فوجئ بإنذار بريطاني من المندوب السامي بالعراق بأنه «سيرسل فرقة جوية لمعاقبة الإخوان من قبيلة «الدويش»، «لإجبارهم على طاعة مليكهم»!

وقد أدرك عبد العزيز على الفور، أهداف تلك المظاهرة، وما يمكن أن يترتب عليها من نتائج، فرفضه في الحال، وبعث برسول خاص إلى البحرين لإرسال برقية برفض الإنذار[1] إلى بغداد.

وقال الملك إنه لا يحتاج لأية مساعدة بريطانية لفرض سلطته على الدويش، وأن مثل هذا العمل الذي يشير إليه الإنذار سيكون خرقا للمعاهدة وأكد أن أي إجراء حربي جوي بريطاني «سيحدث رد فعل عظيم بين الإخوان» ولأن هذا بالذات

(١) لأن الإخوان كانوا قد منعوه من إقامة «طائرة الهواء» في نجد، وطائر الهواء هي تسمية الإمام يحيى للاسلكي!

هو هدف الإنجليز، فقد قامت الطائرات في أواخر يناير ١٩٢٨-١٣٤٦هـ «بغارة جوية داخل الأراضي السعودية فوق خيام المطيرين وقتلت دون تمييز، الرجال النساء والأطفال والمواشي» «ثم أعادوا بناء قلعة بصية، كما بنوا قلعتين أخريين».

وهذه هي البرقية التي بعث بها عبد العزيز بواسطة حافظ وهبة من البحرين وهي توضح أن تدخل الطيران البريطاني كان عاملا مساعدا للثورة وليس لابن سعود.

«الحالة مضطربة في نجد. لأن العهود نقضت من قبل العراق. الطائرات ضربت الحدود في الشرق والغرب. الإنسانية لم تحترم. الحالة خطرة جدا. والهمة مبذولة لتسكين الأحوال، والنتيجة مجهولة»[1]!

وفي ٢٥ نوفمبر ١٩٢٧ الموافق ١٠ جمادي الأولى سنة ١٣٤٦ كتب الملك للمندوب السامي البريطاني في العراق يحتج على عمليات الاستعراض الاستفزازية التي تقوم بها الطائرات والسيارات البريطانية داخل الأراضي السعودية. ويحذر من احتمال اعتداء أهل البادية عليها.

وفي ١٣ شعبان ١٣٤٦ -فبراير ١٩٢٨، احتج الملك لدى رئيس الخليج على إلقاء المنشورات، وضرب الطائرات للإخوان وقال: «فبعد أن وصلنا إلى هذه النتائج (عزل الدويش) ولم يبق من أنواع التأديب التي لم نعملها معه إلا تسيير حملة عليه[2]، واستتب الأمن لم نشعر إلا بالطيارات تنذر قومنا في ديارنا، بأنهم سيكونون عرضة لنيران الطيارات، ثم لم نشعر بعد ذلك إلا بأن الطيارات تجاوزت حدودنا

---

(١) وتاريخها فبراير ١٩٢٨-١٣٤٦هـ.

(٢) فحتى هذا الوقت لم يكن ابن سعود يطرح احتمال الحرب مع الإخوان، ولكن بريطانيا هي التي كانت تدفع الأحداث في هذا الاتجاه.

وضربت الآمنين في ديارنا. لذلك كان لهذا الحادث أثره العظيم في نجد. بعد ذلك الهدوء الذي ساد البلاد، فقد أهاج عمل موظفي العراق بضربهم لديارنا، سائر أهل نجد، وأوجد في نجد حالة لا نستطيع أن نقدر ما ينتج عنها، وإنا لنلقي تبعة كل ما حدث ويحدث على عاتق أولئك الموظفين الذين أتوا فعلتهم الشنعاء النكراء[١] بغير تبصر بالعواقب ولذلك نحتج بشدة على ما يأتي:

١- تعدي الطيارات حدودنا وإلقائها إنذارات[٢] على عرباننا.

٢- اعتداء الطيارات على الآمنين من رعايانا في ديارنا مما لا يقره قانون دولي.

وأحب أن يتأكد للحكومة البريطانية أن هذا أبلغ سهم أصيبت به العلاقات الودية بين نجد والعراق. وأن نتيجته التهيج الذي حصل في نجد، مما يخشى أن يولد أحداثا جساما من بعده، لسنا بمسئولين عن شيء منها، وإنما يسأل من أعتدى من غير سبب وحرك الفتنة بعد سكونها».

وهي وثيقة لا تحتاج لشرح، لتبيان أن عبد العزيز يتهم بريطانيا بالعربي الفصيح، بتفجير الثورة، وإعادة تأجيج نار التمرد، بعدما أمكن السيطرة عليه. ولكن كل هذه الوثائق مجرد مؤامرة محبوكة لخداع مؤلف «الإصلاح الاجتماعي» وغيره ممن نحوا نحوه، بإخفاء تعاون بريطانيا مع عبد العزيز، ولكن هيهات أن تنطلي عليهم الحيلة.. ألم يشكر السير همفري السير جوب جلوب! وهنأت الحكومة

---

(١) ابن سعود يصف القصف الجوي البريطاني بالفعلة النكراء الشنعاء، ومؤلف الجائزة يقول إنه شكر بريطانيا لإنقاذها ملكه بهذا الضرب!!

(٢) كان هنري دوبس المندوب السامي قد اقترح فرض حصار على السعودية، ولكن وزارة المستعمرات لم توافق على هذا الاقتراح، ووافقت على اقتراح آخر وهو إلقاء المنشورات على البدو، تتضمن إنذارا بالابتعاد مسافة ٤٠٠ ميل وإلا ضربوا بالقنابل».

البريطانية ابن سعود بالقضاء على ثورة الإخوان؟

في ١٦ رمضان ١٣٤٦ مارس ١٩٢٨. بعث عبد العزيز بمذكرة إلى المجر برت.. ينفي فيها ادعاء بريطانيا أن: «الدويش خرج عن الطاعة، أو أنه أعلن العصيان علينا، والحقيقة أن الدويش مع نفر من مطير، أتوا في العراق أعمالا ليست بأمرنا ولا نقرهم عليها، أما الدويش في أراضينا فهو تحت أمرنا وقهرنا في كل وقت وحين».

كما رفض ادعاء بريطانيا «بمشروعية مطاردة أو مجازاة رعايا نجد داخل أراضي نجد من قبل موظفي العراق، أو أي جهة في العالم غير نجدية».

كما يبلغه أنه سحب الجند السعودي من منطقة الحدود، لكي لا يقع صدام مع البريطانيين الذين يجتازون الحدود.

ويعلق حماية الحدود على ٤ شروط هي:

- هدم القصر المشئوم في «بصية» ولا يبنى غيره على الحدود.
- منع إيواء المجرمين.
- منع اختلاط الموظفين العراقيين والإنجليز بعرباننا.
- محاسبة بريطانيا للمسئولين عن الحوادث التي وقعت على حدود العراق».

ويفهم من الرسالة أن ابن سعود كان يخوض حربا ضد بريطانيا خلال أزمته مع الدويش، وأن بريطانيا حاولت ادعاء قيام حالة فوضى أو عصيان في نجد، فقدت فيها السلطة المركزية سيطرتها على الإخوان، ومن ثم أصبح لها الحق في القيام بعمليات عسكرية بوليسية في أرض «السيب»، أو التي لا مالك لها، ويسيطر عليها المتمردون...

وهذا ما رفضه ابن سعود بكل شدة، مؤكدًا أن الدويش حتى هذه اللحظة (ربيع ١٣٤٦-١٩٢٨) تحت الطاعة، وأن أعماله العسكرية، التي لم تكن بأمر السلطة المركزية، إلا أنها موجهة ضد الإنجليز أو العراق، وليست ضد السلطة الشرعية في الرياض. وأن الواقع هو عكس ادعاء بريطانيا، فضرب الطائرات يؤدي إلى فقدان الحكومة المركزية السيطرة على قبائل نجد.. كما تجدر الإشارة إلى مطلب منع «اختلاط الموظفين العراقيين والإنجليز بعرباننا» ويبدو أن هؤلاء لم يكونوا يتجسسون على الإخوان فقط، كما يقول غلوب، بل ويساهمون بأكثر من طريقة في التحريض على الثورة.

ونجح مخطط المرحلة الثانية، وأصبحت الحرب أو المواجهة المسلحة بين الملك والثوار محتومة. اقتنع عبد العزيز بأنه لا يستطيع حماية «الدولة» أو فرض هيبتها إلا بإدخال الدويش وابن بجاد في الطاعة أو حسم الموقف معهما.. وشك الإخوان، في أن سعود يبغي الدنيا، ويوالي من حاد الله ورسوله.. وأيضا لن يسمح لهم بعد اليوم بالتصرف كقوة مستقلة..

إما أن تنتصر «الدولة» وتطوي صفحة الحركة والثورة، أو بمعنى أصح أن تأخذ الحركة والثورة مكانها في خدمة «الدولة» وضمن أجهزتها، كما حدث للثورة والحزب في روسيا والصين، وقبلهما في فرنسا نابليون، وكما حدث للتنظيمات الصهيونية والكيبوتزات بعد قيام دولة إسرائيل -والقياس مع الفارق الشديد -أو ينتصر الجناح المتطرف فتنهار الدولة والثورة والحركة معا.. وكلا النتيجتين لمصلحة بريطانيا، وهي إذا كانت تفضل الاحتمال الثاني، إلا أنها على استعداد للتعايش مع الاحتمال الأول.. ولذلك نشطت في توسيع الخرق، وتحويله إلى

صدع. وفي مواجهة الاستراتيجية البريطانية وضع عبد العزيز استراتيجية مضادة من ٣ نقاط.

- ضرب التمرد الإخواني قبل أن تتاح فرصة استثماره من الخارج.
- منع التدخل البريطاني المباشر أو غير المباشر.
- اختيار الأرضية المناسبة التي يدور القتال عليها لتصفية الثائرين.

واقتنع باستحالة الوصول إلى اتفاق مع البريطانيين، لسببين:

السبب الأول هو رغبة بريطانيا في تهيئة المناخ الذي يضمن انتشار التمرد وتصاعده.

والسبب الثاني أن الإنجليز كانوا قليلي الثقة في قدرة ابن سعود على مواجهة «قوته» التي اعتمد عليها خلال سنوات زحفه من الرياض إلى جدة[1].. والتي انتصرت في كل ميدان وضد كل القوى.. فكيف سيقهرهم عبد العزيز وبمن؟! خاصة وأن الإنجليز عندهم قناعة فاسدة من أيام معركة «جراب» بعدم كفاءة عبد العزيز العسكرية!

وقد روي حافظ وهبه إنه سئل «كما سئل غيره من قبل بعض ضباط المخابرات في بغداد والبصيرة ومصر وسواها من المدن العربية. وكان السؤال هو: هل يستطيع ابن سعود أن يتغلب على عشائر مطير وعتيبة والعجمان؟ إن هذه العشائر هي أقوى عشائر الجزيرة، وهم يقطنون شرقي الجزيرة وغربيها ووسطها».

وقد عكست مجلة «لغة العرب» العراقية تفكير الإنجليز والقصر عندما قالت:

---

(١) جاء في منشور بريطاني «أن بريطانيا تريد مساعدة ابن سعود ولكنها لا تريد أن تكون في الجانب الخاسر».

«فيصل الدويش هو الذي يقلق اليوم ابن سعود ويكاد يعرض حكمه في ربوع نجد للبوار».

وقال «كنيث وليامز» الصحفي والمؤلف البريطاني، إن أساتذته في جامعة أكسفورد: «كانوا يتوقعون تغييرًا سريعًا في السعودية يؤدي إلى سقوط عبد العزيز».

وليس من سياسة بريطانيا، الارتباط مع قوة تتوقع سقوطها، لذلك كل تحقيق الهدف الأول هو شرط الوصول للهدف الثاني.. أي بضرب التمرد، وإثبات عجزه عن الإطاحة بالنظام، عندها تفقد بريطانيا القدرة على المناورة، وتضطر للتعامل مع ابن سعود. ولكن الهدف الأول لم يكن ممكنا، إلا بتحقيق الهدف الثالث.. أي تجريد «التمرد» من مبرره العقائدي، بإسقاط طابع الجهاد عنه. وتأكيد طابعه الانشقاقي، أي تحويلها من «ثورة» إلى «فتنة»، من حركة «وطنية» إلى «حرب أهلية» أي تحويل الإخوان من «مجاهدين» إلى خوارج.. ولتحقيق هذا قام بعملين: تجديد البيعة في مؤتمر الرياض.. ثم استغلال حادثة القصيم..

في مؤتمر الرياض، أو الجمعية العمومية -التي أشرنا إليها -طرح عبد العزيز الثقة بنفسه، وحصل عليها مجددًا، وقد زعم مترجم الديوان الملكي أنها كانت حركة، أو «بلفة» رائعة، استطاع بها الملك السيطرة على المؤتمر، فنسيت مطالب الإخوان، في حمى إعلان الولاء للملك من المجتمعين ولم يهتم أحد بمناقشتها. ويقول إن «العلماء والأمراء، رجعوا من المؤتمر مثقلين بالهدايا بما في ذلك مجوهرات لنسائهم» من هدايا الملك[1]!

وسواء صحت الروايات على أن الملك بدأ الاجتماع بطرح الاستقالة،

---

(١) كما زعم أن الملك دعاهم لمبايعة أي شخص. وهو قول خاطئ تماما فقد اشترط أن يكون البديل من آل سعود.

أو أصر على مناقشة الاستقالة قبل مناقشة الاتهامات الإخوانية، فإن تفسير ذلك أعمق من «شطارة» المترجم..

ففي تفسيرنا أنها كانت خطوة تدل على الوعي السياسي، وليس مجرد البراعة السياسية.. لأنه لو سمح بمناقشة الاتهامات أولًا، لسقطت هيبة القيادة، وامتزج النقد بالنقمة، وأصبح من الطبيعي أن تنتهي المناقشة بإدانة ابن سعود أو تبرئته، ولكنه سيظل طوال المؤتمر في وضع المتهم، حتى يصدر القرار، وهذا يفتح المجال، للتطلعات وتنشيط القوى الانتهازية، وتخويف المترددين، والقائد أو رئيس الدولة، لا يقبل المثول أمام محلفين في انتظار قرارهم: «مذنب أو غير مذنب»، بل يطرح الثقة به: يقود أو لا يقود!.. فإذا كانت قيادته مرفوضة، وتقرر خلعه عندها ترى الأمة أو القيادة ما تراه في شأن محاكمته أو معاقبته، بعدما أصبحت فردًا عاديًا. أما لو قررت استمرار الثقة في قيادته، عندها يمكن مناقشة «مطالب» المعارضة لا «اتهاماتها».

وهذا ما جرى بالضبط. طرح عبد العزيز الثقة بشخصه وليس بالبيت السعودي، فالملك في البيت السعودي قضية مفروغ منها، أما الفرد الحاكم من هذا البيت فيمكن أن يخطئ، ويحاسب، ويعزل.. وابن سعود هو عميد بيت، وليس «شمشون» ليدك البيت فوق رأس الجميع.. ولذلك اشترط ابن سعود اختيار بديل من البيت السعودي. فلما استعاذ الحاضرون بالله من خلع الإمام.. انتقل المؤتمر لمناقشة المطالب.. أو نسيت في تفسير ابن مانع!

وفي رأي حافظ وهبه أن الاستقالة لم تكن واردة لا عرضًا ولا قبولًا، فالملك في نظر وهبه لم يكن ينوي الاستقالة: «فهو في الحقيقة لم يكن يرمي من هذا المؤتمر إلا جمع كلمة النجديين، وإثارة حميتهم ضد الإخوان المتطرفين، فالاستقالة لم

تكن واردة. والمؤتمرون لم يقبلوها بالطبع لأنهم يعلمون أن ابن سعود لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بمعونة الله ثم بسيفه» يقصد أن المجتمعين لم ينتخبوا ولا عينوا ابن سعود، وبالتالي فلا يملكون حق عزله ولا قبول استقالته. وقد يكون هذا تفسيرًا ذكيًا ولكنه خاوي العقيدة وقد رأينا كيف كانت حجة الإخوان قوية في المؤتمر، الأمر الذي اضطر الملك إلى عقد اجتماع ضيق ليشرح وجهة نظره بعيدًا عن المزايدات التي تسيطر على الاجتماعات الموسعة، وقد دعمت موقف الإخوان جثث ضحايا الطيران المتناثرة في خيام المطيرين، والدولة عاجزة عن حمايتهم، أو حماية سيادتها على أراضيها، بل وتريد محاكمة الذين يصدون عدوان الإنجليز!

وليس صحيحا أن وجهة نظر الإخوان قد أخمدت في المؤتمر بالاستقالة الملكية، فقد دافعوا عن وجهة نظرهم بإفاضة واستحثهم الملك على الحديث والنقد، ونشرت أم القرى أقوالهم كاملة تقريبا، ولكن الذي أخمدها هم المؤرخون إياهم الذين ركزوا على قضية الأتيال والسيارات[1].. الخ وحذفوا الجزء الخاص بالجهاد والحصون ظنا منهم أنه يحرج تاريخ عبد العزيز!

والحقيقة أن المعارضة كانت تنطلق من نقطة صحيحة نظريا، ولكن في الاتجاه الخاطئ الذي سيجعلها تسقط، في النهاية، في كل ما حاولت أن تتهم به الملك، فهم الذين ضبطوا متلبسين بالدعم البريطاني وليس الملك..

ومن المعلومات التي تجمعت عن «ثورتهم» لابد أن نتصور أن منطقهم كان قويًا وحجتهم مقبولة لدى قواعدهم. فالمؤرخون يجمعون على أنها أخطر أزمة واجهت الدولة، وأن النظام كان مهددًا تهديدًا جديًا.. ويرى وهبه أنها «كانت من

---

(١) كما زعم محمد المانع..

أشد السنين في نجد إذ كادت أن تقع فتنة بين الإخوان من جهة، وبين الحكومة والحضر من جهة أخرى»!

«ومحمد أسد» يقدم صورة ثورة عامة: «كان بر نجد الفسيح يطن الآن كقفير النحل، وكان الرسل يتنقلون في الخفاء على هجنهم السريعة من قبيلة إلى أخرى، وكانت الاجتماعات السرية، بين الزعماء، تعقد عند الآبار القصية، وأخيرًا انفجر الهياج ضد ابن سعود إلى ثورة علنية ضمت كثيرًا من القبائل الأخرى، إلى جانب قبيلتي مطير وعتيبة. واعتصم الملك بالصبر، وحاول أن يتفهم الأمور، فأرسل الرسل إلى زعماء القبائل المعارضين، وجرب أن ينقاشهم بالمنطق والحجة، ولكن دون جدوى، وهكذا أصبحت أواسط الجزيرة العربية وقسمها الشمالي مسرحًا لحرب عصابات واسعة، واضطرب حبل الأمن العام المثالي، الذي كان يسود البلاد، وحلت محله الفوضى العامة في أنحاء نجد، واكتسحته عصابات الإخوان الثائرين، في جميع الجهات، مهاجمة القرى والقوافل والعشائر التي بقيت على إخلاصها للملك».

ويقول مؤلف «توحيد الجزيرة» إن الملك اطمأن على تطويق الحركة فتوجه للحجاز، ولكن ما أن أدار ظهره حتى استؤنفت الغارات الإخوانية على العراق، وتبعتها غارات الإنجليز، فاضطر للعودة إلى الرياض شبه متسلل بسبب الثورة العامة في المنطقة ما بين الحجاز إلى نجد.. بل وبحثت في أوساط الإخوان خطة لغزو الرياض ذاتها.. ويروي أنه في بعض المناطق التي وصل إليها الملك كان استقباله فاترًا، لأن الأهالي كانوا مع الإخوان أو يخشون الإخوان!..

اعتمدت الثورة على عنصرين:

منطلق صحيح مقبول لدى الجماهير العريضة، أقنع هذه الجماهير بأن

عقيدتها في خطر، وحركتها مهددة من الناحية المسلكية. ومن ثم فقد اقتنعت بأن «الخروج» مشروع. والثورة واجبة فرضا.

ولا يجوز الظن أو اتهام كل هؤلاء الذين خرجوا خلف الدويش وابن بجاد، بالغفلة أو الأحقاد أو الأطماع الشخصية، وهم الذين شكلوا بشهادة عبد العزيز «أنقى الحركات الإسلامية» ولم يبخلوا بدمهم لحظة واحدة في طاعة الإمام.

هؤلاء المجاهدون، لا يمكن أن يشقوا عصا الطاعة على إمامهم، إلا لسبب قوي، أخذوا بظاهره، وخفيت عنهم أبعاده الأخرى، أو كما قلنا، رفضوا الإقرار بوجود هذه الأبعاد. ولعل أصدق وصف هو ما قاله الملك الذي حاربهم وحاربوه «فئة تتعبد عن جهل».

إن الخلاف في جوهره، هو رفض الإخوان أن تقوم دولة عصرية بسيوف المؤمنين، تمسكهم بحرفيات التجربة الأولى، ومن الجانب الآخر عجز عبد العزيز والعلماء والفكر الإسلامي عن تجسيد هذه الشعارات وتلك المسلكية في قوانين ومؤسسات عصرية.. وهكذا بقدر ما كان الشعار الإخواني صحيحًا من الناحية النظرية بقدر ما كان يبدو مضحكًا وغريبًا من الناحية العملية، كذلك كانت مسلكية دولة عبد العزيز، فهي من ناحية تبدو ابتعادًا عن حرفية النصوص، ومن ناحية أخرى تبدو التطبيق الوحيد الممكن للمحافظة على دولة منتمية لهذه النصوص.. وهكذا اتفق النقيضان واصطدما في نفس الوقت. فعلى سبيل المثال اتفق الإخوان وعبد العزيز على استنكار المكوس أو الضرائب والجمارك من الناحية النظرية. وهذه الضرائب ظاهرة حديثة، قد تكون لها ضرورياتها، بل ومن الممكن تلمس فتوى بمشروعيتها، وهو ما أخذت به الدولة، ولكن لا سبيل إلى إنكار قوة حجة الذين رأوا فيها مخالفة لنظرة وقيم المجتمع الإسلامي، القائم على حرية العمل، حرية

التملك، حرية التجارة.. فمادام المالك أو التاجر يؤدي الزكاة أو حق المال، وما دام المستهلك يؤدي حق المجتمع، وهو العمل للقادر عليه، فليس للسلطة أن تتدخل بينهما بالمكوس.. والتحكم في الأسعار مرفوض أيضا أو قل مكروه، أو غريب عن الفكر الإسلامي، والنظام الإسلامي، والدولة السعودية لم تحاول فلسفة الأمر، أو الزعم بإسلاميته، بل أوردته تحت باب الضرورات التي تبيح المحظورات، وفعلا بعد أن تفجر النفط، ألغت الدولة المكوس والضرائب.

رأي الإخوان لم يكن خطأ في النص، بل في التطبيق، إذ كان يستحيل قيام دولة بدون موارد، أو من زكاة الشعب السعودي «وقتها». وموقف الدولة لم يكن خروجًا أو رفضًا للنص، ولكنه قبول وضع جديد يحتاج إلى «اجتهاد» أو قبول مالا ينطبق على النص الشائع، ولكنه ضروري لقيام الدولة المسلمة.. والحل الإخواني معروف وهو أن الدولة لا تحتاج لمثل هذه الموارد إذا استمرت في حالة الجهاد، فالفيء من غنائم الفتوحات يكفيها دخلا، والمجاهدون لا يرهقونها إنفاقًا.. أي أننا نعود لنقطة البدء: استمرار الثورة.. أم التوقف لبناء الدولة المسلمة؟

عبد العزيز رأى أن طاقة جيله قد وصلت إلى غايتها في هذه المرحلة، وأن الطوق البريطاني من حوله لا يمكن مواجهته بغارات الإخوان العادية مثلما حدث مع الهاشميين وحايل وبريدة.. فهذه إمبراطورية عظمى تملك البحر والجو والبر والله ﷻ قال وأعدوا لهم.. وقال ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة.. فهو بحاجة إلى وقفة لإعادة تشكيل قواته، وإعداد ما يستطيع.. تطوير حركة الإخوان إلى ما يتفق ومتطلبات المرحلة الجديدة.. فهو لم يكن راغبا في تصفية الثورة ولا التخلص من الإخوان، بل في حماية مكاسب الثورة المرحلية، باكتشاف حلول إسلامية لمتطلبات تلك المرحلة.

ونفس الخلاف نجده في حكاية التجارة مع الكويت، فسنجد نفس التناقض بين صحة النص وخطأ التطبيق. فالإخوان تساءلوا عندما منعت حكومتهم التجارة مع الكويت، لأن حكومة الكويت كانت تستأثر بالضرائب التي يتحملها في النهاية المستهلكون في نجد. قال الإخوان: إذا كان أهل الكويت كفارًا وجبت مقاتلتهم. وإذا كانوا مسلمين فلماذا نقاطعهم؟..

وهو سؤال سليم ومحرج بمفهوم دار الإسلام ودار الحرب. ولكن نقطة الخطأ فيه، هو رفضه «المنزلة بين المنزلتين»[1]، رفضه الدخول في علاقات مع العالم الإسلامي، وضرورة التعامل مع دول إسلامية لا تسلك السلوك الإسلامي الصحيح، ولكن لا يمكن غزوها. والسعودية إذا كانت تريد البقاء كدولة، لا تستطيع أن تحارب جميع «الكفار» ولا كل من «يليها من المشركين».

وهكذا نعود إلى نفس النقطة، هل المطلوب قيام الدولة واستمرارها ومن ثم عليها أن تقبل قواعد المجتمع الدولي الكافر، أو استمرار الثورة، برفض القوانين الدولية والحدود.. الخ واستمرار زحف جند الله المنصورة والخيل العتاق المشهورة حتى تصل إلى المحيط الذي لا تعلم أن وراءه أرضا؟ وعندئذ لا يبالي أمير المؤمنين أين ستمطر السحابة فسيأتيه خراجها؟!

ونفس الشيء عن رفض السفر إلى بريطانيا أو مصر.. هل تستمر الثورة في الهجوم لنشر قيمها على مساحات جديدة من الأرض والسكان، أي أن تبقى في حالة هجوم مستمرة، كأفضل وسيلة للدفاع عن نفسها، ضد من يحاولون خنقها في

---

(١) انظر هذه الحيرة في أوضح صورها في رسالة الدويش إلى الأمير سعود بن عبد العزيز: «وهكذا أصبحنا لا مسلمين نحارب الكفار ولا عربا بدوا يغير بعضنا على بعض ونعيش على ما ينهبه كل منا من الآخر فمنعتنا من ديننا ودنيانا»!

مهدها، أو كما قال تشرشل «كسر البيض الثوري، في موطنه قبل أن يفقس وتنتشر أفراخه في كل مكان» هل تستمر الثورة، فتجدد نفسها، وتكتشف الحل الثوري أو الإسلامي لمشكلة التكنولوجيا وغيرها؟.. هل تستمر الحالة الثورية، لكي لا تتحول الثورة إلى نظام ودولة وجهاز قمع داخلي.. أو ملك عضوض؟!

أم يكتفي ببناء النظام الثوري في بلد واحد، وتفويت الفرصة على العدو الذي يريد استدراجها في معارك تنهكها وتستنزفها..؟

هو خلاف قديم إذن، وفي كل مرة كان يحسم لصالح الحضارة التي تختار بناء الدولة في إطار السيادة التي حققتها الحالة الثورية. أما حجم تلك السيادة، ونسبة ما تحتفظ به من مبادئ الثورة، فتختلف، باختلاف الطاقة التي أتت بها الثورة، ونوعية القيادة.. وبالتالي حجم النصر الذي تحقق أثناء الثورة.. وظروف هذا النصر.. وما يتبقى من «العظمة الداخلية»!

أما عن معارضة الإخوان لمرور الطائرات البريطانية في سماء السعودية، فهو مطلب «ثوري» حتى يومنا هذا، وإن كان تعنتا في ذلك الوقت، لأن الإخوان لم يفرقوا بين الطيران الحربي والمدني.. وأني لهم أن يعرفوا الفرق بين «آياتا» والسلاح الجوي الملكي البريطاني(١)!

أما معارضتهم لبناء الحصون على حدود العراق، فقد أوضحنا أن الملك شاركهم الرأي، في مخالفة ذلك للمعاهدات، وخطره على أمن السعودية، ولكن اختلفا على أسلوب المعالجة.. الدويش والإخوان عالجوه على طريقة من رأي منكم منكرًا فليغيره.. وباعتبارهم أصحاب «أقوى الإيمان» فقد غيروه بالسيف!

---

(١) وبعد نصف قرن ستتهم مصر، السعودية بأنها سمحت للطيران الروسي بعبور أجوائها فترد الرياض على «الإخوان» في القاهرة بأنه طيران مدني!

ودعوا لحسم الموقف باجتياح العراق وتحريره من حكم الكفرة والمرتدين.. أما الملك فتصرف بعقلية رجل الدولة المسئول الذي يعرف مقدار الفارق بين قدراته العسكرية، وقدرات بريطانيا، ومن ثم فمن الخطأ القول بأنه: «كان على الملك أن يوازن بين تطرف الإخوان والعلاقة مع بريطانيا، وإخراج دولته من الحيز الإقليمي إلى المجال الدولي»[1].

هذا اللغو من المستضعفين معناه أن الملك اختار بريطانيا وصداقتها، والأبهة الدولية[2] على الإخوان، لو كان هذا هو الخيار لاختار عبد العزيز الإخوان بالطبع، ولكن الخيار كان أكبر وأعمق وأخطر، كان في أبسط صورة مواجهة الإخوان أو الحرب مع بريطانيا وليس صداقتها أو خسارة هذه الصداقة.. وفي العمق كان:

الثورة أم الدولة..

من يحكم؟ جيش الثورة الدائمة.. أم الإطارات القادرة على بناء الدولة؟!

من يقرر؟

الذين يعتمدون على تفسيرات جزئية لنصوص تفقد قيمتها، إذا لم تنطلق من وعي إسلامي ناضج ومناخ إسلامي صحيح، تفسيرات تعرض كل مكاسب المرحلة للضياع بطرحها في مغامرات محتومة الخسارة ضد عدو ساحق التفوق، وقبل امتلاك الوسائل المادية لمواجهته، ودون دليل على توفر الطاقة الروحية القادرة على قهر هذا التفوق..

وعلماء هربوا من مسئولية الاجتهاد، ودراسة حقائق العصر، فاحتموا، أو دفنوا رؤوسهم في رمل «سد الذريعة» أي تحريم ما لا يعرفون إن كان ضارًا

---

(١) كتاب «الإصلاح الاجتماعي».

(٢) بالعكس! عبد العزيز رفض الانضمام إلى عصبة الأمم!

أو مفيدًا، لأن منع الضرر المحتمل مقدم على الفائدة المرجوة. وهي فلسفة عاجزة من عصور التخلف والانكماش ولا تصلح لبعث حضارة أو بناء أمة..

أو أن يثيروا أعصاب المسلمين بحصر المطالب والإصلاح في «التوحيد» وكأنهم اكتشفوا الإسلام[١]..

هل تترك الدولة لهؤلاء أم يقرر مصيرها، الذين يطرحون اجتهادات وإن باعد التطبيق بينها وبين الصورة المثالية للمجتمع الإسلامي، أو لتصور الحركة الإسلامية، إلا أنها على الأقل تعطي العرب والمسلمين أول دولة تلتزم قانونيا وفلسفيا بالإسلام..

وتسأل الله أن يمن عليها بعلماء يشرعون الإسلام في قوانين تنظم الحرب وحركة المرور! فيبقى الباب مفتوحًا لاجتهاد آخر أكبر وربما أكثر نجاحًا؟!

ربما لو لم يكن هناك العنصر البريطاني الذي كان يتعجل الانفجار، ربما أمكن الحوار داخليًا، حتى ولو بعنف، ولكن في إطار الوحدة، ومع بقاء كل الأطراف، وإن تعدلت أحجامها ونسبة تأثيرها في صنع القرار.

على أية حال ليس من حقنا نحن الذين لم نساهم في الثورة، ولا شاركنا في مسئولية القرار التاريخي بتصفيتها، لا يجوز لنا أن نوزع الأحكام والاتهامات، وندين رجالا لأنهم أرادوا الاستمرار في الجهاد، ولأنهم تخوفوا من تحول الرسالة إلى ملك، وغفر الله لمحمد أسد، فقد بعثه الملك ليرصد موارد هؤلاء المتمردين، ولمس بنفسه كيف كان الإنجليز يقدمون الدعم لقيادتهم، ولكنه لم يستطع أن

---

(١) والغريب أن هذه الفكرة قد «تحنطت» وفقدت مفهومها فرددها الإخوان في مصر وباكستان. «الحاكمية لله» حتى قضى عليهم الحاكمون، وتمزقت وحدة الباكستانيين وهم يدعونهم لفهم معنى «لا إله إلا الله»!

يخفي حسرته على قواعدهم، وهو يسمع تسبيحهم وتكبيرهم في الليل مقتنعين بأنهم يموتون في سبيل الله، وضد الانحراف في الدعوة.

إنهم على أسوأ الأحوال مثل الخوارج، الذين كانوا من أتقى الناس وأكثرهم عبادة، حتى قيل إنه ما من خارجي قتله أو صلبه الإمام الأوزبيبه الصلاة في جبهته.

ولكنهم أخطأوا الاجتهاد فنالهم سيف الدولة الإسلامية. ولا يجوز أن نحرم هذا الجيل الخالد في تاريخ العرب، من النعمة التي منحها لنا الإسلام، وهي: للمجتهد إن أخطأ أجر وإن أصاب أجران، ولا نملك أن نحرمه.

لقد كانت فتنة بين طائفتين من المؤمنين، لم يجدا من يصلح بينهما، فعسى أن تكون إحداهما قد فازت بأجر، وفازت الأخرى بالأجرين(١)..

فالعنصر الأول الذي سبب انفجار الثورة وشمولها، هو منطلقاتها التي -كما قلنا- صحيحة نظريا، خاطئة، أو على الأقل قاصرة، في التطبيق.

أما العنصر الثاني، فهو القناعة بالزعماء.. ومن المخزي طبعًا أن تنهال الأقلام التي حاولت أن تكون موضوعية مع عبد العزيز ابن رشيد، والشريف حسين بل والأدريسي... تنهال تجريحًا على أبطال الوحدة السعودية، وزعماء هذا البعث الحلم، الذي مازالت قوى عديدة تحاول إعادته عبثًا!..

حافظ وهبه حضر حفل تسليم فيصل الدويش المهزوم الأسير، وسجل الفارق بين دخوله القصر الملكي، يوم كان قائدًا من أكبر قادة جيش التحرير

---

(١) لم نفهم ولا نقبل اختيار مؤلف «الجزيرة تتوحد» الآية الكريمة: «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب» ليضعها على رأس فصل «معركة السبله».

لا والله ما كان في موقعة السبلة، من يجوز رميه بالكفر.. وإنما هم كما قال الله ﷻ واستشهد على رضي الله عنه بعد موقعة الجمل: «ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين» سورة الحجر.

ولاحظ أن جريدة أم القرى فيما أذاعته عن الموقعة لم تستخدم كلمة الكفر أو الكفرة. ولا الملك قالها في أي بيان له. ولو حكم عليهم بالردة لما أعفاهم من الموت.

السعودي، يحيط به حرس من مائة وخمسين مسلحًا، له منزلة عظمى في نفوس أهل الرياض، وعلمائها وسلطان نجد على رأسهم.. وبين أن يسجله فقال في رده على عتاب الملك: «لقد فررنا من وجهك إلى الكفار، فحملونا إليك في طيارة من طياراتهم[١]».

والفارق بين الحالتين، لا يحتاج لبلاغة في تصويره، ولا عبقرية في تفسيره، ولكن وهبه يتناسى السؤال: وهو لماذا كان الملك والعلماء وأهل الرياض ينزلون فيصل الدويش، هذه المنزلة الخاصة؟! هل كاتن ذلك خوفًا منه..؟ وقد ثار عليهم، فما خافوه، بل جاءوا به أو جيء به إليهم مكبلا بعدما هزموه؟..

وما هو بالملك ولا الأمير.. إنما كانت منزلته لجهاده، ومكانته في خدمة الدعوة، وبناء الدولة، فلما خرج عن الطاعة، فقد مزاياها، ولعل بعضهم يقول إن «فيصل الدويش» بدلا من أن يقرع على ترك هذا «النعيم».. أجدر أن يعجب به، أو يؤسف له إذ ضحى واعيا بكل هذه المكانة، وبكل ما كان يناله، في سبيل الموقف الذي آمن به. وإذا كنا قد عجزنا عن التضحية، فلا معنى للحقد على من استطاعوها، فنغمطهم حقهم، ونكون كالذين قيل فيهم: لا يعملون ويكرهون أن يعمل الناس.

ولكن الشيخ وهبه، لا يتعفف عن شق الصدور للكشف عن القلوب، فيتطوع بالشهادة، بأن «كل من يعرف الدويش في الجاهلية، ويعرف أخلاقه الشخصية يجزم بأنه منافق في دينه، وأن ما يظهره من الشدة والغلو مصطنع»!

لا حول ولا قوة إلا بالله، هكذا يزل العلماءً وما الإسلام يا شيخنا إن لم يكن لهداية هؤلاء وتغيير أخلاق الجاهلية، فيئد عمر بن الخطاب ﵁ ابنته في الجاهلية،

---

(١) وأخيرًا تعامل الدويش مع تكنولوجيا الغرب في أحدث صورها!

ويبكي لبكاء طفل مجهول من أطفال المسلمين.. هل يمكن أن يحكم بنفاق المسلم، استنادًا إلى تاريخه في الجاهلية؟!..

وماذا على فيصل الدويش، إن كان كما نقل الزركلي عن مخطوطه خالد الفرج «أنه عندما يسب يقال له يا ابن الشقحاء، وهي أمه من آل حثيلين[1]، من العجمان. كانت زوجة راكان بن حثيلين. فقبض عليه الأتراك، وحبسوه في الاستانة. فتزوجها في غيابه سلطان الدويش فأولدها فيصلا، وهذه الزيجة كانت شائعة ومألوفة عند البدو، لا يأنفون منها قبل انتشار الدين فيهم».

ولكن انتشار الدين في الحضر، لم يجعلهم يأنفون من التنابذ بالألقاب وذكر الجاهلية!.. وهذا داء قديم فعندما انحاز عمرو بن العاص إلى معاوية، اتهم بأن أمه قالت «أتاني عشرة ليلتها، فغلب عليه شبه العاص بن وائل فنسب إليه.. الخ» ما على عمرو فاتح مصر إن كان هذا سلوك أمه في الجاهلية، ولا على فيصل الدويش، فالإسلام يحكم بطلاق الغائب زوجها غيبة منقطعة، وأي غيبة أبعد أملا من ذلك البدوي المسجون في اسطمبول التي لا يعود منها الأئمة!..

بل أمتد تشهير خالد الفرج إلى القبيلة كلها فقال: «إن قبائل مطير (قبيلة الدويش) كانوا دائما أعداء آل سعود، هم أول من تلقى طوسون باشا في الحجاز، ونقل حملته إلى القصيم، وانضموا إلى حملة إبراهيم باشا على الدرعية، وقاتلوا في

(١) حثليين معناه كرشين أو بطنين دلالة على ضخامة البطن، وربما كان من الدلائل على عظمة التغيير الذي أحدثه ابن سعود في هؤلاء البدو، تأمل أسماءهم ومدى الجفوة فيها وبعدها عن الأسماء الإسلامية. ولا عجب أن رسول الله ﷺ، كان يغير أسماءهم بعد الإسلام، ويوصيهم بأن يحسنوا تسمية أبناءهم.. وهذا بعض من أسماء زعمائهم: خنيفر بن طويلة. خميس بن منيخر. مشل بن برغش. ضيدان بن حثيلين وهو زعيم العجمان في موقعة السبلة وبعده جاء «أبي الكلاب» بن حثيلين.

صفوفه. ثم انضموا لخورشيد باشا، وأخيرًا انضموا إلى ابن رشيد إلى أن ضربهم ابن سعود في وقعة جولبن».

أما نحن فنقول إنه مهما قيل في الدويش وبطولات الدويش، وجهاده في سبيل الحركة، وبناء الدولة السعودية، وهيبته التي أرعبت الأعداء، وأعزت المؤمنين، وجعلت فيلبي يسجل مفتخرًا فوزه بمقابلته «فيصل بن الدويش الإخواني المهاب، قائد الأرطاوية، الذي أراه الآن لأول مرة منذ أن قدموني له في ديسمبر الماضي. وكذلك فيصل بن حشر» ويقول: «فيصل بن حشر يأتي في المرتبة الثانية بعد فيصل الجبار (الدويش) وكان على قدر كبير من الفهم والدبلوماسية، وكان ابن سعود يتبسط أمامه ويشرح أفكاره التي لا يفهمهما «فيصل الدويش». وهذا يفسر استمرار فيصل بن حشر على ولائه لابن سعود عندما وقعت الفتنة».

وهو فيصل الدويش الذي عندما جاء إلى معسكر ابن سعود عشية معركة السبلة يقول مترجم الملك الذي تطوع بنعته بالكفر[١]، يقول: «كان كل شخص في معسكر الملك، حريصا إلى إلقاء نظرة على الرجل العظيم، فرغم أن الدويش كان عدونا، إلا إنه كان له سحره الخاص، الذي لا يفوقه إلا سحر الملك شخصيًا، فشجاعته وصبره وجلده كانت أسطورية ١٣م وفدائيته كانت تثير حماسة لا نظير لها بين جنوده».

هو فيصل الدويش الذي قيلت في مدحه القصائد، وسمي وزير الإمام.. قال بن عثيمين في فتح حائل ١٣٤٠-١٩٢١:

«ومـا أنسى لا أنـس ابن سلطان فيصلا
لـه مـا بـقـي مـنـي الـثـنـاء المنمنم

---

(١) إذ لا يعقل أنه كان يقصد جيش الملك!

أخا الحرب إن عضت به الحرب لم يكن
جـزوعـا ولا مـن مـسـهـا يـتـألـم
وزيـر إمـام المسلمين الـذي لـه..
مـشـاهـد فيها معطس الـفـسـق يرغم
إذا نـاكـث أو مـارق مـرقـت به
عـن الـديـن نـفـس لـلـشـقـاوة تـرأم
سـمـا مـشـمـعـلا فـيـصـل نـحـو داره
يـخـوض بـحـارا بـعـض خلجانها دم
بـأمـر إمـام الـمـسـلـمـيـن ورأيـه
ولا عـز إلا بـالإمـامـة يـعـصـم»[1]

والبيت الأخير يدل على أن التوجس من تضخم نفوذ الدويش كان واردا، ولذلك حرص الشاعر على تأكيد طاعة الإمام وإن مصدر العزة منه، ونفس التوجس نراه في نصح الشيخ محمد بن عثمان الشاوي أحد العلماء الموقعين على وثيقة الرياض الشهيرة، وواعظ الغطغط والحملة الحجازية، عندما قال في قصيدة فتح مكة:

هـمـو مـعـشـر الإخـوان دام سـرورهـم
ولا سـر مـن يـرمـيـهـم بـالـمـعـائـب

---

(١) وبعد ٩ سنوات لا أكثر، سيقول نفس الشاعر مهنئا الملك بالقضاء على الدويش وأصحابه

«هـم بدلـوا نعمـاك كفـرًا وبـوءوا   نفوسـهم دار البـوار فمـا أغبـى!
فمـن سـل سـيف البغـي فاجعلـه نسـكه   ومـن شـب نـارا فأرمـه وسـط مـا شـبا
ومـن تـاب منهـم فاعـف عنـه تفضـلا   فحسـبهم مـا قـد لقـوا منكـم حسـبا»

لهم أسوة في فعل صحب نبيهم وهمتهم مصروفة في العواقب

فياربي يا منان يا من له البقاء ويا خير من يرجى لنيل المآرب

أعزهم من الأعجاب مع كل فتنة وثبتهو يا رب يا خير واهب

وهذا الذي هرب طفلا من مكة فزعًا من جيش التوحيد الذي يقوده الإخوان هل يحق له أن يصف الدويش «بالمجرم»؟! ورأس البلاء والشر والفتنة..

يا للعار!

مهما قيل في مجد الدويش الإسلامي، فلن يكون ذلك فوق حقه، وبنفس اليقين لا يمكن أن نتهم بالمغالاة، إذا قلنا إنه يدين بذلك كله للدعوة، فبدونها وبدون الانضمام للحركة تحت راية عبد العزيز، لم يكن لفيصل الدويش من حظ في التاريخ أكثر من عشرات «فيصل الدويش» الذين عبروا في حياة مطير ونجد وبنفس الاسم ومن نفس العائلة، لا يكادون يذكرون إلا بفضل فيصل هذا الذي «دين». فقد قاتل فيصل الدويش عبد العزيز أكثر من مرة قبل أن ينضم إلى «الهجر» فهزمه عبد العزيز..

أبطال التاريخ، هم الرجال الأفذاذ، الذين تتجلى عبقريتهم في القدرة على اكتشاف اتجاه التاريخ، ومن ثم يربطون مصيرهم بالتيار الصاعد، فيحملهم إلى القمة، إذ تتجلى قيم الحركة في سلوكهم، وتتألق مزاياهم في نور الحركة ومبادئها.. خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام.. نعم إذا أسلموا ذكرت فضائلهم في الجاهلية..

وربما كان هناك من يفوقهم في الصفات الفردية، ولكنه يخطئ موقعه من حركة التاريخ، فيهوي مع القوى الزائلة ويدفن تحت أنقاضها..

وفي صفحات ابن بشر أكثر من فيصل الدويش، بعضهم قاتل مع الأئمة وبعضهم قاتل الأئمة، ولكن فيصلا هذا وحده جاء في اللحظة المناسبة، وتعلق براية ابن سعود فلمع وتألق، ثم اصطدم به فاحترق، كما تحترق الشهب باصطدامها بالكواكب أو الشموس.

ولا ننفي الدوافع الشخصية لهذا البدوي، وهي في حد ذاتها ليست عيبًا، والنبي صلوات الله عليه، وعد سراقة بأساور كسرى.. والله ﷻ يمن على الذين استضعفوا ويجعلهم الوارثين.. المهم أن تكون هذه الدوافع مرتبطة بهدف صالح وغاية عامة.

أما ابن بجاد فقد أجمعت كل الروايات المتزنة على صلاحه وتقواه[1]،

---

(١) قال لي الأمير مساعد بن عبد الرحمن أخو الملك عبد العزيز «ابن حميد رجل مخلص لمبدئه، ولما يؤمن به. وربما كان الدويش له أطماعه ولكن ليس إلى الحد الذي يطمع فيه بالملك، والدويش كان لا يفي بوعوده. وأنا لا أبرئ ابن بجاد من مسئولية ما حدث ولكن كان تصرفه عن عقيدة ومبدأ، ولا أؤيد من يتهمه بالتطلع للملك وربما استغله أولاد عمه والمنتفعون منه، أما هو فكان خالص العقيدة لا يكف عن تلاوة القرآن طوال سجنه، ولما جيء بالدويش إلى السجن رفض أن يتحدث معه لأن الدويش تعامل أو لجأ إلى الإنجليز.

وفسر الأمير قسوة الملك أو بالأحرى رفضه العفو عن ابن بجاد كما فعل مع الدويش الجريح، بأن ابن بجاد هو الزعيم الحقيقي، وهو الذي يتزعم أكبر قوة وهي قبيلة عتيبة، والغطغط أقوى وأهم من الأرطاوية. ولذلك كان الملك لا يخشى انتقاض الدويش ولكنه يحسب حساب ابن بجاد وعتيبة ومن هنا كانت سلامة الدولة تتطلب سجن ابن بجاد.

لقاء مع الأمير بقصره في الرياض ١٠ أيار (مايو) ١٩٨١–٧ رجب ١٤٠١.

أما «محمد المانع» مترجم الملك وأرامكو فقد أعطي القضية نكهة انتهازية خاصة إذ قال: «إن الملك طلب من ابن بجاد أن يقابله في شقرا.. وتوجه الملك إلى هناك وانتظرنا لنرى إذا كان سيأتي فعلا. وابن بجاد من ناحية الأتباع أقوى بكثير من الدويش، ولكن الملك كان يعتبر الدويش أخطر بكثير لأنه كان متوقد الذكاء على نحو غير عادي. فرغم شجاعة وصلابة ابن بجاد التي لا جدال فيهما. فإنه لم يعرف عنه الذكاء. ولذا سقط ابن بجاد في الشرك (!) وجاء إلى شقرا بخمسين من رجاله متوقعًا نفس المعاملة التي لاقاها الدويش، ولكن الملك لم يكن محاصرًا هذه المرة (سنرى تفسير ذلك) فقال له الملك: أنت لا تساوي شيئا.. الدويش هو صاحب الرأي والذكاء ثم أرسل به في الأغلال إلى الرياض».

وهي رواية تجرد الملك من فضل العفو عن الدويش في المرة الأولى، إذ زعم أنه عفا عنه لأنه كان محاصرًا من فرسان الدويش!

=

وبعده عن التطلعات الشخصية، وهو الذي حمل القسط الأكبر في ما جرى فهو الذي انسحب من حصار جدة، وقاد الحملة ضد عبد العزيز، وهو الذي أثار الحرب بإعلانه الجهاد ضد العراق، وغارته على أهالي القصيم، وهو الذي ورط الدويش في القتال كما يقول آل الدويش اليوم، ولكنه ما أن وقعت الهزيمة الأولى، حتى خرج من الحرب، وطلب الاستسلام من الإمام، فأمره بأن يتوجه إلى شقرا ويسلم نفسه، فانصاع لما أمر به وكأنه فلاح مطلوب للتجنيد، مؤثرا بذلك إنهاء المأساة عند هذا الحد، فلا يتورط أي جانب في أخطاء أكثر. والله أعلم بالنوايا، ولكن الحقيقة المؤكدة أن ابن بجاد باستسلامه هذا نجا من المشاركة في الفتنة الثانية، وأهم من ذلك نجا من شبهة التعاون مع المشركين والإنجليز، ولا عار عليه أن استسلم للإمام، فذلك أشرف لدينه ودنياه من أن يلجأ إلى الإنجليز فيأتون به مخفورا..

كان عبد العزيز يعرف صلابة ابن بجاد، ومكانته، ومن ثم رأى أن المصلحة العليا تتطلب الإجراء الذي اتخذه ضده ١٤م.

= كما أنها تخالف المنطق، فالخطر لم يكن من ذكاء الدويش، بل من أتباع ابن بجاد وهذا ما جعل رجل الدولة لا يخاطر بالإفراج عنه.

ونقل جون حبيب عن ماجد بن خثيلة وعبد الرحمن بن عبد الله آل سعود إن ابن بجاد كان يحركه الوازع الديني، وكان قلقًا من الاتجاه إلى «التحديث» والارتباط بالنصارى أما الدويش فكانت له أهدافه السياسية وطموحاته في السلطة.

وقد قالت أم القرى «إن الملك خاف على حياة ابن بجاد إذا دخل المعسكر الملكي، ولذلك أمره بالتوجه إلى الرياض أو شقرا..» ١٢/ ٤/ ١٩٢٩ –شوال ١٣٤٧. أما عن خالد بن لؤي، فقد كان همه الأكبر هو القضاء على عرش الحسين وإخراجه هو وأولاده من الحجاز. ويمكن القول إن علاقات آل مع آل سعود أعرق وأوثق، كما أن اتصاله بالعالم الخارجي، كان أكبر. ولذلك كان أكثر اقتناعا بمنطق الدولة. فظل على ولائه وإخلاصه وطاعته حتى النهاية. ولم ينضم لرفاق السلاح، رغم حدة معارضته في حصار جدة كما أشرنا في موقعه.

وقد توفي تحت راية عبد العزيز في أبها في نهاية عام ١٩٣٢–١٣٥١. وقال عنه فيلبي «كان رجلًا عظيمًا بكل معنى الكلمة، فهو متزمت متعصب، خادم مخلص لمولاه» وقد تولى ابنه بعده إمارة خرمة.

وقبل أن ننتقل إلى مأساة هاملت نجد، يجب أن نذكر موقف عبد العزيز الذي عانى وحده، كل أبعاد المأساة.. وكان مهددًا في ملكه وحياته، وكل ما بناه. ومع ذلك كان يمنع -كما أشرنا -مهاجمة الإخوان في مجلسه. فليت الذين يخيل لهم أنهم يتقربون لعبد العزيز بسبب الإخوان، يتأملون موقف ابن سعود، ويعرفون أنهم بأسلوبهم هذا يشككون في أسس التجربة كلها، ويسدون الطريق أمام أية محاولة للبحث عن الحل الإسلامي. وهذه إحدى رسائل عبد العزيز كتبها في عنفوان الحرب بعد معركة السبلة، والدماء لم تجف بعد، ولكن نلاحظ فيها محاولته حصر الاعتراض في القيادات الثائرة.. وتلمس العذر «للذين يتعبدون عن جهل».. فلعل الذين «يتقربون عن جهل» يتعظون. قال[١]: «وبعد، فنعرفكم أنه من مدة ثلاث سنين، وبعض هؤلاء الإخوان وخاصة أهل الغطغط والدويش، **وقسم من الغلاة الذين يتشددون بالدين، ويصير معهم تعصبات وأمور مخالفة لأمر الشرع، وقد كانوا مغرورين، ومعهم بعض المهاجرين من البادية، وهم يرون أن أمرهم حق لأجل محبتهم للدين**. ولكن والحمد لله انكشف الغطاء عن كثير من المسلمين، ورأوا أن هذه الجماعة بين فرقتين: **إحداهما تتعبد عن جهل**، والأخرى لها بعض المقاصد السيئة كطمع وغيره، وتجعل الدين لها حجة، وبهذه الأيام بعد رجوعنا جمعت أهل نجد مع علمائهم وقرروا ما قد بلغكم. والقصد من ذلك الكشف عن الحقيقة لأغلب الناس، وتبين أن **هؤلاء الغلاة ليسوا على حق**..

---

(١) أصل هذه الرسالة أثبته حافظ وهبه عن كتاب موجه له شخصيا من الملك عبد العزيز ولكن «أمانة» المؤرخين العرب، اقتضت حذف الإشارة إلى حافظ وهبه. الذي حال «تواضعه» بدوره دون تعريفنا هل كانت كتابًا دوريًا كما يقول حاسدوه، أم أختصه بها ابن سعود؟!

ثم بعد ذلك أكثرنا لهم النصائح والدعوة لأجل براءة الذمة عند الله، ثم النصح للرعية، ولكن، لم يفد ذلك، فاجتمعوا هذه الأيام، وأشاعوا **عند أهل نجد أنهم غازون، وأن قصدهم القصور وأهل القصور التي في حدود العراق، يريدون بذلك خديعة أهل الحق،** وبعد ذلك تبين أمرهم أنه فاسد، وأخذوا بعض الرعايا، فلما تحقق ذلك عند المسلمين وثبوا وثبة رجل واحد، جزعًا من أمرهم، واجتمعوا لوضع حد حازم لهذه الأمور، فلما تكامل جمعهم، دعوناهم لتحكيم الشريعة في جميع أفعالهم. وأبوا عن ذلك.

ثم بعد ذلك أرسلنا لهم الشيخ عبد الله العنقري، والشيخ أبا حبيب ودعوهم فلم يقبلوا، فلما رأينا ما بهم من الفساد وعدم الامتثال للشريعة والولاية، استعنا بالله عليهم، وأمرنا المسلمين يمشون إليهم، والحمد لله أخذهم الله وقتل منهم جملة، والمسلمون من فضل الله لم يصابوا إلا بخسارة قليلة جدًا تعد بالأصابع، وبعد ذلك رجعوا وطلبوا العفو، **وتبين للقوم الذين معهم أنهم ضلوا الطريق،** وجميع من كان معهم وسلم من القتل عفونا عنه إلا الدويش وابن حميد ما أعطيناهم إلا بتحكيم الشريعة فيهما لأنهما أساس الفساد، والدويش جريح، الله أعلم أنه يموت أو يحيا، وأيضا قبلوا تحكيم الشريعة فيهم لأجل أمرين: الأول الحمد لله، تركهم الناس، لأن منهم من قتل ومنهم من زبن المسلمين وعفونا عنه، والثاني أنهم ليس لهم ملجأ. **والحقيقة أننا ما كنا نحب أن يصير بين المسلمين قتل رجل واحد،** ولكن امتثالا لأمر الله في قتال الباغين والسعي وراء راحة المسلمين أجبرنا على ذلك والعاقبة من فضل الله حميدة للإسلام والمسلمين.

الآن والحمد لله أهل نجد مسرورون ومرتاحون، العارف منهم استراح، وحصل له مقصودة، **والجاهل،** ذل وبطل مقصودة، وبموجب ذلك أحببنا تعريفكم.

٢٢ شوال ١٣٤٧ -إبريل ١٩٢٩.

والرسالة وإن كانت متأثرة بالطبع، بالظرف الساخن، حيث الحرب مستمرة، ولم تنته كما يطمئن ابن سعود سفراءه، أو كما كان الظن بإصابة الدويش. إلا أنها تؤكد:

- الطبيعة العقائدية للخلاف، الذي أثاره جناح متطرف «من الغلاة المتشددين في الدين الذين يتعبدون عن جهل».

- القواعد انضمت عن «جهل» وتدين أو محبة في الدين.

- ولأنه خلاف أيدلوجي يعتمد على إثارة عاطفة أو تدين الجماهير فقد حرصت القيادة على الحوار والتوعية.

- أراد زعماء التمرد أن يعطوا الحركة طابع الجهاد بالمناداة بغزو العراق وهدم القصور هناك. ولكن ابن سعود أثبت عليهم تهمة «الخروج» بغارة ابن حميد على أهل القصيم «فأخذوا بعض الرعايا». وهذا ما فعله علي بن أبي طالب مع الخوارج، امتنع عن قتالهم، حتى قطعوا الطريق وقتلوا مسلما وزوجته فقاتلهم.

والتقى الصفان

ارتكب الإخوان الخطيئة المحتومة، التي ينتظرها ابن سعود، إذ نهبوا تجار القصيم[١] كما هاجموا قوات ابن جلوي. وكانت تلك هي الإشارة التي ينتظرها ابن سعود. لأن غزوات ابن بجاد والدويش ضد الكفار الإنجليز، الحاكمين والمتحكمين في العراق والكويت[٢] كانت في نظر الإخوان عملا إسلاميا وطنيا يصعب رفضه أو إدانته من الذين حاربوا حفيد النبي. مع أن الحجاز كان مستقلا، فلماذا يمنعون من مقاتلة ابنه في العراق، الذي ولته امرأة إنجليزية على العرش؟! ولماذا يمنعون من مهاجمة الكويت.. وحكامها هم من تعرفهم البادية وسيطرة الإنجليز عليهم لا تحتاج إلى دليل؟! وفوق هذا كله، فالإنجليز هم الذين بدأوا التحرش، وهم الذين لم يحترموا معاهدتهم مع عبد العزيز، وهم الذين لم يحترموا سيادته ولا حرمة بلاده، فضربوا «الهجر» بالقنابل وهدموا المساجد[٣]... الخ.

إذا كان عبد العزيز يراعي الإنجليز، فإن الإخوان لا يخافون إلا الله، بل وقهروا الإنجليز. ألم يدمروا المخفر في بصية؟ ألم يسقطوا طائرة؟! إياك نعبد

---

(١) قافلة ابن شريدة وكانت في طريقها من بريدة إلى دمشق، وقتلوا رجال القافلة ونهبوها. وكان الملك على أهبة السفر للحجاز، بعد مؤتمر الرياض المشهور «فألغى السفر وبدأ الإعداد للحرب».

(٢) هنا يحاول غلوب أن يدعي مساعدة ابن سعود، بشكل غير مباشر، فحتى غلوب على فجوره لم يستطع أن يبلغ في الادعاء حد الزعم بإنقاذ عرش ابن سعود بالدعم العسكري الجوي!.. بل كل ما قاله هو: «ومن هنا نستطيع **ادعاء أننا بشكل غير مباشر قد ساعدنا ابن سعود في كشف أهداف الإخوان،** عندما منعناهم من غزو العراق، فاضطروا إلى مهاجمة قبائل نجد، مما جردهم من الدافع الديني».

(٣) في الهجوم على اللصافة دمرات الطائرات البريطانية «الهجرة» هناك والمسجد وعدة بيوت.

وإياك نستعين وليدبر ابن سعود أمور الدنيا، وليترك الجهاد للذين شموا «هبوب الجنة».. وإذا كانت هناك اعتبارات دولية تقيد حركة ابن سعود، فإنهم لا يطالبونه لا بإعلان التأييد ولا الدعم، فقط يترك «جند الله» «يجاهدون» الذين يلونهم من الكفار في سبيل الله والوطن! فأما الشهادة، وأما النصر الذي سيضيف إلى ملك ابن سعود. أما هم فلا يبغون إلا الجنة التي هبت هبوبها من ناحية المنتفق والبصية والكويت..

ومثل هذا المنطق كان موجودا حتى داخل بلاط الملك، وإن اتخذ تعبيرات غامضة، ولو سارع عبد العزيز بضرب الإخوان من الخلف وهم «يغزون» في بلاد الكفرية «العراق» «.. لبقت تلك الأسئلة حية في ضمير التاريخ ومسامعه. ولذلك لم يفعل. بل انتظر حتى هاجموا «المتدينة» من تجار القصيم وبدو الدولة التي ينتمون إليها، فأصبحوا الخوارج الذين يكفرون المسلمين، ويشقون عصا الجماعة، ويحاربون الله ورسوله، ويسعون في الأرض فسادًا بلغة أهل الدين. ومتمردين يشعلون حربًا أهلية لا تخدم إلا العدو المتربص بالدولة الحديثة التكوين بمصطلحات المستشارين وأهل البلاط «والمتنورين» في الدولة والمجتمع.

وهنا تحرك ابن سعود لضربهم، بعدما خسروا أرضية الجهاد التي حاولوا جر عبد العزيز إليها، وفي اعتقادي أن هذا هو العنصر الأول الذي يفسر تباطؤ عبد العزيز في التحرك، وتعمده كسب الوقت، وليس لأنه كان يريد أولا تعهدًا «بريطانيا» بأنه إذا ما حاربهم وانتصر عليهم، وظلوا أحياء رغم الهزيمة وتمكنوا من الفرار واللجوء إلى العراق أو الكويت أو شرق الأردن.. فإن.. نعم! فإن بريطانيا تتعهد بتسليمهم[1]!

---

(١) قال الزركلي: أن عبد العزيز تريث في ضرب الإخوان، حتى يحصل على تعهد بريطاني بعدم السماح =

قد تبدو هذه وجهة نظر بعيدة جدًا في حساب المستقبل، والاطمئنان لنتائجه، ولكنها في الحقيقة قصر نظر. فلم يكن ابن سعود يملك سلاحا يهدد به بريطانيا فإما أن تتعهد أو... ماذا؟. أو لا أحاربهم؟! كأنه تجريدة بريطانية أو كأنها حملة فيلبي على حايل؟!

لقد مارس ابن سعود التهديد الوحيد الذي تفهمه بريطانيا، عندما قال: إذا لجأوا سأطاردهم في الأرض الواقعة تحت حمايتكم.. وأتى هذا التهديد بمفعوله، ولكن بعدما «هزم» الإخوان. أما المطاولة فكانت لنزع الصفة الجهادية عن المتمردين. وأيضا لأن شيوع طلبه من الإنجليز التعهد يوحي بالثقة في النصر، ويجعل الإنجليز يبدون في صورة المدافع عن المتمردين، فهم يرفضون تسليمهم، ثم يرضخون لقوة ابن سعود..

لقد استخدم ابن سعود قانون «الرحم الصحراوي» ضد المتمردين، إذا استحال عليهم الخروج إلى العالم برسالتهم وسيوفهم، بسبب تفوق التكنولوجيا البريطانية، وعدم إتاحة الفرصة لامتحان قدرة «الإيمان» على اكتشاف الحل المضاد للطائرات! كما اكتشف المسلمون الأوائل حل مشكلة الفيلة في القادسية.. ولذلك ارتد الإخوان للداخل يحاولون الرجوع إلى الرحم الصحراوي الذي أنجبهم فاختنقوا.

والتقى الصفان.. أو نقول وكانت معركة «الجمل»..؟! والله لا يستحي أن يضرب مثلا جناح بعوضه..؟!

= لهم باللجوء إلى الكويت أو العراق أو شرق الأردن، وأن التريث طال حتى توهم بعض الناس أن عبد العزيز راض عما يسميه الدويش وأعوانه جهادا. وقد أشرنا إلى وجود نفس الاعتقاد في حاشية الملك كما جاء في كتاب «توحيد الجزيرة».

عشية المعركة جاء الدويش إلى معسكر ابن سعود.. وقد روى مترجم الديوان الملكي الذي حضر الواقعة، وقال أن خيمته كانت بقرب خيمة الملك، رواية تخالف جميع الروايات التي وردت في سائر الكتب والمراجع.. وخاصة فيما يتعلق بمبيت الدويش في معسكر ابن سعود.. قال: «في زلفى وصل عبد العزيز بن فيصل الدويش وماجد بن خثيله برسالة من معسكر الإخوان مضمونها: «نحن لا نريد الحرب ونطلب العفو، ومستعدون بإرجاع ما نهب من ابن شريدة» فكان رد الملك «نجلس أمام محكمة الشرع».

وكان واضحا أن الملك يريد تجنب الحرب بأية وسيلة، بل ويمكن أن نقول نفس الشيء عن الدويش، إلا أن المتطرفين كانوا موجودين على الجانبين.

يقول المؤلف أن عبد المحسن الفرم رئيس حرب علق على رسالة الإخوان: «يا الإمام، هؤلاء يريدون خديعتك ولابد من الحرب!» ولكن الملك وافق على أن يرسل لهم عبد الله العنقري من كبار رجال الدين. وجرى حوار أين تعقد محكمة الشرع، فاقترحوا أن تكون في خيمتهم. وبالطبع رفض الملك الاقتراح، فاقترحوا خيمة محايدة، تقام في منتصف المسافة بين المعسكرين، فرفض هذا الاقتراح أيضا..

وموقف الملك هنا طبيعي ومفهوم، فهما ليسا طرفين متساويين والنزاع ليس معروضا للتحكيم، بل هي الدولة إزاء متهمين بالخروج على القانون، فلابد من «وطء البساط» أو المثول أمام عدالة الدولة..

وأخيرًا تم الاتفاق على أن يأتي عنهم ممثل لخيمة الملك فجاء الدويش نفسه...

«جاء غير مسلح إلا بثمانية محاربين من مطير، فيهم ابن عمه فيصل بن شبلان، وكان الدويش قد اشترط أن تكون خيمة الملك خالية إلا من الملك نفسه، وكانت خيمتي[١] قريبة من الملك مما أتاح لي فرصة رؤية الإجراءات. كانت خيمة الملك بها ٤ فتحات، فجاء اثنان من حرس الدويش، ورفعوا جميع الأطراف، للتأكد من أن الإجراءات المتفق عليها اتخذت، وكان الملك وحده في الخيمة، وأقسم هو والدويش وأمر حرسه بتسليم سلاحهم. فقد عقدت هدنة. ثم دعي للعشاء مع الملك حيث عوامل معاملة ضيف شرف[٢]. وأجريت عرضة لتكريم الضيف وأيضا لتذكيره بقوة الملك وبدأ الفرسان يغنون نشيدًا حربيًا كان قد ألفه عبد المحسن الفرم: أنا أخو من أطاع الله! يا ويل عدو الشريعة منا[٣].. وتقدم أحدهم من فيصل بن شبلان وصاح في وجهه: أنت المقصود».

وقال المؤلف: «إن الدويش صلى مع الملك، وبات في خيمة مجاورة للملك وأن ذلك كان لحمايته ومراقبته. واستمرت المحادثات في اليوم الثاني. وقال الدويش إنه سينقل الأمر إلى ابن بجاد ولكن إذا لم يحضر فهذا يعني الحرب».

ولما لم يعد في اليوم التالي ٣٠ مارس ١٩٢٩ -شوال١٣٤٧ لبس الملك لأمة الحرب.. أما بقية الروايات، فقالت إنه طلب المبيت، ولكن الملك رفض، كما فسر المؤرخون لأنه عرف أنها خدعة، وقال له «اذهب ونم عند أهلك، وموعدكم شروق الشمس، فإن كنت صادقا، فتنح عنهم».

---

(١) أي محمد المانع مؤلف Arabia Unifed.

(٢) ويبدو أنه كان عشاء فاخرا فهناك رواية مصدرها وهبة أن الدويش لما عاد قال أبشروا جئت من عند حضري ليس حوله إلا طبابيخ (طباخين) ولا يعرفون النوم إلا على الدواشح. أي المراتب وهذه تعزز رواية مبيته وإلا فكيف عرف أسلوب نومهم؟!

(٣) هذا الهتاف سابق على المعركة التي يرويها بسنوات طويلة. بل هو من أيام الدرعية.

ورغم أن صاحب رواية مبيت الدويش شاهد عيان، إلا أننا كنا أميل لتصديق وهبة ومعظم المؤرخين الذين أخذوا بروايته، ولكن في مقابلة مع الأمير مساعد بن عبد الرحمن حسم الأمر إذ أكد بهو بدوره أن الدويش بات في معسكر الملك، حيث كان الأمير مساعد نفسه هناك ومعه سعود بن سعد، وعبد العزيز بن سعود بن رشيد.

وفسر التناقض الذي أورده جون[١] حبيب بأن الدويش بات ليلة ثم رجع إلى جماعته وفي اليوم الثالث هجم الملك على معسكر الإخوان.

على أية حال مبيت الدويش في معسكر الملك، أو سماح الملك له بالعودة، كلها تدل على أن لاقتال لم يكن مرغوبا فيه من الطرفين إلى آخر لحظة. وكان الأمل في تفاديه لا يزال يسيطر على تصرفات المسئولين. ولكن كما حدث في موقعة الجمل، بينما المساعي تدور، فجأة انطلقت الأسهم ووقع القتال.

وبصرف النظر عن تعهد الإمام بسلامة الدويش، فلم تكن هناك فائدة في احتجازه، فهو إما صادق في قناعته بالسلم، ومن ثم فلا خطر في إعادته إلى معسكر الأعداء لأنه سيدافع عن قناعته هذه.

أو أنه صادق في قناعته بانحراف الإمام، ومشروعية القتال ضده، ومن ثم فوجوده في معسكر الملك يشكل مخاطرة.

ولكن الدويش[٢] لم يكن صلبا في قناعته، كان حائرا بين ضميره وعقله، بين

(١) أكد غلوب أيضا مبيت الدويش ولكن جون حبيب رفض ذلك ورجح رواية وهبة مستدلا على ذلك بأن «المعركة نشبت في صباح اليوم التالي وكان الدويش على رأسها» صفحة ٢٦٤.

(٢) قال لنا ابن عم الدويش، أن فيصل الدويش كان عازفا عن القتال، ولكن ابن حميد (سلطان بن بجاد) وهو صديقه وصهره لجأ إليه (لأنه هو الذي هاجم قافلة ابن رشيد. وطلبه ابن سعود من الدويش ليرد ما سلبه من أهل القصيم. فقال الدويش أنا أدفع عنه الدية. ولكن عبد العزيز قال لا بد أن ابن حميد يجلس للشرع. وعاهد الدويش على ألا يحارب ابن سعود على شرط ألا يمس ابن حميد إلا بالشرع. ووافق عبد العزيز. وعقد =

الحس الديني الذي صاغ شخصيته وحوله من قاطع طريق إلى سيف من سيوف الحل الإسلامي وبين المنطق السياسي، الذي يفرض التسليم بالواقع، والتعامل مع ضروراته، مع ما في هذا التعامل من محذورات.. بين ولاءاته القبلية، وقيم وتقاليد هذه الولاءات، وبين طاعته وحبه للإمام الذي هداه.. وأعطاه مجد الدنيا، وصلاح الآخرة.. فلماذا يقاتله اليوم؟!

حائر بين قبول «البدع» في ظل طاعة الإمام، أو السقوط في «معصية» شقا عصا الجماعة والخروج على ولي الأمر، وإذلال السلطان.

بين التزاماته نحو ابن حميد وبيعة في عنقه للإمام عبد العزيز؟!

ومثل هذه الشخصية التي تمزقها الحيرة، تتمنى أن يخلصها البطل من حيرتها.. بإرغامها على اتخاذ موقف.. وسنجد رسائله بعد ذلك تستصرخ عبد العزيز «يا الإمام لا تدفعنا إلى الكفر»، وستوجد في خيمته مسودات رسائل لم ترسل أبدا إلى «الكفار» يطلب دعمهم.. وسيحمل جريحا للإمام يتمنى أن يريحه فيقتله أو يبقيه في أسره ولكن الإمام كما في أساطير العذاب سيعيده إلى الأرطاوية حيث يشفى ويجبر على القتال مرة أخرى.

وسوء بات الدويش في معسكر الإمام أو لم يبت فقد خرج سليمان وما أن اقترب من معسكره، وأحاط به الثوار أو المتمردون، حتى تقمصته الشخصية

= ابن سعود مجلس الشرع بحضور المشايخ، ولكن ابن حميد رفض الحضور، وطلب الدويش مهلة لإقناعه بالحضور فأمر ابن سعود بالهجوم»! وهذا يتفق مع رواية الأمير مساعد بن عبد الرحمن، في أن المعركة لم تكن صباح يوم زيارة الدويش لمعسكر ابن سعود بل كانت هناك فترة زمنية هي اليوم الذي انتظر فيه عبد العزيز رد الإخوان فلم يصل. وتكذب مزاعم ديكسون عن هجوم غادر وقع على الإخوان وهم يحضرون طعام الإفطار اطمئنانا لسير المفاوضات!..

أن الزحف الملكي بعشرات السيارات كفيل بإفساد أي إفطار!.. ولا يمكن أن يكون مفاجأة.

الثانية، فكانت تلك الرواية التي أشرنا إليها عن الإمام الحضري المحاط بطباخين لا يعرفون النوم إلا على المراتب!..

لقد نجح المنشقون في إشعال الثورة، المحتومة، للأسباب التي ذكرناها، ولكن في المعركة لم يثبتوا أنهم الفئة القليلة، وشككوا في الاعتقاد الذي كان سائدًا بأنهم العامل الوحيد في صنع الانتصارات السعودية، فقد هزموا بسهولة غريبة، وسقط فيصل الدويش جريحا، واستسلم ابن بجاد..

وانتصار الملك في معركة السبلة هذه، فسر بأنه يرجع للتفوق الساحق لجيش الملك في العدد والعتاد[١]، فالروايات تختلف عن نسبة القوات ما بين ثلاثة وخمسة أضعاف لصالح الملك، كما كان الملك يمتلك سيارات ومصفحات، إلا أن السبب الحقيقي للهزيمة، هو أن المنشقين كانوا يخوضون معركة ضد التاريخ، وفقدوا أرضية الجهاد، وخامر الكثيرين منهم الشك في صحة ما يقاتلون عليه.

«وكانت هذه هي المرة الأولى التي يهزم فيها الإخوان هزيمة عسكرية منذ ظهور حركتهم[٢]» أما نحن فنقول كانت هزيمة سياسية لهم، ونكسة لتجربة الحل الإسلامي..

---

(١) وكأن عبد العزيز كان يقرأ التاريخ، ويعرف أن أحدهم سيفتري يوما خرافة مساعدة الطيران البريطاني في قمع ثورة الإخوان، فأراد أن يتقي الشبهات، فلم يقدم على استخدام طيرانه هو «فقد كان لدى عبد العزيز ٤ طائرات دي. اتش. ٩ بطواقمها الإنكليز، وكانت في الأحساء في نهاية عام ١٩٢٩-١٣٤٨ ولكنه لم يستخدمها ضد الثوار».

وقال تقرير أمريكي بتاريخ ٢٧ فبراير ١٩٢٠-رمضان ١٣٤٨ «تفيد المعلومات الوثيقة أن ابن سعود اشترى ٤ طائرات مطاردة بريطانية، ومن المعتقد أن ابن سعود طلب هذه الطائرات بأمل استخدامها لمطاردة قائد المتمردين فيصل الدويش والعناصر النجدية العاصية ولكن من المعروف أن هذه الطائرات وصلت القطيف متأخرة جدا مما حال دون استخدامها في حملة نجد». القنصلية الأمريكية في عدن.

(٢) محمد المانع.

وينفرد محمد المانع برواية استسلام الدويش الجريح على هذا النحو: «في الليل دخل فيصل بن شبلان ابن عم الدويش وقد أخفى وجهه تماما في حزمة هائلة من الحشيش زعم أنهها لخيول الأمير «سعود بن عبد العزيز» فلما دخل خيمة الأمير كشف وجهه وأعلن شخصيته، ووضع نفسه في حماية الأمير طالبا السماح له بمقابلة «الإمام». فلما تمكن من المقابلة قال للملك أن حريم الدويش قادمين غدا لمعسكر الملك».

وقال إن الملك كان قد توجه لاقتحام الأرطاوية، ولكن عبد العزيز بن فيصل الدويش رجاه ألا يدخل الأرطاوية لكي لا تقع فيها مذبحة، واعدا بالحضور هو وأبوه غدا لمعسكر الملك. فوافق الملك وأمر بمحاصرتها وانتقل إلى زبدة.

وجيء بالدويش محمولا، ولم يكن قد عرف أنه مجروح، وكشف عليه متطبب سوري وأعلن أنه لن يعيش!.. ووسط بكاء النساء والأطفال[1]، وبعد أن اغتسل الملك من أي أثر للعطور أو الطيب حسب عادة البدو، أو بناء على طلب عبد العزيز بن الدويش.. التقى الملك المنتصر والثائر الجريح.. وقال الملك:

- «هذا فعلك بنفسك»..

فرد الدويش: «يا الإمام أن عاقبت فبذنوبنا. وإن عفوت فأنت أهل للعفو..»

رد الإمام وكأننا في مسرحية من كتاب «الأغاني»

- «قد عفوت!»

---

(١) قالت أم القرى: «عندما رأى الملك النساء يبكين، بكى وبكى كل الحاضرين لهذا الموقف المحزن، ورق قلب الملك وقلوب الجيش كله وهكذا وافق على شفاعة النساء». ١٢/ ٤/ ١٩٢٩ –ذو القعدة ١٣٤٧. عن جون حبيب

ويضيف مؤلف «العربية تتوحد» أن الملك سمح له بأن يتوجه حيث شاء «فطلب التوجه للكويت، وطلب نقودًا، وقرب مياه، وسلاحًا، وآلات حفر مياه[(١)]. فوافق الملك على كل هذه المطالب وكتب لوكيله عبد الله النفيسي لتوفير كل ما طلب، بل وأكرمه بتسليمه الخطاب الموجه للنفيسي». وانفرد نفس المؤلف بتفسير خاص لموقف الملك الشديد الكرم من الدويش إذ يقول «أنه عرف من ابن فيصل الشعلان، بعد ذلك بسنوات أنه خلال هذه المقابلة كان هناك خمسة ألاف محارب من مطير، يحاصرون معسكر الملك».

والسؤال لماذا لم يشتركوا في المعركة قبل أن يجرح وبعض الروايات جعلت كل جيش الدويش في معركة السبلة لا يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة؟!

أما الروايات الأخرى فزعمت أن العفو كان بناء على تقرير المتطبب السوري الذي توقع الوفاة العاجلة، فترك الدويش يموت بين أهله. ونحن نعتقد أن السبب الأساسي هو المكانة التي كانت للدويش في نفس عبد العزيز، وعاطفة عبد العزيز نحو الإخوان وأن اضطر إلى قتالهم.. وأنه بدون ابن بجاد، بدون عتيبة لا يخشى بأس الدويش.

عاد الدويش إلى الأرطاوية ويشاء حظ عبد العزيز وسوء حظ أنصار الحل الإسلامي، بل وسوء حظ الإنسان العربي المفجوع في أبطاله، أن يشفى الدويش، ولو مات لتحول إلى أسطورة، ولما وجدت ثغرة في سلوكه أو حياته فقد أمن واجتهد فأبلى أحسن البلاء.. ثم أمن واجتهد وقتل على إيمانه..

---

(١) وهذه تعزز حجة أنصار «التوطين» والمشروع الزراعي إذ يبدو أن الدويش كان متجها لبناء مشروع زراعي في الكويت!!!

ولكنه يشفى، ليواجه نظرات نسائه، وعتاب أو شماتة المطرية، وتساؤلات المؤمنين من أنصاره.. هل باع القضية، هل خان رفيق السلاح، فقبل أن يفوز هو بالعفو والهدايا، ويبقى ابن حميد (ابن بجاد) في السجن[١]؟!.. وتنهال عليه الإغراءات من شتى الاتجاهات، وتتنبه كل القوى التي فاجأتها معركة السبلة، وفاجأتها أكثر نهايتها السريعة والسعيدة!.. ويبدأ الإنجليز في تنفيذ المرحلة الثالثة، مرحلة الدعم المكشوف فتتجدد الثورة، بل وعلى حجم أكبر وأخطر.

وهنا يركز ابن سعود على وقف التدخل البريطاني، وفي نفس الوقت ينشط هذا التدخل، مستغلا إحساس المتمردين باليأس، مع ضعف أو اختفاء القيادات التي كانت تتعفف عن قبول مساعدة الإنجليز، وانتشار عملاء النظام العراقي، بل وعودة الذين كانوا قد هربوا من نجد فرارًا من الإخوان، عادوا الآن، وانضموا إلى الإخوان.. فنشط التعامل بين الإنجليز والمتمردين، وربما كان لهذا التصعيد في الدعم البريطاني المباشر، أثره في الانتعاش السريع للتمرد بعد هزيمة السبله، وأيضا في التلاشي الأسرع للحركة، عندما تبينت القواعد، هذه الصلة المتعارضة مع الأهداف.. والتي نؤكد مرة أخرى أنها -أي الصلة مع الإنجليز -لم تكن تعبر عن رغبة أصيلة لدى الدويش.. ولكن جر إليها أو اضطر إليها كما سنوضح..

وقد أفادت مخابرات ابن سعود، أن الإمدادات، تتدفق على المتمردين من الكويت والعراق، وعبد العزيز يعرف أن الحكم في الكويت أو العراق، لا يغامر بتحديه إلا بموافقة وتحريض الإنجليز، أو كما قال: «نحن لا يهمنا الكويت ولا من فيه، وإنما يهمنا الإنجليز وموقفهم» ولذلك اعتبر موقف الكويت والعراق موقفًا

---

(١) مع إنه لو وفي بتعهده لشفع لابن نجاد، ولكنه نقضه العهد وعودته لمحاربة ابن سعود قضت على أي أمل في إطلاق سراح ابن بجاد.

بريطانيًا، فاستعد لمواجهته، مؤكدًا بكل التصرفات أنه يعتبر بريطانيا، كما قيل في الموت: «لا تتمنوا لقاءه، ولكن لا تهربوا منه» فهو يسعى لتجنب الحرب مع بريطانيا بكل وسيلة ممكنة، ومنها التأكيد لها أنه مستعد للقتال إذا حاولت التدخل في شئون مملكته الداخلية، أو الاعتداء على سيادته. ولذا فاستعدادات ابن سعود بعد معركة السبلة لم تكن لمواجهة الإخوان وحدهم، فقد تحطم العمود الفقري لحركتهم، وتحول الدويش إلى ثائر مكسيكي ينهب البدو باسم البدو، ويضرب ويجري في انتظار الإعدام.. حتى هزمته العوازم!

ولا كانت حشود ابن سعود بقصد مواجهة «جيش» الكويت أو «العراق» بل لمواجهة بريطانيا إذا أردت منازلته في الصحراء، وجهًا لوجه أو بواسطة العملاء..

وهكذا قلب الطاولة على الإنجليز والدويش، فبدلا من أن يضعه الدويش في موقع المتعاون أو حتى المعرقل للجهاد ضد بريطانيا، جعل هو الدويش يقاتل وظهره لبريطانيا.. وعبد العزيز يواجه بريطانيا كما بدا واضحًا للجميع.. فالسيل الذي تجمع في السبلة وأوشك أن يغرق البلاد والناس، سرعان ما تسرب في الرمال وكأنه لم يكن عندما سحبه ابن سعود من قاعدة الجهاد الصلدة إلى رمال المناورات السياسية الخادعة.

هذه المواجهة مع بريطانيا، أو لتجنب المواجهة مع بريطانيا، كان ابن سعود بحاجة إلى حملة إعلامية، تكشف تورط بريطانيا، في الصحافة العالمية والعربية، وقد اختار «محمد أسد» لهذه المهمة..

يقول محمد أسد:

«تبادر السؤال إلى الأذهان: من أين يأتي الدويش بالمال الذي هو، حتى في جزيرة العرب، ضروري لشن الحرب؟ ومن أين أسلحته وذخائره؟ وجاءت تقارير

غامضة تقول، إن ذلك الثائر الذي سبق أن انتقد بعنف إقدام ابن سعود على عقد معاهدات مع الكفرة، كان هو نفسه يتعامل الآن مع البريطانيين، وسرت شائعات مفردها أنه يقوم بزيارة الكويت باستمرار، فأخذ الناس يتساءلون هل يمكن أن يفعل الدويش ذلك دون علم السلطات البريطانية؟ ألم يكن من مصلحة هذه السلطات، على الأصح، أن يسود الشغب والفوضى أرض ابن سعود[1]؟

وهكذا في صيف عام ١٩٢٩-١٣٤٨ انتزع محمد أسد من فراشه ليقابل «الشيوخ» فورًا..

«وفي القصر كان ابن سعود في انتظاري في جناحه الخاص، جالسًا القرفصاء على الديوان ومن حوله أكوام الصحف العربية، وفي يده جريدة تصدر في القاهرة، وقد رد الملك على تحيتي باقتضاب ومن غير أن يتوقف عن القراءة، ثم أشار إلي بالجلوس إلى جانبه على الديوان، وبعد هنيهة رفع بصره ونظر إلى العبد الذي كان واقفًا عند الباب، ودلل بحركة من يده على رغبته في الانفراد بي، وما أن أقفل العبد، الباب وراءه، حتى وضع الملك الجيدة من يده فنظر إلى برهة من وراء نظارتيه البراقتين، كأنما لم يرني منذ وقت طويل رغم أنني كنت قد أمضيت معه ساعات ذلك الصباح نفسه».

ثم قال الملك: «لعلك تحب أن تكتب عن هذه الثورة، وعما تنذر به من سوء» لقد كان في صوته أثر الانفعال عندما تابع كلامه؛ «إن الأشراف يكرهونني، وأبناء الحسين الذين يحكمون الآن في العراق وشرق الأردن سيظلون يكرهونني دائما، ذلك أنهم لا يستطيعون نسيان أنني أخذت منهم الحجاز، إنهم يحبون أن

---

(١) هذا هو فهم المعاصرين والمقربين لابن سعود.

ينهار ملكي، فعندئذ يسهل عليهم أن يعودوا إلى الحجاز، وأصدقاءهم الذين يدعون صداقتي أيضا، قد لا يكرهون ذلك، إنهم لم يبنوا تلك القلع[١] إلا بهدف[٢]، لقد أرادوا خلق المتاعب لي، وأن يبعدوني عن الحدود لقد كنت أفكر، شأن كل واحد غيري، في الأسلحة والذخائر الموجودة في حوزة الدويش، إن لديه كثيرًا منها، وكثيرًا من المال أيضًا، كما تقول التقارير الواردة إلي، وإنني لأتساءل عما إذا كنت ترغب في الكتابة عن هذه الأمور، أعني تلك المصادر الخفية لذخائر الدويش. إن عندي ظنوني الخاصة، ولعلها أكثر من ظنون. ولكني أحب أن تجد بنفسك كل ما تستطيع، فقد أكون على خطأ. أريدك يا ولدي أن تجد بنفسك، أقول بنفسك، من أين يأتي الدويش ببنادقه وذخائره، وأمواله التي ينثرها بمثل هذا السخاء؟ إني أكاد أكون على ثقة تامة، ولكني أحب أن يتأتى لشخص مثلك أنت -لا علاقة مباشرة له بالأمر- أن يخبر العالم عن الحقيقة الملتوية وراء ثورة الدويش. وأعتقد أن باستطاعتك أن تكشف الحقيقة».

ويروي أسد أنه فكر في هذه الساعة في «مشروع بريطاني لمد خط سكة حديد من حيفا إلى البصرة لحماية طريق النفط ودعم المواصلات الإمبراطورية مع الهند، وأن هذا المشروع يحتاج إلى دويلة تقتطع من أرض السعوديين ليمر بها الخط، وربما كان الدويش هو أداء في تنفيذ هذا المشروع»[٣].

وفعلا توجه محمد أسد، ومرافقه زيد إلى الكويت، وفي الطريق، رأوا كتائب المتمردين، وعرفوهم من ترديد: «لا إله إلا الله»: «الجملة التي كان الإخوان

---

(١) الحصون أو المخافر..

(٢) هذا رأي عبد العزيز في الإنجليز فبأى حق يدعى بعضهم أنهم أنقذوا عرشه أو ساعدوه؟!

(٣) وهذا يعني أنه قام باستطلاعه برأي مسبق فلزم التنويه.

يستعيضون بها عادة عن أناشيد السفر الصحراوية المعروفة التي يغنيها البدو «الضالون» وكان على رأس كل منهم عمامة بيضاء على عادة الإخوان، فوق كوفية منقطة باللونين الأحمر والأبيض، وعلى صدره منطقتان جلديتان، كما تدلت فوق غزالة الشداد وراءه، بندقية. ركب مهيب وقور، يتأرجح فوق الراحلات إلى الأمام وإلى الوراء، بتناغم مع خطوات الهجن، ومع تلك الكلمات العظيمة: لا إله إلا الله.

«كان المنظر مؤثرًا ومحزنًا في الوقت نفسه. فها هنا رجال إيمانهم يفوق أي اهتمام لهم في الحياة. كانوا يعتقدون أنهم يجاهدون في سبيل الإسلام، ولإعلاء كلمة الله، غير واعين أن حميتهم وشوقهم، إنما كانا يستغلان»[١].

«وهمس زيد[٢]: «إنهم كالجن، لا يعرفون متع الحياة، ولا خوف الممات. إنهم شجعان، وأقوياء الإيمان، وما من أحد يستطيع أن ينكر ذلك، ولكن كل ما يحلمون به هو الدم والموت والجنة» و«كأنما أراد زيد أن يتحدى غلو الإخوان فاخذ ينشد بصوت منخفض أنشودة سورية ذائعة: «آه يا أسمر اللون»!!.

وقد نشر أسد تحقيقه الصحفي، أو العسكري هذا، ويفهم منه أنه رأى ريالات «ماري تريزا» الحديثة السك بغزارة مع جماعة الدويش. **كما عرف من تاجر سلاح،** أن الدويش كف عن شراء السلاح المهرب من الأردن، لأنه «يحصل عليه الآن بثمن لا يمكن لمثلي أن يبيعه به[٣]. إنه يحصل عليه في صناديق من وراء البحار،

---

(١) بعد ذلك سب في الدويش حذفناه، فقد وضحنا رأي محمد أسد في موضع آخر.

(٢) مرافقه.

(٣) ومع ذلك كتب محمد المانع أن الملك كانت لديه ميزة الحصول على المساعدات البريطانية وللتدليل على ذلك قدم دليلا عجيبًا إذ قال: «أراد الملك شراء السلاح من بريطانيا فطلبت ثمنًا فادحا حتى أن الملك شك في الأمر». ونقل عنه قوله: «أستطيع أن أحصل على كل السلاح الذي أريده وأشحنه من جدة إلى المنطقة الشرقية على أربعمائة جمل ويظل ثمنه قل من هذا»! فإذا كان هذا هو الدليل الوحيد الذي قدمه مترجم الديوان، على «مساعدة» بريطانيا لابن سعود فلابد أن هناك خطأ في الترجمة! =

بنادق إنكليزية تكاد تكون جديدة لم تمس، ويدفع عشرة ريالات في كل بندقية معها ٢٠٠ طلقة». بل وأضاف هذا المهرب القادم من شمر: «إن الدويش يتلقى المال في الصناديق» بل زعم أسد، أن المهرب توقع أن يكون الدويش أميرًا في شمال نجد. كما عرف بوجود فرحان بن مشهور[1]. وهو قريب نوري الشعلان الذي عمل مع لورنس رجل المخابرات البريطانية. وكان فرحان «مشهورًا بالعربدة والفسق في دمشق. ثم اختلف مع عمه نوري الشعلان، فلجأ إلى نجد ودين ولبس عمامة الإخوان. وهو الذي يشرف الآن على تسلم الصناديق التي تحملها السفن وفيها السلاح والمال. ويدخل ويخرج في قصر ابن صباح الذي يقال إنه يحبه حبًا عظيمًا.

ولكنه لم يعثر على الدويش[2] في الكويت. وقد أشار أسد في مقالاته إلى الفكرة التي خرج بها من الرياض، وهي أن الدويش تسانده دولة أوروبية كبرى لإرجاع خدود ابن سعود إلى الجنوب وإقامة ولاية مستقلة بين السعودية والعراق. كذلك فإن الفوضى في دولة ابن سعود، تهدف إلى إضعاف مقاومته لمطلبين بريطانيين، هما الحصول على قاعدة في ميناء رابغ، والسيطرة على قسم من خط سكة حديد الحجاز[3]. وإن هزيمة ابن سعود على يد الدويش، يمكن أن تحقق

= والثابت أن بريطانيا ضيقت على ابن سعود في السلاح حتى أنه اشترى في مطلع عام ١٩٣٠-١٣٤٨ سلاحا من بولندا..

(١) كانت السلطات العراقية قد سمحت له باللجوء على أساس أنه «سوري» ثم سلحته وأعادته للقتال مرة أخرى ضد ابن سعود على أساس أنه من الإخوان!

(٢) أما رأى ابن صباح في الدويش كما قاله لديكسون فهو «كلب ابن كلب له عقل حضري وهو العقل المدبر للحركة المضادة لابن سعود».

(٣) ويمكن أن نضيف سببًا، وهو إلغاء ابن سعود لامتياز نفط الأحساء الذي كان قد منحه عام ١٩٢٣ -١٣٤٠ لشركة بريطانية، ولم يحس المراقبون وقتها بأهميته، فلم تكن لديهم معلومات الحكومة البريطانية عن احتمالات النفط في المنطقة.

الهدفين، وقد نشرت هذه المقالات في الصحف الأوروبية والعربية، المصرية منها بصورة خاصة».

تسلح عبد العزيز بالأدلة التي جمعتها مخابراته، وبالرأي العام العربي والعالمي الذي تعاطف معه، لأسباب عديدة، منها الموجة المعادية لبريطانيا في أوروبا، والإعجاب الذي ساد بابن سعود الملك العملاق. وقناعة العرب بسوء ما تدبره بريطانيا ضد أمتهم ودينهم.

ولعب ابن سعود أوراقه بكل المهارة الممكنة. فأنذر بريطانيا دون استفزازها، وخاطب الحكومة البريطانية رأسًا، مكتفيًا بإحاطة مندوبيها في المنطقة. واستعرض كل الوقائع التي تدين بريطانيا، ثم ترك لها الباب مفتوحًا للتراجع بأن امتنع عن توجيه الاتهام صراحة، مكتفيًا بأن يعرفها بأنه يعرف تورطها..

ففي رسالته إلى الحكومة البريطانية، بدأ بالتذكير بالوعد الذي قدمته بريطانيا بمنع استخدام الكويت أو العراق كقاعدة «للعصاة» أو مصدر تموين.. وهو التعهد الذي لم ينفذ، ثم وجه شكره «لسائر الموظفين البريطانيين سواء المقيمين في العراق أو في الكويت. وخاصة مجموع الأنباء التي وصلتنا عن مستر دكسن».

والإنجليز يعلمون أن ذلك غير صحيح[١] ولكنها دبلوماسية ضرورية تحفظ ماء الوجه وتتيح فرصة للتراجع وتمنع التصعيد الذي لا يرغب فيه الملك في هذه الظروف. ولواتهم بريطانيا وموظفيها مباشرة وبصراحة، لشاع ذلك ولكان له أثره

(١) لأن اتصالات «ديكسون» بالإخوان وعروضه عليهم شائعة ومتوارثة، وقد أخبر ابن عم الدويش وشيخ الأرطاوية الحالي، مؤلف هذا الكتاب: «أن ديكسون تحدث مع الدويش وقال له تسمح لنا ندخل ونحمي الحدود» قال له الدويش.. لا الكفر ما يدخل بين الإسلام». وقال أيضا إن السلاح الإنجليزي الذي وجد مع الدويش والإخوان هو مما نهبوه «لما استحلوا مركز البصية»!.. (وذلك في لقاء معه بفندق انتركونتننتال بالرياض عام ١٩٨٠-١٤٠٠).

في النفوس الضعيفة، وبعد عشر سنوات تقريبًا ستكشف رسالة الملك إلى الحكومة البريطانية أنه كان على علم تام بالتدخل، بل إن هذه الرسالة ذاتها التي شكر فيها ابن سعود الموظفين الإنجليز، بما عددته في نفس الوقت من أدلة التدخل العراقي والكويتي هي وثيقة اتهام ضد بريطانيا المسئولة عن البلدين وقتها:

فقبل شكر الموظفين البريطانيين تقول المذكرة: «وقد حدث شيء جديد نحب أن نعرف رأي الحكومة البريطانية فيه، حتى لا يقع شيء من المشاكل في المستقبل بسبب سوء تفاهم، أو بأي سبب من الأسباب، وقبل إيراد هذا الأمر نرى أنه من المفيد جدًا أن نعرض على الحكومة البريطانية مجمل الحوادث التي وقعت مما يخالف تعهد الحكومة البريطانية، ونعتقد اعتقادًا جازمًا بأنها وقعت بغير رضائها»..

مجرد صيغة دبلوماسية.. وتهديد مبطن، واتهام صريح، دون تجريح.. أو دخول في جدل، وحرب مذكرات...

- وصل بعض الذين أحرقوا سيارات الدولة إلى الكويت فأنزلوا فيها وكرموا..

- وفي ٥ المحرم ١٣٤٨ -١٤/ ٦/ ٢٩ سافر من بغداد إلى الكويت رسول من قبل الملك فيصل، مكلف بمهمة، وعاد يحمل كتابا من العصاة للملك فيصل.

- مساعدات مالية دفعت من العراق في صفر.

- ٢٠ محرم ١٣٤٨ (٢٩ يونيه ١٩٢٩) وصل وفد من العراق بعد اجتماعه بالملك فيصل، إلى الكويت للاجتماع مع الدويش وابن مشهور وابن حثلين.

- وقد عاد الوفد في ١٤ صفر -يوليو ١٩٢٩ -بنتائج اجتماعه مع الدويش.

- في آخر محرم ١٣٤٨ -يونيو ١٩٢٩ عقد اجتماع بين الرسل القادمين من بغداد والعصاة.

ومازال العصاة ورسلهم يترددون بين بغداد والكويت، على مرأى ومشهد من الناس جميعا.

- في ١٧ صفر ١٣٤٨ -١٥ يوليو ١٩٢٩ سافر من بغداد إلى الكويت وفد ومعهم قريب لأحد خدم الملك فيصل بستة أفراس قدموها للعصاة.

- شخير بن طواله المقيم على صفوان، على اتصال دائم بالعصاة، ويحمل أخبارهم إلى بلاط بغداد ويقوم بالخفارة بين الملك فيصل والعصاة ويقدم في الشهر مرتين أو ثلاثا على بغداد.

- الرسل المشجعة من الملك فيصل للدويش وابن مشهور والعجمان لم تنقطع. **وهم يخبرونهم أن الملك فيصل يقول بأن الحكومة البريطانية ستساعدهم متى وجدت منهم أعمالا حربية فعالة ضد ابن سعود**».

- تشويق من بالعراق لهؤلاء العصاة الذين أعلنوا أن الشريف فيصل مؤيد لهم وأنه أرسل أخاه (الشريف علي) ليهاجم الحجاز من جهة شرق الأردن وأنه هو مستعد للسير على نجد من جهة العراق إذا رآهم قاموا علينا في داخلية بلادنا.

- تمرد العتبان تم بتحريض بعض من كانوا يعيشون في كنف الملك فيصل في العراق.

- في مايو ويونيه نزل المتمردون «ضيوفا على ابن صباح واشتروا جميع ما أدركوا من سلاح وفشك».

- ابن صباح خصص لكبارهم أعطيات من العيش والتمر وأعطاهم ما يقرب من ستة آلاف ريال.

- اشتروا عشرين فرسا من الكويت، منها عشرة بيعت لهم بأمر «صباح الناصر الصباح» ومن خيوله.

- في يونيه (١٩٢٩) خرج «عبد الله الجابر» لاستقبال مجموعة من العصاة بإمارة سحمان. فأكرم وفادتهم.

- في يونيه أرسل ابن صباح للدويش ألف ريال هدية.

- في يوليو شوهد بعض زعماء العصاة في الكويت.

- في أوائل ربيع الأول (أغسطس) أرسل سحمان إلى الكويت يبشر بانتصاره.

(واضح أن الملك استفاد كثيرًا من رحلة الاستخبار التي قام بها «محمد أشد» في تجميع الـــ١٨ نقطة التي تقدم بها في مذكرته هذه، وإن كان لم يسمح له إلا بنشر العموميات والتحليلات السياسية في الصحف، أو في كتابه «الطريق إلى الإسلام».

مفضلا الاحتفاظ بالوقائع المحددة لاستخدامها في الدبلوماسية السرية، كما لا شك في أن الملك كان يملك جهاز مخابرات قوي ساهم بقسط كبير في تجميع هذه المعلومات.

وهي في الأصل بالاسم والتاريخ، والتفاصيل التي أعفينا منها القراء[(١)]).

ثم ننتقل للجزء السياسي من المذكرة.. الذي يقول:

«وهذا نموذج من الأعمال التي وقعت من الكويت، ومن الملك فيصل عرضناه على أنظار الحكومة البريطانية لتتبين صحة شكوانا بالسابق من الأشراف،

(١) يمكن الرجوع إليها في وثائق الخارجية السعودية. وفي صقر الجزيرة الجزء الثاني..

ولن يمتنعوا عن العمل الذي يؤدي بالإضرار بنا، ويؤدي لسوء العلاقات بيننا وبين البلاد المجاورة، **ويؤدي أيضًا لتعكير العلاقات بيننا وبين الحكومة البريطانية**. وليس هذا الذي ذكرنا في الدرجة الأولى من الأهمية لأننا على يقين بحول الله وقوته أن هذه الدسائس لن تؤثر على موقفنا في شيء، والأشراف كانوا عاجزين عن مقاومتنا يوم كانوا في حولهم وطولهم في الحجاز، فالذي نصرنا عليهم يوم بأسهم وقوتهم، هو الكفيل لنا بالقضاء على دسائسهم، وهذا لا يهمنا كثيرًا.. **والذي يهمنا هو علاقتنا مع الحكومة البريطانية** التي نحب أن نكون معها على تفاهم في سائر الشئون، **حتى لا يقع بيننا وبينها أي تصادم** في الحاضر ولا في المستقبل».

لذلك نحب بعد هذه المقدمة أن نبين الموقف الذي أشكل علينا، والذي نحب أن نعرف رأي الحكومة البريطانية فيه.

ثم يورد قائمة بالمخالفات الكويتية من ٦ نقاط (باعتبار الكويت محمية بريطانية مباشرة) ويعلق:

فمن هذا يتبين للحكومة البريطانية، أن التعهد الذي نلناه من الحكومة البريطانية في منع التجاء العصاة إلى أراضي الكويت، لم تف به حكومة الكويت. وهؤلاء العصاة قد حملوا أموالهم ونساءهم وما يخافون عليه ووضعوه في مأمن من أراضي الكويت، وخرج أهل السلاح والكفاح منهم لأراضي نجد، ليعيثوا فيها فسادًا، وكانت الحكومة البريطانية وعدت أنه في حين التجائهم ستطردهم بالقوة، وها هم جلسوا آمنين!

ونحن على أهبة المسير إليهم، ولا يهمنا أمر الكويت ولا من فيه.. وإنما المهم في نظرنا هو موقف الحكومة البريطانية، إذا بقي هؤلاء في أراضي الكويت

وأردنا الهجوم عليهم، فهل لدى الحكومة البريطانية مانع من هذا؟ وإن كان عندها مانع فما التدبير الذي تراه للإيقاع بهؤلاء الأشقياء.. هذا أولًا.. وثانيًا: فإن التشجيع لا يزال يتوالى على الدويش ومن معه، من ملك العراق، وآخر اقتراح قدم للثوار من الملك فيصل أن يسير الدويش بمن معه لدخول أراضي العراق، والسير منها إلى أراضي سورية، ونحن كنا أعددنا قوة للوقوف في وجه الدويش إذا أراد الفرار لسورية، وجعلنا تلك القوة تحت إمارة أميرنا ابن مساعد وقد خيم بجنوده من مدة بعيدة على «**أقبة**» فما موقف الحكومة البريطانية إذا أراد هؤلاء الأشقياء أن يفروا إلى سورية عن طريق العراق؟

«وإننا نخشى جدًا أن ينفذ الوعد الذي تداوله العصاة بينهم بأن حكومة العراق أو الملك فيصل وعدهم أنهم إذا قصدوا ذلك فإنه يسحب القوة العراقية من طريقهم ليمروا، ثم يذاع أنهم مروا من الأراضي العراقية خلسة، بغير علم أحد بهم، وترى الحكومة البريطانية أنه إذا وقع هذا يضر بمصالحنا ومصالح العراق معًا».

«ومما يقوي هذه الشبهة ويؤيد هذا الاحتمال، ما أخبرنا به المندوب السامي في العراق، وما أخبرت الخارجية سعادة المعتمد في جدة عن سفر ابن مشهور إلى بغداد لتأمين هذه الغاية، فهل ترى الحكومة البريطانية مانعًا من أن نرسل قوة تقف بالقرب من حدود العراق تترقب فرار هؤلاء الأشرار؟ حتى إذا علمت بهم أوقعت بهم حيث يكونون، ثم لو فرضنا أن تمكن هؤلاء من الفرار والوصول إلى سورية، فهل ترى الحكومة البريطانية مانعًا من اجتياز الأراضي التي يجري عليها النفوذ البريطاني لنصل إليهم؟

«إن هذه أمور محتملة الوقوع بعد مسيرنا إلى العصاة، لأننا عازمين بحول الله وقوته على تعقبهم حيث يكونون، حتى نأتي على آخرهم بحول الله وقوته. فنحب

أن نعرف آراء الحكومة البريطانية بصراحة ووضوح إزاء هذه الاحتمالات مثل الالتجاء الواقع في حدود الكويت[١]. وما هو محتمل الوقوع كفرار الذين سيفرون إلى الأراضي السورية عن طريق العراق.

هذا ما ننتظر الجواب عنه من الحكومة البريطانية.

٢٢ ربيع الثاني ١٣٤٨ -٢٦ سبتمبر ١٩٢٩».

وسيكشف ابن سعود القناع، ويصفع بريطانيا بالحقائق التي كتمها الطرفان في عام ١٩٢٩-١٣٤٨. فبعد عشر سنوات تقريبًا، عندما أتهمته بريطانيا في مذكرة رسمية بأنه يساعد ثوار فلسطين، رد عليها بمذكرة رسمية بتاريخ ٢١ ربيع الآخر ١٣٥٧-يونيه ١٩٣٨ وجاء فيها:

«وتذكر الحكومة البريطانية أنه في الأعمال السابقة التي وقعت في بلادنا ولم تكن موجهة لطرف من أطرافنا، بل كانت موجهة لشخصنا مباشرة ولأساس ملكنا، كنا نخبر الحكومة البريطانية بما يصلنا عنها من أخبار وأقوال، سواء أيام حركات الدويش واجتماعاته ببعض الموظفين البريطانيين، وسواء يوم خروج ابن رفادة من العقبة في رابعة النهار بين سمع الموظفين هناك وبصرهم».

قذف ابن سعود الكرة في ملعب الإنكليز، أو أوقعهم كما نقول في «حيص بيص» فهو ببساطة شديدة يطلب الإذن بدخول الكويت والعراق!.. نظرًا لإيوائهما وتآمرهما مع المتمردين عليه، وعدم التزام الحكومة البريطانية بتعهداتها.. ما يهدد العلاقات بين الرياض ولندن..!

---

(١) وقال مترجم الديوان الملكي: «وكان الملك مستاء من الكويتيين أيضًا لأنه وجدت خطابات في معسكر الدويش تثبت أن الثوار قد تسلموا تموينًا وأسلحة من الكويت».

ولما كان من عادة ابن سعود أن يشفع القول بالعمل، فإن الحشود التي حشدها، والحملة الإعلامية التي شنها في أوروبا والعالم الغربي، أقنعت بريطانيا بأنه جاد كل الجد في تنفيذ إنذاره. ومستعد للمخاطرة بصدام علني مكشوف معها. وفي نفس الوقت أكدت معركة السبلة، وما تلاها من مناوشات أن الجن يرعبون كل الكائنات إلا سليمان! وأعلن ابن سعود أنه سيطارد الدويش حتى قصر ابن صباح إذا ما استمرت الكويت[1] تفتح أبوابها للمتمردين، وأيقنت بريطانيا أن اللعبة انتهت.. فنهت ابن صباح وفيصل العراق فانتهيا!

وبانسحاب الدعم البريطاني، وظهور ابن سعود في الصحراء تبخر جيش المتمردين.

أحس الدويش بالدنيا تضيق من حوله: أبواب الكفر كلها مفتوحة أمامه، أما باب الإيمان، باب الإمام، باب الأيام المجيدة، فهو وحده الموصد، وكل يوم تزداد الأقفال عليه عددًا وغلظة. والدويش مؤمن بأنه ليس هو المسئول عن بقائه خارج الباب، وأنه ليس هو الذي ابتعد، ولكنه أيضًا غير مؤمن بقناعة الآخرين بأن الإمام هو الذي أوصد الباب، وهو يريد أن يبري ذمته، ويعلقها برقبة الإمام.. فهو الذي أقام الباب، وهو الذي يرفض أن يزيله، وهو الذي يضغط عليهم ويدفعهم -بزعمه- إلى الكفر!

هو ممزق النفس، حائر لا يرى ما هو الصواب ولا أين الطريق.. فليلجأ للإمام

(١) كان الملك قد قدم احتجاجًا على بيع السلاح للمتمردين عليه، وكذا على نشاطهم في الكويت. فرفضت بريطانيا الاحتجاج بزعم أن الكويت مشيخة مستقلة وأن معاهداتها مع ابن سعود تفرض عليهما منع النشاط المعادي في «أراضيها».. و«الكويت لا يمكن أن تسمى «أرضًا بريطانية»»!

وهكذا تبين من التفسير الإنجليزي أن ابن سعود عندما وقع المعاهدة، كان يتحفظ على النشاط المعادي له في هيدبارك وترافلجار سكوير!!

لعل من الحوار معه يعرف الحقيقة، وهكذا يكتب لإمامه معاتبًا، مهددًا، مستعطفًا، باكيًا، شاكيًا..

وللأسف، فإن رغبة الكتاب والمؤرخين في تحطيم الدويش، امتدت إلى رسائله للإمام، ولو أمكن الحفاظ عليها ونشرها كاملة، لشكلت تراجيديا تاريخية ومادة للدراسات والأشعار والمسرحيات، وفصلا هاما في ملحمة الحل الإسلامي. وذلك على ضوء الرسالة الوحيدة الكاملة والناضجة التي بعث بها إلى الأمير سعود بن عبد العزيز والتي حفظت في المحفوظات البريطانية. أما رسائله لعبد العزيز في المصادر العربية فلم يصلنا إلا رسالة ونصف رسالة وموجز رسالة ثالثة؛ وفيها نرى الدويش يتقمص شخصية البطل الإغريقي، فخروجه كان مكتوبًا.. قدرًا مقدورًا.. ومن كتبت عليه خطى مشاها.. ثم إعلان الضعف والعجز وطلب الرحمة حتى لا يضطر إلى الدخول في الكفر[1]! فيرد الإمام بقسوة، ولكنه يعطيه العفو ويفتح له باب الإيمان، ولكن الدويش لا يريد أن يعبر من باب الإمام، ربما لأنه شك.. ربما لأنه مثقل بالذنب، فيعود للمراسلة، الحوار عنده كان أهم من الموقف.. كان يريد أن يسمع وأن يقول، أن يدافع عن موقفه، ولو بينه وبين إمامه وحدهما.. إن لم يكن للتاريخ فلضميره ولذكريات الإمام.. وهكذا جاءت رسائله مناجاة!

«من فيصل بن سلطان الدويش إلى جناب الإمام المكرم عبد العزيز عبد الرحمن الفيصل سلمه الله تعالى. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام. بعد ذلك خطك وصل وما عرفت كان معلوم من جميع الأمور. ولكنا حنا

---

(١) رسالته بتاريخ ٤ رجب ١٣٤٨ –ديسمبر ١٩٢٩.

إلى ها الحين، ما طاب خاطرنا منك والظن فيك يا بوتركي غير ما ذكرت لنا. وهذا واصلك سلطان بن مهيلب.

ونبيك إن شاء الله تؤمنا أمان ما فيه تفتيش. وباقي الجواب من رأسه أبلغ. هذا ما لزم تعريفه مع إبلاغ السلام العيال والمشايخ. ومن هنانا الإخوان يسلمون والسلام».

٤ رجب ١٣٤٨.

أما «ملحق الخير» الذي اعتاد أهل الجزيرة إرفاقه بالرسالة، وهو -كما يقال -أهم دائمًا من الرسالة ذاتها، فقد جاء فيه:

«بقي بالخاطر سلمك الله. تذكر في خطك أن الدروب مسدودة علينا وأنه ما بقي لنا حيلة وأنا مضطرين إليك. هنا سلمك الله بخلاف ذلك بحول الله وقوته. ولولا غلاك ورفقتك كان كل أمر نبيه مدركينه، **وكل يجذبنا** وأي طريق نبيه نضربه ما لنا معارض.

ولكن مثل ما قلت، **وغلاك ورفقتك ولاودنا بمداخل الكفر**. ويكون عندك معلوم ويتقرر في عقلك ولا تشكك أني **لولا بغضي للكفار ولاودي أدخل حدر ولايتهم كان ماكريت لك جميع مركوب ولكن ماودي في ذلك وأدرأني في ذلك صادق ومعنى خطك اللي جانبي منك** في وفي أركايبي. وأنت تخبرني ماني راعي مكر ولا تلواسات. اليوم أدخل على الله. **لا تحدنا على الكفر**. وحسبنا الله ونعم الوكيل، والله خير كافي ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»...

الذين لا يعرفون علاقة فيصل وعبد العزيز، أو لا يفهمون معنى التحول الذي حققته دعوة عبد العزيز في نفسيه فيصل، قد لا يفهمون هذه الرسالة بل إن المؤرخ

سيحتاج إلى طبيب نفساني لتفسير رسالة ثائر متمرد، وزعيم رهيب السمعة، يكتب للحاكم الذي يحاربه: «ولولا غلاوتك عندي»! وترجمة ملحق الخير هي: **بقي شيء بالخاطر**، سلمك الله. ذكرت في رسالتك أن المسالك سدت علينا، ولولا أنه ما بقي لنا منفذ ولا حيلة، لما جئنا إليك، فأنت ترى أن لجوءنا إليك لجوء المضطرين. ولكن سلمك الله نحن وضعنا خلاف ذلك بحول الله وقوته، ولولا غلاوتك عندنا، وما كان لنا من رفقة، فإن كل ما نطلبه ندركه. وكل القوى تجذبنا إليها، وأي طريق نختار مفتوح لنا. ولكن كما قلت لك غلاوتك ورفقتك وأننا لا نريد أن ندخل في الكفر. وليكن معلومًا عندك، ولا يجوز أن تشك أنه لولا بغضي للكفار، وأنني أرفض الدخول في حمايتهم أو سيادتهم، ما كنت قد أرسلت لك رسولا. ولكن لا أرغب في ذلك. وأنت تعلم أنني صادق، ولا أمارس التضليل والخداع. اليوم أدخل على الله (أي موشك على الموت ومقابلة الله -على ما أعتقد أو التجئ إلى الله كما فسر الدكتور الخويطر -لا تدفع بنا إلى الكفر.

والرسالة الثانية: ٦ رجب ١٣٤٨ -ديسمبر ١٩٢٩: «والله لوحنا مشتهين حجى غير حجى الإسلام. إن كل باب مفتح لنا، مثل ما انفتح لناس غيرنا من قومك خاصة، ولكن يا عبد العزيز أتق الله في المسلمين، ولا تردهم للكفر بعدما ذاقوا طعم الإسلام، وحنا نبي من الله ثم منك يا بوتركي إنك تدفن ما فات بيننا وبين أهل نجد من الدماء والأموال ترى ما عندنا زايد، الزيادة عندكم». وقد أكتفى الناقل بهذا النص وترجمته هي: «لو كنا نشتهي غير الإسلام، فكل الأبواب مفتوحة لنا، مثل ما فتحت الأبواب لغيرنا من قومك خاصة ولكن يا عبد العزيز اتق الله في المسلمين ولا تردهم للكفر بعدما ذاقوا طعم الإسلام. وحنا نبغي منك يا بوتركي.. الخ».

لقد كان يحلو لهذا «الربع» من الإخوان تقمص دور الصحابة، والاقتداء بسلوكهم، كأنهم -كما وصفهم الريحاني -يشتركون في تمثيلية عن صدر الإسلام، ويبدو أن الدويش كان في هذه المرحلة يمثل أولئك الذين قال فيهم المولى ﷻ: «ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا».

وهذا نص رسالة الدويش إلى الأمير سعود[(١)]:

بسم الله الرحمن الرحيم

من فيصل بن سلطان الدويش إلى الأخ المحترم الأمير سعود بن الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل.

خطابك وصل وما فيه عرف. بخصوص نصحك لي بأن أخضع لأوامر أبيك الإمام. فلابد أن تتأكد أن عين مطلوبي هو تلبية أمرك وخاصة بعد عطف أبيك نحوي بعد معركة السبلة.

وبالله فأنا راغب في تقديم مالي وما أملك لإرضائه لولا أمرين يجعلان هذا الأمر صعبا علي وفوق طاقتي.

أولهما: إجباري على رد المنهوبات.

وثانيهما وهو الأصعب:

- لقد غزونا المشركين والناكثين للعهود الذين بنوا القصور، وحرضوا

(١) من وثائق الخارجية البريطانية عام ١٩٢٩ -١٣٤٨/٤٧.
Mss Vol 13736 No 3457: From The Ikhwan Movement of Najd P.317 جون حبيب.

رعاياكم على التمرد عليكم. ولقد عرفت أباك بكل هذا. وهو هو خلاف الإخوان ضد أبيك. أما ما عدا ذلك فكل مسالككم مقبولة منا حفظكم الله.

- المنهوبات ضاعت وليس لدي منها شيء، وقد خطر ببالي، كما أدخل الناس في روعي أن هذا المطلب ليس إلا شرك للإيقاع بي، وأنكم إما ستقتلونني أو تسجونني..

يا سعود.. لقد تركت البادية ومشيختي وضحيت بثروتي في طلب عطايا الله ومحاربة المشركين. فإذا كنت تريد أن تكفنا عن محاربة الكفار، وإذا ما ارتكب أحدنا هفوة، قتلته أو سجنته، فهذا هو الظلم والذل لرعاياك الذين قد ينفضون من حولك ويشكون في إيمانك، ويجزمون أنك تعارضهم في دينهم وتدهن مع النصارى.

والنصارى وتابعهم فيصل ما قصروا قدر جهدهم في الكيد لكم، فكل من ذهب إليهم من أهل نجد قووه وأكرموه وحثوه على شق عصا الطاعة على آل سعود، ومنوه بأنه سيعطى كذا وكذا. ومنذ العام الماضي وأبو حنيك(١) ينصحني وغيري. وقد بلغتكم ذلك في وقته.

وأكبر دليل أنك تعرف أن ابن صباح لا يساوي جناح بعوضة لا عند النصارى ولا عند العرب. ومع ذلك أعطى ابن مشهور أسلحة وذخائر وأموالا. واتصل بالعجمان وأخبرهم أن لهم ما شاءوا، ووعد بتلبية طلباتهم. وأخبرهم أن يذهبوا إلى «**وفرة**» وفي حالة مطاردة سعود لهم فإن أرضه مفتوحة لهم ليدخلوها وأنه سيخاطب النصارى لمصلحتهم.

---

(١) أبو حنيك هو الجنرال غلوب. وهذه تفضح كل ادعاء لغلوب وتثبت اتصاله بهم ونصحه لهم بالعمل ضد ابن سعود.

ويجب أن يكون في علمك وخاطرك أن النصارى إن لم يكونوا يخادعونك ولا يريدون فتنة رعيتك لكي يظهروا عليك لما جرؤ «صاحب»[١] الكويت على معارضتهم بل لأنه يخضع لأمرهم وأنا أتسلم في هذه الأيام وعودًا مغرية من العراق والكويت إذا ما انفصلت عنك.

وقد منعتني أيضا من غزو البدو، وهكذا أصبحنا لا مسلمين نحارب الكفار ولا أعرابا بدوا يغير بعضنا على البعض ونعيش على ما ينهبه كل منا من الآخر فمنعتنا من ديننا ودنيانا.

حقا لقد فعلت ما بوسعك من أجلي وعشيرتي.. ولكن ماذا عن قبائلي.. أين يذهبون؟ إنهم سيهلكون[٢]، وكيف سترضى بذلك. في الماضي كنت تصفح عن مسيئنا، ولكنك الآن تعاملنا بالسيف وتعفو عن النصارى، تغمض عن كفرهم وعن القلاع التي بنوها لتدميرك. ولذا أصبحت خائفًا وغادرت الأرطاوية إلى اللصافة. فإن أردت أن نبقى في طاعتك فانظر في أمورنا.

نريد منك ثلاثة أشياء يعدنا بها أبوك في العفو إذا وافق الشيوخ[٣]، وتتعهد أنت بها يا سعود.

أولًا: أن ننسى الماضي.

ثانيًا: إطلاق سراح السجناء من الجانبين.

ثالثًا: السماح لنا بمقاتلة الكفار على أن يرافقنا واحد منكم يا أولاد عبد العزيز.

---

(١) ترجمة: Man of Kuwit.

(٢) كانت سنوات جفاف قاتلة.

(٣) أي عبد العزيز.

فسنواصل طاعتكم فإذا قتلنا لا نبالي، ولو انتصرنا كان ذلك لكم. كما فتح إخواننا من أهل الغطغط الحجاز فأصبح لكم وباسمكم.

فإذا رضيت بهذه الأمور فأنا أعدك بأن أكون خادمك وعبدك ونطلق يدك في مالنا ودمنا. وسيعدك إخواننا السجناء بنفس الوعد. قومك هم أهل نجد فلا يخدعك من حولك.

أما عن البدو فإنهم عندما يرون معاملتك لنا ويرون كيف يستقبل الكفار هؤلاء الذين يهربون منك، فوالله لن يبقى منهم أحد حولك. وأنت تعلم أن خيرهم دينا وأقربهم إليك. هم أولئك الذين قتلتهم وسجنتهم.

فإذا كنت راغبًا فينا فابعث إلينا أحد العلماء المعروفين. وأطلق سراح السجناء في الرياض. وأقسم بالله أنه في هذا الاجتماع بين العجمان ومطير وغيرهم أننا سنهاجم المشركين قبل أن نأتي إليك.

مازالت أملا فيكم. وأعرف حب أبيك لرعاياه، وحبه لمسامحتهم فهو حكيمنا نحن العرب. فأعطنا أمانا خاصا يضمن سلامة العجمان وابن مشهور وكل الذين معه وأنس الماضي.

نسألك بالله أن لا تصدنا أو تبعدنا خائبي الرجاء أو تحرمنا من ودك ونعمة الإسلام وتجبرنا على التوجه للنصارى الذي نبغضهم ويبغضوننا.

فإذا وافقت يمكنك اختيارنا لأي عمل وسترى ما نفعل. وإن وقعت حادثة أخرى، فافعل ما شئت.

بالله لقد تركنا عشائرنا تبكي.. النساء يبكين ونحن نبكي..

سعود يا أخي لا تسلم محبيك لأعدائك.

وإذا سمحت فأرسل الرد سريعا، وتنبه لأمر واحد، أن أعداء دينك لن يساعدوك.

عبد العزيز يرسل تحياته.

والسلام رجاء للشيوخ وأولاده.

فيصل الدويش.

ويفهم من الرسائل الآتي:

١- الاعتراف بإمامة عبد العزيز. فالدويش لم يخلع البيعة إلى آخر لحظة.. ولعل هذا يفسر لماذا لم يقتلهم عبد العزيز عندما ألقى القبض عليهم.

٢- الاعتراف بوجود اتصالات مع أكثر من جهة، وكلها تحاول جذب أو كسب الإخوان.

٣- ومع ذلك فكل هذه الجهات هي «الكفر» و«الإسلام» في السعودية وحدها سواء في المعسكرين المتقاتلين أو بنسبة متفاوتة بين المعسكرين، ولكن التحالف مع القوى الأخرى يعني التخلي عن الإسلام والدخول في الكفر، وهو لا يريد ذلك اعتزازا بالإسلام، وإعزازًا لرفقة الجهاد مع عبد العزيز الذي بضغطه ورفضه (ماذا؟!) قد يدفع الدويش والمسلمين الذين معه إلى الدخول فيما يكرهون من الكفر. فلا تدفعونا إلى الكفر بقبول حمايتهم أو مساعدتهم.. وإن فعلنا فلن

نكون أول من فعل، فقد لجأ أقاربك إلى الشريف حسين، والد الملك الذي يدعونا اليوم للجوء إليه...

٤- المشكلة الكبرى هي البحث عن هوية.. فإذا لم نكن مسلمين نحارب الكفار فهل نحن أعراب نمارس الغارات والنهب؟ أما ماذا؟..

٥- إدراكه أن كل اتصالات النصارى وأعوانهم معهم وتشجيعهم على الثورة والتمرد، هو للكيد لابن سعود وتدمير دولته.

٦- رأيه لم يتغير في ابن صباح منذ غزوة الجهرى، فهو عنده لا يساوي جناح بعوضة، وهو يعرف أنه لا يملك من أمره شيئًا ولا يساوي عند الإنجليز جناح بعوضة، وهذا يفند زعم تلميذة فاتيكوس أن الدويش عرض على ابن صباح رئاسة الإخوان إذا سمح لهم بالرعي في آباء الصبيحية!.. ونسبت ذلك إلى رسالة بتاريخ ٩ محرم ١٣٤٨ -١٧-٦-١٩٢٩. ولكن في النص الذي قدمته لم نجد شيئًا يعزز دعواهـا، بالعكس إن الدويش الذي عرض الإسلام على عمه قبل عشر سنوات يوجه إليه نفس اللطمة بدعوته للإسلام فيقول:

«أولًا قبل كل شيء نتمنى أن تؤمن بما نؤمن بتعاليم الإسلام ونحن ندعوك لتكون إمام الجيش العظيم الذي ساقه الله إليك وتكون واسطة بيننا وبين الحكومة الإنجليزية كما كان ابن سعود بالنسبة لنا».

فلا مجال للافتراء بأنه عرض عليه رئاسة الإخوان إذا ما سمح لهم بالرعي، بل عرض عليه الإسلام. ومن الطبيعي أن يصبح الإمام في حالة تدينه!

- الحيرة والاضطراب فهو ما بين طلب إعفائه من رد المنهوبات، والتفاخر بالإصرار على السماح له بغزو المشركين.

ولقد ظل الإمام حتى آخر لحظة يتمنى عودة الدويش ودخوله باب الطاعة، ليموت تحت الراية التي لا ينكر إلا جاحد جهوده في نصرها ونشرها. والتي أذاقته «طعم الإسلام» على حد تعبيره. ولكن الدويش كان أعجز من أن يتخذ هذا القرار، ولذلك ظل يتدهور، تحت تأثير بعض الذين انضموا إلى الثورة بأحقاد الجاهلية، والاحن البدرية، فلما قتل «عزيز» ابنه أمر بقرب الماء أن تفرغ، كما أحرق طارق بن زياد السفن، ولكن هيهات.. فقد هزم.. هزيمة منكرة على يد العوازم، وهم من أهون القبائل شأنا في معايير القتال!.. وهذا الصقر الذي لا تغمض له عين، هوجم وهو نائم، وهزمته حرب وظفير ففر إلى الكويت.

واقترب الدويش من باب الكفر..

هذا الشامخ الذي كان جنوده يرفضون إلقاء السلام على ممثل بريطانيا في بلاط ابن سعود، وكان اسمه يبعث الرعب كالإعصار والزلازل مسافة أميال. وجد نفسه يجلس في خيمته يكتب خطابات إلى غلوب.. الضابط البريطاني الذي أطار الدويش النوم من عينيه شهورًا وغرس في قلبه الحقد الذي لا يبرأ!..

وكان قد عثر في أوراق الدويش، على مسودة رسالتين: قيل إنهما من إملائه، بهدف إرسالهما إلى فيصل ملك العراق، وغلوب المفتش الإداري البريطاني عند الحدود العراقية. ولكن ما من مصدر أثبت أنهما أرسلا فعلا، وما من دليل على أنهما من إملاء الدويش وليس لأحد رفاقه مثلا.. وهذا نصهما:

«من فيصل بن سلطان الدويش إلى جناب المكرم المحترم فيصل الشريف سلطان العرب سلمه الله تعالى. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وموجب الخط إبلاغ السلام والتحية والاحترام وبعد ذلك ألفوا علينا رجاجيلنا اللي جو

منك في قرعة مديرس شمال الحضر، ومن طرف العربان أسفلهم العجمان في مهزول وفوقيهم حنا إلى ابرق الحباري وإلى عذيبة، والرحيل. ومن طرف حنا في ها لحدود ونجد فيها فرصة لحرب ابن سعود ولكن حنا أوذونا سرقان الضفير رعية الحكومة بالسرق. واليوم بارك الله فيك تدري أننا ما نقدر نضرهم بسبب الحكومة وحنا نبيك تكفينا عن الحكومة ورعاياها ولأجل نتفرغ لنجد وحربها وهم يسوقوننا في طيارات وتنابيل ويقولون ارجعوا لابن سعود، وإلا شملوا مع الحجرة، حدود ابن سعود ردية، ولا ندري وش مرامهم في ذلك، وأنت سنعنا إما خذلنا أمان الحكومة، وإلا سنعنا على سنع بين».

والثانية:

«من فيصل بن سلطان الدويش إلى جناب عالي الجناب كبت قلاب، بعد التحية، والاحترام. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1]: بعد ذلك تعلم ويتقرر في فكرك ويكون عندك معلوم إنا أهل صدق نأخذه ونعطيه، ولا نعرف الغدر والخيانة وتعلم مماشينا مع ابن سعود في السابق وأنه ما وصل ها لمواصيل إلا بسببنا. ولما رأينا غدره وخيانته فينا خاصة، وبالناس عامة، فارقناه واليوم أحببنا إننا نصير رعية لكم وموامير لكم ونصير حدر يديكم وجند لكم ولا نعصي أمركم وباقي الجواب من رأس الطارش[2] أبلغ. هذا ما لزم تعريف جنابكم الشريف ودمتم. حرر في ١٣ رجب ١٣٤٨ من عندنا علي بن عشوان وجاسر بن لأمي، وفيصل بن شبلان وابن جربوع وعلي بوشويربات، وصنيتان المريخي، وابن حنايا يبلغون السلام».

---

(١) أشك شكًا كبيرًا أن يكون فيصل الدويش هو موجه هذا السلام إلى «الكافر» الإنجليزي. ورسوله رفض إلقاء السلام على الإمام عبد العزيز!

(٢) أي الرسول حامل الخطاب. الذي لم يذهب.

وعندما جاء الإنجليز بالدويش أسيرًا، عاتبه الملك، فأشار إلى رسالة الدويش إلى غلوب، ولكن المصادر المعاصرة، لم تسجل ردًا مباشر للدويش على موضوع الرسالة. وإذا كان ما أورده وهبة صحيحًا عن الحوار، بين الملك والأسير، فإن الدويش إما أنه لم يسمع إشارة الملك، أو حاول أن يرد ردًا عامًا..

«قال الملك: ألا تخاف الله حينما تكتب لغلوب إنك تريد الهجرة للعراق. وإنك تحب أن تكون تابعًا له؟ فهل تظن أنك كنت ستكون في منزلة أعلى من منزلتك التي كنت عندي فيها؟»

«فقال الدويش: يعلم الله يا عبد العزيز أنك لم تقصر معنا، وقد فعلت كل ما يبيض وجهك، وقد قابلنا معروفك بالإساءة، لقد فررنا من وجهك إلى الكفار. فحملونا إليك في طيارة من طياراتهم، ويكفي ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الإخوان بعدما كنت عزيزًا محترمًا. قاتل الله الشيطان! لقد أغرانا وزين لنا سوء أعمالنا. فأوصلنا إلى ما أصبحنا فيه الآن»!..

فهل كانت هذه الرسائل مجرد محاورة داخل هاملت الممزق، أو انتصر فعلا «هايد» المطيري على جيكل الإخواني؟!

لا أدري...

ولا أريد أن أعرف!

وتزعم إحدى الروايات أن الدويش عندما توجه للكويت وطلب اللجؤ من القنصل البريطاني الكولونيل ديكسون، رفض ديكسون في البداية، ولكن الدويش خلع «عمامته» (عمامة الإخوان) ووضعها على رأس ديكسون، وهي عادة قديمة عند العرب معناها التسليم الكامل وطلب الحماية، فوافق ديكسون، واعتنت زوجته بنساء الدويش الجائعات»!

ثم لا تقتصر المأساة على هذه المذلة، بل يصدق عليه المثل القائل:

ولــكـــن الـغـبـن لـــو ذلـــوا فـنـالـوا

فكيف بـهـم وقـد ذلـوا وخـابـوا..؟!

إذ خاب ظنه في شرف «الحكومة» التي بدأت تساوم عليه عبد العزيز، حيث جرت مفاوضات قاسية، وتبادل الاتهامات وطلب تغيير المتفاوضين، «واقترح الإنجليز حبس الدويش في العراق، أو إرساله إلى الهند، أو إبقائه في سفينة في الخليج، فأصر الملك على تسليمه وهددهم قائلا: ستتحملون كل العواقب، إذ لم تتصرفوا التصرف الصحيح»..

وخضع الإنجليز وجاءوا به مقيدا[1] وقال له عبد العزيز: ظننت أنك تنحوا باللجؤ إلى الإنجليز؟!».

وسجل التاريخ مأساة أخرى من مآسي التاريخ العربي.. تخيل لو أن هوشي منه عاش، وعقب النصر جيء بالجنرال جياب مقيد اليدين على طائرة أمريكية، حيث جرى تسليمه بعد ثورة فاشلة ضد قائده وزعيمه.. انتهت باستسلامه في تايلاند أو سيغون؟!

(١) قال ابن مانع أن الدويش حبس في سجن الرياض مع المجرمين العاديين (وهل كان في الرياض سجن سياسي عام ١٩٣٠-١٣٤٩؟!) الذين كانوا يسرقون منه الطعام فلم يعش طويلا، ومات خلال ستة شهور (معظم الروايات تقول سنة فقد مات عام ١٩٣١-١٣٥٠ وكان تسليمه في خبارى وضحًا من يناير ١٩٣٠-١٣٤٩ بالسكتة القلبية) والبعض قال بانكسار القلب...

كذلك انتقد ديكسون الملك عبد العزيز لأنه في زعمه عامل زعماء الإخوان بقسوة بينما كانت الفروسية العربية تكفي. ولا ندري أين هي القسوة في سجن ثائر عفت عنه الدولة بعد حرب دامية.

فعاد إلى القتال من جديد وهدد الدولة في صميم وجودها.. ما هي الرحمة أو الفروسية التي عاملت بها الإمبراطورية الثوار البريطانيين من طراز الدويش؟!

عبد العزيز لا قتل ولا صلب ولا عذب كما تجمع كل الروايات. وقد مات الدويش في السجن بسرعة لم تتح الفرصة لامتحان عفوه عندما تستقر الأحوال. أما ابن بجاد فقد عاش بالسجن خمس سنوات وموقف الملك منه معروف.

ولكن ذلك هو قدر العربي![1]

ويمكن القول بأن الإنجليز أرادوا ثورة الإخوان وساعدوا على تأزمها وانفجارها. وجرها إلى المصير الذي انتهت إليه، ولكنهم بالطبع لم يخترعوها، فكما قلنا، لا الإنجليز ولا أية قوة، مهما كان تفوقها أو نفوذها، تستطيع اختراع ثورة. أو تفجير ثورة في بلد ليست حبلى بها بالفعل، فالعقيم لا تجهض، أو لا حاجة لإجهاضها. فما كانت بريطانيا بالتي تطمئن على مستعمراتها وعملائها، إذا ما ظل عبد العزيز يقود تلك الحركة سواء قادها للجهاد المباشر بعد فتح الحجاز، أو اعتمد أسلوب تصدير الثورة، بالأفكار والدعاة والمتطوعين مع تطوير الحركة وأفكارها داخل السعودية. ولذلك كان لابد من المواجهة، وقد لجأ الإنجليز لأسلوبهم المفضل، وهو تفجير القوة المضادة من داخلها. فلما كشفهم عبد العزيز، وتمكن من سحق مقاومة المتمردين، في المواجهة العسكرية التي لم تكن أبدا بحجم أو شراسة ما كان يفترض في هذا الصدام. وأيضًا بالمواجهة العقائدية التي سحبت قواعد الإخوان من حول الدويش التي رأت الطريق الخاطئ الذي يسير إليه المتمردون، فعادت إلى طاعة الملك، ولو بتحفظاتها. وقد رأينا غلبة العناصر غير الإخوانية بجيش الدويش، في المواجهة الثانية بعد السبلة. عندها وجدت بريطانيا أن الهدف الرئيسي قد تحقق وهو تفجير قنبلة الإخوان داخل نجد وليس خارجها

(١) قال الشيخ حمد التويجري للمؤلف، أنه شهد لقاء فيصل الجريح بالملك عبد العزيز حيث مد فيصل يده قائلا للإمام: «هات يدك أعاهدك» فرد الملك لا تعاهدني أنت لا تعرف العهود ولا تحترمها. أنا أصون العهد أنا أخو نوره. ولكن الدويش خطف يد الإمام غصبا وقال: «أعاهدك بالذي رفع «سبع» وطمن «سبع» عدو عدوك وصديق صديقك ولو كان ابني عزيز وأن كذبت الله يرميني بين يديك أذل من إبليس يوم عرفه». فرد الملك «الله ربي وربك».

(لقاء معه في منزل الشيخ عبد العزيز التويجري، ديسمبر ١٩٨١).

وتخلصت بذلك من سيفهم المعلق فوق امبراطوريتها في جزيرة العرب وما حولها. وأنه لا سبيل إلى عبد العزيز الذي خرج أقوى من الناحية العسكرية داخل الجزيرة.

زال خطر «الحركة» السعودية، ولكن بقيت «الدولة» وكان على بريطانيا أن تقبل أهون الشرين، مادامت قد عجزت عن تحقيق الهدف كله وهو القضاء على الحركة والدولة معا. على الإخوان وآل سعود. والمجتمع الدولي يفضل التعامل مع «الدولة» على التعايش مع «الحركة». فالدولة قوة مادية، وكل ما ينتمي إلى عالم الماديات، يمكن حساب طاقاته ودراسة إمكانياته، ومن ثم تحديدها داخل إطار المعادلات الإقليمية والدولية، والحدود الدولية الملتزمة بها أو المطوقة لها. أما «الحركة» فهي طاقة غير مادية، حافلة بالمفاجآت، صعبة التقييم، لا يمكن حصرها داخل حدود، ولا داخل معادلة ثابتة، لها قدرتها على الانتشار والتفجير المتسلسل أو نظرية الدومينو. في منطقة كانت قد بدأت تعود بعنف للمطالبة بالحل الإسلامي، بعدما انهارت أسطورة الهاشميين وسقطت الأماني والأوهام في الحل الأوروبي، وهزم الوفد بعلمانيته في مصر.. وبدأت حركة الإخوان في مصر، والقسام في فلسطين.

لذلك قبلت بريطانيا تلك النتيجة على مضض، واستمرت في عدواتها لعبد العزيز خلال وفي أعقاب احتفالات تسليم زعماء الثوار. والذي يرويه «غلوب» وغيره عن المناخ الذي دارت فيه مفاوضات التسليم، لا يوحي أبدًا بصداقة أو تعاون، فضلا عن نصر مشترك أو امتنان سعودي لدعم بريطاني مزعوم.

فالكلولونيل بيسكو رئيس الخليج، الذي جاء بنفسه ليسلم الدويش، ما أن عاد إلى مقره، حتى رفض الأذن للملك بالنزول في البحرين، عندما حالت عاصفة بحرية دون نزوله في رأس التنورة بالسعودية. ولكن شعب البحرين وشيوخها

أحبطوا المؤامرة واستقبلوا الملك على الميناء. وقد ذكر وهبه أن الملك غضب من إهانة بيسكو هذه، وظل ممتنعًا عن السماح له بمقابلته إلى أن أجبرت الحكومة البريطانية بيسكو على الاعتذار للملك.

وفي البحرين لم يحاول الملك إخفاء الخلاف أو دور الإنجليز بل قال صراحة لحبيبه القديم الشيخ عيسى: «لقد حاولوا إحباط عزمي على النزول، ولكن يأبى الله إلا ما أراد، ولا راد لأمره، لقد أراد الله أن أنزل إلى البحرين وأن تقر عيني برؤيتك، فالحمد لله على ذلك». ورد الشيخ العجوز الذي كان قد خلع، بعدما تجرع من كؤوس الذل البريطاني، ما جعله يرى في عبد العزيز الانتقام العربي، أو انتصار الحق العربي على الظلم البريطاني. قال: «الآن وقد رأيت عبد العزيز في هذه الحالة، أموت راضيًا»!..

ومن مذكرات غلوب لا نستطيع أن نشتم رائحة ود أو تعاون كذلك الذي يحدثنا عنه مؤلف الجائزة.. يقول غلوب: «في الخامس من يناير ١٩٣٠ –رجب ١٣٤٨ وصل جيش ابن سعود إلى مواجهة معسكرنا. وبعث إلينا بوقد يحمل خطابا يسأل ما هي الخطوات التي ستتخذها الحكومة البريطانية لإجلاء العصاة من الكويت. أما رئيس الوفد فقد ألقى خطبة عنيفة ضد الحكومة البريطانية. وقد رددت بأني خادم الحكومة العراقية، ولذا فليس لي الحق في الكلام بصفة رسمية باسم الحكومة البريطانية أو شيخ الكويت!

«وخلال الأيام الثلاثة التالية، كان الوفد يذهب ويجيء بين ابن سعود وخيمتنا. بينما أنفق رئيس الوفد وقتا طيبا في إدانة حكومات الإنجليز والعراق والكويت بعنف».

وقد طلبت بريطانيا تغيير رئيس وفد المفاوضات، «وتجاهل ابن سعود الطلب» وبعد أن انتهت المفاوضات، طلب السير فرنسيس همفري من الملك عبد العزيز الموافقة على طلب من غلوب بالسلام عليه، فرفض عبد العزيز بإصرار لأن غلوب هو الذي أعطي المعلومات عن تجمعات القبائل، مما مكن السلاح الجوي البريطاني من القيام بغاراته داخل الأراضي السعودية(١). كما كان الملك يرى أن غلوب يمارس تأثيرًا سيئًا على العراقيين وأنه يعمل ضد مصالح العرب ويحارب تطلعهم للاستقلال».

ولكن السير فرنسيس كان خبيثًا، فنجح في استفزاز غريزة العدل عند الملك إذ قال: «كيف تحكم على الرجل، دون أن تراه وتسمع حجته؟!...» وهكذا سمح لغلوب بمقابلة الملك، وتحادث معه بعض الوقت. ولكني لا أعتقد أنهما تجاوزا حدود المجاملات الرسمية، وأجزم بأنه لم يقم بينهما أي تفاهم».

وكانت السنوات التالية هي سنوات الجذر في العلاقات البريطانية –السعودية والتربص المشترك، فقد اختلت المعادلات، إذ سقطت كل التوازنات، وأصبح ابن سعود وجها لوجه مع بريطانيا، ولذلك تشهد تلك السنوات أيضا، سعيًا حثيثا ونشاطًا دائبًا من قبل ابن سعود في البحث عن قوة موازنة لبريطانيا.. وقد جرت اتصالات مع الروس والطليان، ولكن عبد العزيز لا يراهن على جواد خاسر فقد استطاع أن يوجه أكبر ضربة للمصالح البريطانية، بل وللوجود البريطاني ليس فقط في الجزيرة والخليج، بل وفي العالم العربي كله.. بإدخاله القوة الوحيدة القادرة

(١) قارن بين موقف ابن سعود وكراهيته لغلوب بسبب الغارات الجوية، وبين ما يكتب الآن، عن حبه وشكره لغلوب بسبب هذه الغارات، التي يزعم الكاتبون أنها قد أنقذت عرشه ١٥م!.. عجبي!!

على مواجهة بريطانيا وتصفيتها.. الأمريكيين.. وذلك بامتياز شركة الزيت العربي -الأمريكية[١].

ومادامت سيرة النفط قد فتحت، فما يضيرنا أن نتذكر أن امتياز هولمز ١٦م البريطاني ألغي عام ١٩٢٨-١٣٤٧ وهو نفس العام الذي وقعت فيه اتفاقية الخط الأحمر.. ونال الأمريكيون امتيازهم عام ١٩٣٣-١٣٥٢..

وثورة الإخوان تقع بين التاريخين[٢].

ويمكن أن نلخص ملاحظاتنا على حركة الإخوان وأسباب انهيارها في الآتي:

١- ذكر لنا الأمير مساعد بن عبد الرحمن[٣] واقعة على جانب كبير من الأهمية، لم تذكر ولا طرحت في أية دراسة. قال إنه لما ظهرت حركة الإخوان كردة فعل طبيعية للمناخ الحركي الذي أثارته عودة البيت السعودي إلى نجد، والجذور المتأصلة للحركة الوهابية في تربة نجد، فبدأت جماعات من العظيمات من حرب وبني عبد الله من مطير تهاجر إلى منطقة ما بين حايل والقصيم، وشجعهم عبد العزيز. ثم عقد اجتماعا حضره الإمام عبد الرحمن بن فيصل والشيخ

(١) ويتحسر «غلوب» على امتياز الأحساء فيقول بأسلوب من لا يحمد على مكروه سواه.. «اكتب بعد خمسين عامًا من تلك الأحداث، ومن المثير أن نفكر في النتائج البعيدة المدى لأحداث ١٩٢٩- ٤٧/١٣٤٨. فلو انتصر الإخوان على ابن سعود، لعادت السعودية، إلى الفوضى القبلية، ولما وجدت الحكومة المستقرة التي يمكنها إعطاء شركات النفط امتيازات»!.. ويكاد يصرخ من بين أسنانه، «ولما نال الأمريكيون الامتياز»!

(٢) وفي رأي الشيخ حمد التويجري أن الإنجليز خشوا المصالحة بعد السبيلة فزوروا رسائل على لسان الملك وأبلغوها للدويش وهو لا يقرأ ولا يكتب، فأوهموه بوجود مؤامرة ضده فلجأ إلى ابن صباح رغم معارضة ابن عمه ابن مزيد، فأظهروا الاحتفاء به في الكويت ولكن طالبوه باستئناف القتال كشرط للدعم. فمن أجل كسب ثقتهم هاجم إبراهيم بن عرفج في القاعية وذبح الأهالي هناك وهرب ابن عرفج إلى المجمعة حيث سكن في بيت التويجري وطالب الدويش ابن صباح بتنفيذ وعده فأعتذر بأن الإنجليز منعوه!

(٣) في لقاء معه في قصره بالرياض مايو ١٩٨١-رجب ١٤٠١.

عبد الله بن عبد اللطيف والشيخ حمد بن فارس وعبد العزيز بالطبع. جرى فيه بحث هذه الحركة وإمكانيات تطويرها. وقد اقترح الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، ألا يترك هؤلاء في «هجر» خاصة معزولة في البادية، بل أن يشجعوا على سكنى القرى والمدن.

ويقول الأمير مساعد «إن نظرة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف كانت أكثر بعدًا، إذ خشي أن تصبح لهم عصبية خاصة، ولكن المجتمعين لم يأخذوا بوجهة نظره التي ثبتت صحتها فيما بعد».

وهذه الرواية تدعم تحليلنا، فالحركة حتى وإن كانت قد بدأت كتيار وهابي إلا أنها تدين في وجودها بهذا الشكل الخاص الذي عرفت به إلى عبد العزيز، فهو الذي احتضنها ووجهها وأعطاها ملامحها ودورها الخاص. وهو لهذا يتحمل مسئولية سلوكها وأمجادها.

ووجهة نظر الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف توحي بأنه كان يفكر في حركة بعث عامة، بتطعيم القرى والمدن بتلك العناصر المؤمنة لتكوين أمة مؤمنة. فالمهاجرون في عصر الرسول لم يقيموا «هجرة» معزولة في البادية، لم يقيموا المدينة الفاضلة في جزيرة منعزلة، بل حولوا أهل يثرب إلى أنصار، وتلاحموا معهم في تشكيل مجتمع جديد. فالتفاعل بين الصفوة التي اكتشفت حقيقة أفضل وبين الجماهير التي تتطلع لحياة أفضل، هو الذي سيخلق واقعًا أفضل، تصبح الصفوة فيه أكثر خبرة بالواقع، والجماهير أكثر سموًا.. يصبحون ملح الجماهير، لا طائفة معزولة عن الجماهير وعن الحضارة القائمة. معزولة بقيمها عن تلك المجتمعات، فتنمو العزلة وتتحول إلى جفوة مع الأيام.

ولكن عبد العزيز كان يخشى على تلك الفئة المؤمنة الطاهرة الإخلاص من تأثيرات القرى والنزاعات القبلية والتيارات المتصارعة في المنطقة، ولم يكن في وضع يسمح له بالدخول في معركة مع جماهيره من أجل إحداث هذا الانقلاب وما لابد أن يثيره من رفض وجدل بين تلك الجماهير، في الوقت الذي كان فيه عبد العزيز محاصرًا ما بين ابن الرشيد والأتراك والأشراف ومن فوقهم ومن تحتهم الإنجليز. ففضل أن يبقي هؤلاء قوة عسكرية -عقائد-ة مستقلة خاضعة لقيادته وتوجيهاته مباشرة مكتفيًا بأن يفرض بهم التحرير والحكم الإسلامي، تاركًا للزمن تشكيل المجتمع الإسلامي من خلال ذلك التفاعل المطلوب.

ولا نستطيع القول بأن وجهة نظر الشيخ عبد الله كانت هي الصواب. فتلك مراهنة أو حتى مقامرة على خطأ الإجابة الأولى. فلا أحد يعرف ما هي النتائج التي كانت ستحدث لو شجع هؤلاء الإخوان على سكنى المدن والقرى في مرحلة التكوين. ربما ذابوا أو تحولوا إلى مطاوعة ينادون في الأسواق بالصلاة، ثم لا شيء، ولوئدت التجربة قبل أن ترى النور.. فلا المجتمع كان متقدمًا مستقرًا، ولا الدعاة كانوا على المستوى المطلوب لتغيير المجتمع جذريا.

فنحن على يقين من حقيقة واحدة، هي أن الإخوان لأنهم عاشوا في معسكرات لم يستطيعوا إقامة مجتمع صدر الإسلام ولم تنبت لهم جذور في هذا المجتمع، فما أن هزموا في المعركة حتى تلاشوا.. ولكننا لا نعرف ماذا كان سيحدث إذا ما أخذ بالرأي المعارض لعبد العزيز.

- وقال الأمير مساعد أيضا إن الخلاف بين الإخوان وعبد العزيز لم يكن خطة مدبرة من أحد الطرفين للتخلص من الطرف الآخر. ولكن العقلية الغربية

عقلية تأمريه شريرة، تفتش دائمًا عن مؤامرة أو السر الذي لم يعلن خلف أحداث التاريخ، فالمنهاج العلمي في الغرب يقوم على الشك.

ونحن نؤيد هذا الرأي، فالإخوان ظلوا إلى آخر لحظة يتمنون استمرارهم تحت قيادة الإمام ليواصل بهم الفتوحات. أما عبد العزيز فكان يعرف أنهم شوكته ويحرص عليهم ليس فقط تقديرًا وامتنانًا لما قاموا به. بل وإدراكا لأهمية الدور الذي يمكن أن يلعبوه في المستقبل.

- وإذا كنا قد أفضنا في شرح الخلاف بين المنطلقين: استمرار الثورة، استمرار الجهاد لنشر الإسلام أو بناء دولة الإسلام. فإننا لا نتهم عبد العزيز بأنه اختار الدولة على الثورة، بمعنى التخلي عن الثورة.. وإنما نذهب إلى القول بأنه رفض نظرية حرق المراحل. أراد فترة هدنة تستجمع فيها الثورة قواها، ويشتد عودها بالدولة الجديدة. وتكتشف صيغة جديدة للانتشار. ربما بالقيام بدور تونس والمغرب بالنسبة للثورة الجزائرية. أو دور الاتحاد السوفياتي بالنسبة للشيوعيين، قبل أن ينتقل السوفيات لمرحلة الغزو المباشر.. وقد حدث فعلا في السنوات التالية أن أصبحت السعودية ملجأ لكل زعماء الحركات الوطنية في العالم الإسلامي، فلو كانت تنظيمات الإخوان موجودة، لأمكن لها أن تلعب دورًا كبيرًا في دعم هذه الثورات. ولربما تغير الموقف في فلسطين. دون حاجة لمواجهة رسمية مباشرة مع قوات الإمبراطورية البريطانية.

فالحقيقة التي يمكن الاطمئنان إليها هي أن عبد العزيز اختار الدولة من أجل الثورة أو الرسالة.. بينما اختيار الإخوان أضاع الثورة، وهدد الدولة ذاتها.

- تحدد مصير التجربة بظهورها في أقل البلدان العربية، إمكانيات، ومن ثم لم يكن البعث الحضاري يلوح في الأفق، ولا كانت الدعوة لحمل عبء تحرير

الأمة العربية تجد ما يدعمها من قدرات البلاد بعدما وصلت الحركة إلى المرحلة التي يتحتم فيها على الإيمان أن يتسلح بالتكنولوجيا إذا أراد استمرار المسيرة.

- لم يكن العالم الإسلامي ناضجًا، لا على مستوى علمائه، ولا على مستوى جماهيره، لإعلان الثورة الإسلامية، أو اكتشاف الحل الإسلامي. ولذلك انقسموا ما بين منتقد لعصبية الإخوان، وبين معجب بإيمانهم وتطهرهم مستدلا بهم على صواب الإسلام. ولو استطاع العلماء أو المثقفون طرح برنامج الحل الإسلامي، وهرعوا للتفاعل مع هذه الحركة. ولو تجاوبت الجماهير في العالم الإسلامي، ولو حتى في الدول المحيطة بابن سعود والإخوان، لما أحس السعوديون بالحصار، ولما نجحت مؤامرات الإنجليز وأعوانهم إذ كانوا سينشغلون في إطفاء الحريق في دارهم، عن إشعاله في مملكة عبد العزيز.

- وأخيرًا غياب المؤسسات التي تنظم العلاقة بين الإمام والقيادات، غياب التقاليد التي تنظم الحوار وتمنعه من الصدام.. ولقد حاول عبد العزيز أن يجتهد ومارس الحوار على كافة المستويات، من المؤتمرات العامة الموسعة والمحدودة إلى إرسال مندوبين للمحاورة في داخل كل معسكر إخواني إلى نشر محاضر المؤتمرات بأمانة لم تتكرر من حكومة بعده. ولكن جهوده لم تنجح في تطوير أسلوب حل الخلاف عما حدث في عهدي عثمان وعلي..

وهذه هي القضية الرئيسية في اعتقادنا.. إذ لابد لـمن يريدون الحل الإسلامي، أن يطرحوا مسبقًا تصورهم للمؤسسات والضوابط التي تضمن عدم تكرار التاريخ لنفسه. فقد ثبت أننا لا نملك عظمة هؤلاء الأسلاف التي استطاعت أن تغطي أخطاءهم بل وتحولها إلى تجارب غنية أثرت تاريخ البشرية.. لسنا مثلهم ومن ثم سنسقط وسقطنا كل مرة في أخطاء التاريخ دون أن ننجح في إعادة التاريخ ذاته..

ولقد كان مخلصا واعيا شديد الوعي، ذلك الرجل الذي سأل الإمام عليًا ابن أبي طالب: «لماذا اختلف الناس عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر» وإجابة الإمام أصابت كبد الحقيقة حيث قال: «لأنهم كانوا خلفاء على مثلي وأنا خليفة على مثلك..».

صحيح وهي إجابة حكيم ولكنها ظلت ناقصة، إذ كان المفروض اكتشاف صيغة تجعل حكم «مثل» هذا الرجل ممكنا مادام يستحيل أن نجد أمة كلها في مثل علي بن أبي طالب. وأصبح اليوم مستحيلا أكثر أن نجد حكامًا في مثل العمرين، **فلم يبق أمامنا إلا أن نكتشف الصيغة التي تجعل من الممكن قيام حكم إسلامي مستقر ومزدهر بين حكام ومحكومين من البشر العاديين.**

ولمثل ذلك يفتح باب الاجتهاد..

وقامت الدولة

وفي ١٢ جمادى الأولى ١٣٥١ الموافق العاشر من أغسطس ١٩٣٢: «اجتمع في الطائف لفيف من كبار الوطنيين، واتفقوا على أن يرفعوا القرار التالي إلى عبد العزيز: «الحمد لله وحده، إنه لما كان في هذا اليوم الثاني عشر من شهر جمادي الأولى من العام الحادي والخمسين والثلاثمائة والألف من هجرة صاحب الرسالة ﷺ، اجتمع الموقعون أدناه للبحث والمذاكرة في أمر فيه عز ومنعة وشرف وألفة، ووضع قرار يرفعونه إلى سدة حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، نصره الله وأيد ملكه».

وبعد أن أثنوا على شعب الجزيرة، وأكدوا وحدة عنصره العربي «لا فرق بين من أتهم منهم (سكن تهامة) ومن أنجد (أهل نجد) ومن أحجز (الحجاز) ومن أيمن (جنوب السعودية من جهة اليمن) وربما كانوا يعنون اليمن ويضعونها في آمالهم التوحيدية»، وهو ما رفضه عبد العزيز.

قالوا:

«ولما كان اسمها الحاضر هو: «المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها» لا يعبر عن الوحدة العنصرية والحكومية والشعبية، الواجب إظهارها، ولا يدل إلا على مسميات لأصقاع جغرافية لبعض أقطار العرب، تقصر عن الإشادة بالحقيقة الواقعة المشار إليها آنفا، ولا يرمز إلى الأماني التي تختلج في صدور أبناء هذه

الأمة للاتحاد والائتلاف بين جميع الناطقين بالضاد، على اختلاف أقطارهم وتباعد أمصارهم[(١)].

فإن المجتمعين يرفعون بكمال الخضوع إلى سدة صاحب الجلالة، أمنيتهم الأكيدة في أن يتكرم بإصدار الإرادة السنية، بالموافقة على تبديل اسم المملكة الحالي إلى اسم يكون أكثر انطباقًا على الحقيقة، وأوضح إشارة إلى الأماني المقبلة، وأبين في الإشادة بذكر من كان السبب في هذا الاتحاد والأصل في جمع الكلمة وحصول الوحدة، وهو شخص جلالة الملك المفدي، وذلك بتحويل اسم «المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها» إلى اسم «المملكة العربية السعودية» الذي يدل على البلاد التي يقطنها العرب، ممن وفق الله جلالة الملك «عبد العزيز آل سعود» إلى توحيد شملهم وضم شعثهم».

وقد كان اختيار التسمية أكثر توفيقًا من الحيثيات، فهم لم يقترحوا: «المملكة العربية العزيزية» حتى يقال إن التسمية «أبين في الإشادة بذكر من كان السبب في هذا الاتحاد، والأصل في جمع الكلمة وحصول الوحدة وهو شخص جلالة الملك». بل سميت السعودية، نسبة إلى البيت السعودي، وهو الأحق بأن يوصف بأنه «السبب في هذا الاتحاد..» الخ. ليس في هذه المرة، بل منذ أن توحدت لأول مرة، بعد العصر النبوي، ولعلنا لا نذهب بعيدا إذا قلنا إن نسبة المملكة إلى البيت الموحد لها، أو المنشئ لها، ربما تكون قد استوحت تاريخ الدولة «العثمانية» التي نسبت إلى عثمان رئيس تلك القبيلة المجهولة الصغيرة التي استطاعت بفضل «عثمانها»

(١) قد يستند إلى هذا القول في تفسير لفظه «العربية» في اسم المملكة بأنه يشير للوحدة العربية العتيدة. ولكن الحقيقة المشار إليها أنفا تتحدث عن أبناء الجزيرة فقط من «أتهم» منهم ومن «أنجد».. الخ ولم تقل من «اشأم» منهم ومن «أمصر». وقد شرحنا معنى «العربية» في اسم المملكة.

هذا، وبفضل تصديها للدفاع عن الإسلام أن تفرض وجودها أكثر من خمسة قرون، واستحق بذلك أن تسمى باسمه، مملكة تمتد من فيينا إلى خط الاستواء ومن بغداد إلى بلغراد وأن يصبح اسمه جنسية الملايين العديدة التي شكلت الإمبراطورية العثمانية.. فلعلهم تفاءلوا بأن تعيش الدولة السعودية عمر الدولة العثمانية.. وأن تتفادى أخطاءها، فذلك تضمنت العريضة ذات مطلبين أخرين: «سن نظام خاص وتوارث العرش».

وقد استجاب الملك -كعادته -وأصدر مرسومًا في ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ -الخميس ٢١ جمادي الأولى ١٣٥١ باتخاذ التسمية المقترحة: «المملكة العربية السعودية» وأيضا: «بتكليف مجلس وكلائنا الحالي، **الشروع حالًا في وضع نظام أساسي المملكة** (أي الدستور فالنظام الأساسي كان المصطلح الشائع في العالم العربي، والدولة العثمانية في الحديث عن الدستور) ونظام لتوارث العرش، ونظام لتشكيلات الحكومة وعرضها علينا لاستصدار أوامرنا فيها».

ونشرت أم القرى في عددها الصادر يوم ٢٢/ ٩/ ١٩٣٢ -٢٢ جمادي الأولى ١٣٥١ أن المرسوم الملكي رقم ٢٧١٦ يتضمن:

تشكيل جمعية مندوبين قريبًا لوضع النظام الأساسي للمملكة ونظام توارث العرش. وسيضم إلى جمعية المندوبين أي شخص أو أشخاص يمكن أن يفيدوا خلال إعداد الدستور والقوانين.

ولو نفذ هذا الأمر «حالا» كما كانت رغبة الملك ونص مرسومه، لربما كنا قد شاهدنا نموذجا هو الأول من نوعه، أعني قيام المؤسسات الحديثة في ظل المفهوم الإسلامي. ولتجنبت التجربة الكثير من الالتواءات، ولربما تغير مجرى الفكر

الإسلامي، ذلك أنه وقد خرج الإخوان من الساحة، وانتهى الدور الحركي، وبدأت محاولة بناء دولة تقوم على مبادئ الرسالة، وبنية صادقة من معظم الأطراف في إقامة أقرب مجتمع للتصور الإسلامي، إلا أن هذا المجتمع الجديد، افتقد لعنصر الوازع الشخصي، أو ضمانة الضمائر التي كان الإخوان يشكلونها بسلوكهم أو بعصيهم التي يضربون بها المنحرفين، نفس المشكلة التي واجهت المسلمين باختفاء جيل الصحابة والبدء في بناء الدولة الإسلامية، والقياس مع الفارق الكبير.

المهم كانت الحاجة ماسة للضمانات الدستورية المتعارف عليها في الدول الحديثة، وكذلك المؤسسات والتنظيمات التي تحدد الحقوق والواجبات، وتفصل بين المال العام والمال الخاص، وتحدد أساليب الرقابة البشرية، وتضمن الاستمرارية، وتحجيم خسائر انحراف الأفراد.. على الأقل كنا سنجرب مرحلة جديدة في «الحل الإسلامي» لو أطاع الوكلاء أمر الملك فوضعوا النظام الأساسي، ونظام توارث العرش، ونظام تشكيلات الحكومة.

ولكن المجلس اكتفى في اجتماعه يوم ١١ مايو ١٩٣٣ الموافق ١٦ محرم ١٣٥٢ بمبايعة أكبر أولاد عبد العزيز وليًا للعهد..

ولم يعرف السبب حتى اليوم في عدم التنفيذ...

الملاحق
الإخوان

١م –من الطبيعي في مثل ظروف حركة الإخوان، وفقدان المصادر أن تثور عدة أسئلة حول نشأتها، تاريخا وفكرة.. وقد طرح ديكسون الحاكم البريطاني للكويت أثناء أزمة الإخوان، ومؤلف كتاب الكويت وجيرانها حكاية أن المؤسس الحقيقي للإخوان هو شخص يدعى «عبد الكريم المغربي». معتمدًا في ذلك على رواية لبلغرايف قال فيها «إنه شهد حركة بعث وهابي عام ١٨٥٥، واكتشافه حركة إحياء منظمة يقودها حوالي العشرين من المتزمتين، وأن هذه الحركة تحرم الدخان ولبس الحرير والذهب والآلات الموسيقية وكافة الملهيات. وأن قيادتهم متعصبة لها حق توقيع العقوبات البدنية على المخالفين، وقد تحدث بلغرايف عن أحد هؤلاء القادة، فقال إن اسمه عبد الكرين (احتمال الخطأ الـــ و في اللغة الإنجليزية ممكن جدًا» ابن إبراهيم الذي تحالف بالمصاهرة مع العائلة الوهابية[1] وهو وهابي يمثل كل رذائل هذه الطائفة وقد لعب دورًا بارزًا في المجموعة الأولى التي تأسست سنة ١٨٥٥ –[2]١٢٧١.

وأكمل ديكسون أن «عبد الكريم المغربي كان رئيس العلماء عند المرحوم فالح باشا السعدون رئيس قبائل المنتفق ثم هاجر إلى نجد حيث عمل كمعلم

---

(١) كله عند الفرنجة لابد أن يصاهر آل الشيخ.

(٢) وهو بريطاني تحول إلى قسيس جزويتي William Gufford Palgrave.

ديني لمركز الأرطاوية الذي لم يكن وقتها أكثر من خلية وهابية. وهناك رواية تقول إن سيده السعدون خلال عام ١٨٩٩ رجع عبر نجد وزار الأرطاوية وبدلًا من أن يرحب به صديقه القديم طرده عبد الكريم كمشرك وكافر» ونقل جورج لبسكي -في رأي حبيب -عن ديكسون فقال: «شجع عبد العزيز نمو مستعمرات الإخوان الوهابية التي قامت في نهاية القرن التاسع عشر في الأرطاوية على يد مصلح اسمه عبد الكريم.»

Saudi Arabia طبع عام ١٩٥٩ صفحة ١٢.

وقد اهتم «جون حبيب» في دراسته الجيدة عن الإخوان بهذه القضية وبذل جهدًا كبيرًا في نفي وجود مؤسس قبل عبد العزيز، ولكنه اصطدم بوجود شخصية حقيقية هي عبد الكريم المغربي، وحاول أن يصلها بعبد الكريم الذي تحدث عنه بلغرايف.. فقال إنه يحتمل أن يكون عمره ثلاثون سنة عندما رآه بلغرايف عام ١٨٥٥-١٢٧١ ولذا فعمره في عام ١٩١٢-١٣٣٠ هو ٨٧ سنة «وهو سن شائع بين البدو»! وكان جون حبيب قد قابل حفيد عبد الكريم المغربي هذا الذي قال له إن جده هاجر للأرطاوية بعدما تأسست الهجرة فيها، وأنه يعتقد أن ديكسون قد خلط بين عبد الكريم هذا وآخر اسمه عبد المحسن بن عبد الكريم أحد المؤسسين الأوائل للأرطاوية. وتحدث هذا الحفيد عن جده كدرويش(١). أما سلطان الدويش فقد أشار أيضا إلى «عبد الكريم» ولكنه عبد الله بن عبد الكريم التميمي الذي جاء مع ثلاثين رجلا إلى الأرطاوية وأسسوها. أما ماجد بن حثيلة فأخذ برواية عبد الكريم المغربي هذا فقال إنه هاجر من شمال أفريقيا في ١٩١٨-١٣٣٦ وزار مكة والمدينة وسكن الأرطاوية!..

---

(١) كل مغربي درويش.

وكما قلنا، بذل «جون حبيب» جهدا فائقا في إثبات أن عبد العزيز هو المؤسس وطلب شهادة الجنرال غلوب الذي قال له في رسالة خاصة «أنا أيضا أعتقد أن عبد العزيز بدأ حركة الإخوان».

وحاول أن يثبت تناقضا بين تقارير ديكسون هو في الخدمة، وكتابه بعد التقاعد. فاستشهد بما كتبه «في زيارتي الأخيرة للأحساء ٩ فبراير ١٩٢٠ –جماد أول ١٣٣٨ عانيت الأمرين في محاولة اكتشاف أكبر قدر ممكن من المعلومات عن حركة الإخوان، ولكن حيثما سألت كنت أقابل بنظرات الشك، وبدا واضحًا لي أن الناس قد تلقوا إشارة من شخص مسئول بأن يختصروا الحديث قدر الإمكان. ولا يمكن للمرء إلا أن يستنتج أن ابن سعود نفسه خلف الموضوع. وأعتقد أنه أعطى أمرا بأن يقال أقل ما يمكن عن الحركة الجديدة للأغراب وأنه لا يريد أن يعرف أنه هو خلف القصة كلها. وأنه يغذي الحركة ويوجهها لخدمة أهدافه»!

ويتعجب بعد ذلك أن يقول ديكسون إن عبد الكريم المغربي هو مؤسسه!

وصحيح أن ابن سعود كان خلف الإخوان والسعوديين والحركة الوهابية وكل شيء في نجد والأحساء عام ١٩٢٠–١٣٣٨.. ولكن ذلك لا يعطي جون حبيب الحجة القاطعة. فيعود ليقول لو كانت الأرطاوية موجودة هل كان من المعقول أن يمر شكسبير بها دون أن يلاحظها؟ وهو سؤال مردود لأن شكسبير قتل عام ١٩١٥–١٣٣٣ وأكثر الروايات تأخرا عن إنشاء الأرطاوية جعلتها عام ١٩١٣ –١٣٣٢ أي أن شكسبير مر ولم يلاحظ على أية حال، وقد رأينا كيف عانى ديكسون ليعرف شيئا عن الحركة، وكيف استحال على فيلبي دخول الأرطاوية.. فشهادة أو جهل شكسبير ليس حجة سواء أكانت الأرطاوية موجودة من ١٨٩٩–١٣١٧

كتجمع صغير، أو «خلية وهابية» لا أهمية لها، أو معسكر حركي بعد ١٩١٣-١٣٣٢.. أو ١٩١٢-١٣٣١ كما قرر جون حبيب.

وينفي زعم ديكسون أن عبد العزيز نفسه قال له «لا دخل لي في قيام حركة الإخوان»، ينفيه بقول ديكسون أيضا إن ابن سعود قال له في عام ١٩٢٠-١٣٣٨ «أنا الإخوان». وأن عبد العزيز لو كان حقا قد تبرأ من تأسيس الإخوان، فلأنه «حاول أن يخفي مسئوليته عن حركة تزعج الحكومة البريطانية» وهو كلام لا يستقيم!.. لأن عبد العزيز عندما يقول «أنا الإخوان» فهو يتحمل مسئولية سلوكهم كاملة، وما يزعج بريطانيا هو سلوك الإخوان بقيادة ابن سعود، وليس البحث عن المؤسس! وحتى ديكسون المشكك زعم «أن الحركة بدأت متعصبة جدًا ولكن تحت قيادة ابن سعود فقدت الكثير من تعصبها الأعمى».

وفي اعتقادنا أنه لا يمكن وصف إحدى هذه الروايات بالكذب المتعمد، ولكنها كلها تتضمن جزءا من الحقيقة، وكما قلنا هناك دائما هواية البحث عن مؤسس سابق للمؤسس المشهور في التاريخ، ولكن أيضا هناك حقيقة أنه ما من شيء ينبثق من الفراغ، ونستغفر من مثل نوره ﷻ بالمشكاة والمصباح، لنقول إنه حتى في البعثة النبوية كان هناك أكثر من متعبد موحد ينتظر الرسالة، ولكن غار حراء دخل التاريخ بنزول الوحي على محمد بن عبد الله.

ولا يعقل أن نجد قد خلت من خلايا الوهابية أو تجمعات المتدينين، وربما انتعشت هذه الحركات في أواخر القرن التاسع عشر مع الهجمة الصليبية، وظهور حركات المهدية والسنوسية، وقد قال هوجارت في كتابه الصادر عام ١٩٠٤-١٣٢٢ «رغم حالة الانهيار التي وصفها بلغرايف منذ أربعين سنة، فأن الوهابية لم تمت بعد، بل لا تزال قوة يبحث خبراء الشرق الأدنى حساب انبعاثها من جديد

وربما سكن بعض هؤلاء الأرطاوية فموقعها يمكن من الحياة والعزلة معا، وربما جاءهم هذا الدرويش من المغرب يحمل آراء صوفية، ولعله كان يحاول إقامة زاوية أو طريقة كما حدث في عسير على يد الأدارسة. ولكن طبيعة نجد تتعارض مع الصوفية، وترفض إسلام الزوايا والتكايا.. ولا تعرف إلا الإسلام الحركي الثائر المغير. ولذلك بقيت هذه المجموعات كنبات الفقع كامنة في الرمال في انتظار سعودي يعيد إليها الحياة، ويعطيها الحركة.. الجهاد.. ومن هنا فابن سعود هو مؤسس «حركة الإخوان» التي نتحدث عنها، والتي عرفت في التاريخ، تماما كما أن ماوتسي تونغ هو مؤسس الجيش الأحمر ولو أن الثورة وتمرد الفلاحين ظواهر سابقة عليه. فهو ابن سعود الذي أعطاها شكلها وتنظيمها وأهدافها.. هو الذي أوجدها هو الذي حول «السديم» الوهابي الذي كان يطوف في أذهان النجديين، إلى نجوم وشموس وكواكب إلى مادة صلبة. ومن ثم فكل جدل حول من أنشأ الإخوان هو جدل عقيم ولا يخدم حقيقة تاريخية أو علمية.. حسمه ابن سعود بكلمتين كان ومازال فيهما فصل الخطاب: «أنا الإخوان»!

٢م –وعلى طريقة عنزة ولو طارت، أو بالمصري: «تقول ثور يقولوا احلبوه»! يعود حافظ وهبه فيقول إن حركة الإخوان الأخيرة (التمرد والحرب الأهلية) عاقت تقدم المشروع الأصلي وهو تحضير البادية، فإننا لم نسمع منذ سنة ١٩٣٠–١٣٤٩ أن قبيلة من القبائل رغبت في سكنى جهة من الجهات. على أن حركة «وعظ» البادية وإرشادهم لمبادئ الدين ومكارم الأخلاق، لا تزال سائرة في طريقها، وبذلك يعمل الملك عبد العزيز لاستئصال شرور البادية بالسيف من جهة، والعلم من جهة أخرى»!.

الحمد لله لم يقل بالمحراث!..

المفروض إذا كان المشروع الأصلي هو الزراعة والتحضير، أن تخدمه حركة الإخوان الأخيرة، ولا تعوقه، إذ ينشط الناس من أجل التعمير والزراعة والتوطن عندما يستتب السلام، ويزول العنصر القتالي، الذي هو عنصر ثانوي بموجب هذه التفسيرات، فيبقى الأصل وهو الزراعة والتحضير، وهو مالم يحدث، لأنه لم تكن كذلك أبدا بل معسكرات مجاهدين، فلما زال الهدف انتفت الحاجة إلى المشروع وانتهت الرغبة في التطوع له.

وقال الزركلي في تعداد مفاخر عبد العزيز في محاربة البداوة!

«والثالثة وهي من مفاخر عبد العزيز البارزة: الهجر جمع هجرة وهي في عرفهم الانتقال من البداوة إلى الحضارة، فحيثما وجد الماء في قلب الجزيرة، كان على أقرب قبيلة بدوية منه أن تهجر بيوت الشعر، وأن تبني إلى جوار الماء، وتقتني الماشية وتزرع وتحصد، وتستقر، ولها من بتي المال المساعدة على البناء وعلى الزراعة، ومصيرها أن تتحضر».

إلا أنه يوافق فؤاد حمزة على أن الهجر «من حيث الحرب والسياسة، معسكرات في أنحاء البادية، والإخوان جند هذه المعسكرات، يسيرون بأمر القائد الأعظم عبد العزيز ابن سعود في أي وقت شاء».

و «جون انطونيوس» المترجم في السفارة البريطانية[١] قال: «إن برنامج ابن سعود الرامي إلى الإصلاح[٢] الاجتماعي والاقتصادي الذي اختمر في ذهنه من زمن بعيد، وهو يرتكز على نقطة واحدة هي استقرار العرب الرحل على الأرض،

---

(١) في كتابه المنشور عام ١٩٣٨-١٣٥٧ The Arab Awakening، ونعتقد أنه هو المصدر الذي نقل عنه معظم كتاب التوطين.

(٢) وقد اقتبس التعبير مؤلف «الإصلاح الاجتماعي»... وفاز بالجائزة!

وكان قد بدأ بتطبيق فكرة الهجر في نجد عام ١٣٢٨هـ (١٩١٠) وسار المشروع بعد ذلك خطوات سريعة».

وقال إن ابن سعود كان يريد استخراج الغريزة الحضرية من أعماق نفسية البدوي الذي على ما يبدو أصبح بدويًا نتيجة عقدة نفسية!

وسنجد فكرة التوطين في أكثر صورها سوقية في ذلك الذي اقترفه المدعو «أحمد عسه»: «ولكن الشيء المعجز حقًا أن يتصدى شاب -لم يتجاوز الثلاثين من العمر ولم يكتب له أن يعكف لا على الدراسات الاجتماعية ولا غير الاجتماعية -إلى محاولة جذرية في تبديل أسس الحياة الاقتصادية والاجتماعية في محيطه، وعلى نحو لم يسبق له مثيل في بلده عبر العصور والأجيال الطويلة (يخيل لك أن عبد العزيز اكتشف الزراعة، أو أنه حول السعودية إلى العراق أو مصر.. وبعد أربعين سنة من إنشاء أول هجرة لم يكن هناك أي تبديل في الحياة الاقتصادية للمملكة، ولكن التبدل حدث في الناس.. وظلت الحياة الاقتصادية كما هي إلى أن ظهر النفط».. ثم يحدثنا عن «مشروع اجتماعي واقتصادي جبار هو الأول من نوعه، ومن غير أن يكون مجهزا بأي خبير، بل حتى بملاكات فنية ولو أولية تعينه على إنجاز محاولته الطموح».

ويلبس عسه عمامة الماركسية فيحدثنا عن قرار ابن سعود بنقل المجتمع في نجد من طور الرعي والارتحال ليدخل طور الزراعة والاستقرار، وأن يكون ارتباطه بالأرض، بدل أن يكون الرحيل للتفتيش عن العشب والماء ديدنه ومحرك خطواته وموجهها. وأن يكون له مورد رسمي ثابت من جهده في معالجة التربة وزرعها وإنباتها. بدل أن يكون رزقه من جهد الغزوات، وما يرافقها من دماء وتدمير ويتم ونهب وسلب».

لا والله لا كان ذلك في مقدور عبد العزيز، ولا حاوله، فضلا عن أن تتهمه بتنفيذه، فأن تحويل سكان نجد من الرعي إلى الزراعة لم يتم، ولا كان يمكن أن يتم من خلال هجرة الأرطاوية، بل بوسائل مادية لا دخل فيها للخطط والعبقريات.. باكتشاف وسيلة لتوفير ماء دائم يكفي لزراعة تسد احتياجات هؤلاء السكان.. وهو ما لم يكن في طاقة حاكم ولا في طموح عبد العزيز.

ونصل إلى الفكاهة عندما يقول إنه من «دواعي الإكبار والإجلال، أن يكون عبد العزيز قد فكر هذا التفكير الطموح البناء الحضاري، وهو ما يزال بعد يخوض معارك القتال ويتابع حروب التحرير»!!

وهي تساوي تماما القول بأنه من الغريب أن يفكر عبد العزيز بتكوين مقاتلين وهو لا يزال يخوض معارك القتال؟!.. ولكن مع نظرية التحضير والتدجين والزراعة يصبح التساؤل معقولا والدهشة الغبية مفهومة؟!!

على أية حال لم يقدم لنا مرتكب «المعجزة» أي رقم اقتصادي، أو إحصائية زراعية أو أي مظهر من مظاهر التطور الاجتماعي، أو أي دليل يشير إلى انتقال نجد من مرحلة الرعي إلى مرحلة الزراعة، كل ما فعله هو نقل إحصائيات الريحاني عن عدد المقاتلين في الهجر، وهم «المحصول» الوحيد الذي كان ينبت في الهجر.

وهو يزعم أن بيع الإبل قبل الانضمام إلى الهجر كان: لكي لا يجدوا ما يعينهم على الانتقال للغزو إذا صادفوا المصاعب وقل الرزق بين أيديهم»! مع أن «سيدنا وسيد الجميع» الحسين بن علي استدل من بيع الإبل على نية الغزو وتفرغهم له! والدويش أكد في رسالته للأمير سعود أن الغزو هو مورد رزقه الوحيد فأما أن يغزو المشركين ويأكل من الغنيمة، أو يغزو القبائل من حوله ويعيش على النهب ولم يشر للزراعة!

ولو أحسن النقل من الريحاني، بدلا من السطو عليه والقول: «أحصي عدد الهجر» مبنية للمجهول! لوجد أن عبد العزيز يتحدث عن كيف أخرجت الهجر أفضل المقاتلين وليس أفضل المزارعين. والهجر أخرجت لحسن الحظ أو سوء الحظ فيصل الدويش، وفيصل بن حشر وابن بجاد، ولم تخرج «شاخت».

ويكفي للدلالة على مستوى هذه الكتابات، ونظرتها لفهم من تكتب لهم، أنه يعدد من عبقريات ابن سعود، حرصه عند اختيار أماكن الهجر أن يقيم كل هجرة، على بئر أو نبع ماء لأنه لا حياة ولا زراعة بغير ماء!!

وهذه بالطبع من عبقرية المؤلف. لأن الأميبيا اكتشفت أنه لا حياة بدون ماء منذ بضعة مليارات من السنين قبل كتاب المعجزة. والله ﷻ يقول: وجعلنا من الماء كل شيء حي..

ولكنه نوع من النفاق السوقي المبتذل..

كأن عبقرية عبد العزيز لا تكتمل إلا إذا عرف أن المية تروي العطشان[١].

كيف تقام الهجرة بدون ماء؟ وأين يوجد الماء إلا في الآبار والعيون؟.. أم ترى كان سيقطر لهم ماء البحر ويشتري جبل جليد في وقت لم يكن قد ظهر فيه لا النفط ولا عسة!

والقارئ لهذه الكتابات يخيل إليه أن عبد العزيز قام بنقل القبائل من الصحراء إلى المدن الجديدة أو «الهجر» أو حتى حول موطن القبيلة إلى «هجر» كبيرة تضمها، وهذه صور خاطئة تماما.

---

(١) مع الاعتذار لعبد الوهاب المغني..!

فقد ظلت القبائل في أماكنها المتوارثة، بحياتها وتقاليدها، إلى حد ما، ولكن أصبحت لكل قبيلة هجرة، أو هجرة لعدد من القبائل، يتوجه إليها المتحمسون المؤمنون الراغبون في التفرغ للجهاد والعبادة. أو هجرة لعدد من القبائل، يتوجه إليها المتحمسون المؤمنون الراغبون في التفرغ للجهاد والعبادة. فيقال إن الأرطاوية هجرة مطير، والغطغط هجرة عتيبة، ولكن هذا لا يعني أن قبيلة مطير انتقلت إلى الأرطاوية التي لم يزد تعدادها عن عشرين ألف في قمة تألقها، أو أن عتيبة المنتشرة من الحجاز إلى نجد، قد انتقلت فجأة إلى الغطغط.. كما أن الإخوان لم يكونوا داخل الهجر فقط، بل انتشروا داخل القبائل وسائر المدن، وتميزوا بالعمامة وبسلوكهم الخاص.

والآن حان وقت الفكاهة والترويح عن النفس، فننتقل إلى بنوا ميشان أكذب وأغبى من كتب عن عبد العزيز! قال فض فوه: إن عبد العزيز «وضع خطة جريئة، لم يجرؤ حاكم عربي قبله على تنفيذها، لقد قرر أن يحجز البداوة، ويحيطها بالسدود وشيئا فشيئا بتثبيت البدو حول مواقع الماء وحضهم على حرث الأرض، أي إعادتهم إلى وضعهم الزراعي الذي كان لهم قبل أن يرغمهم التيار البشري على أن يصبحوا سكانا تائهين، بدفعهم عبر شبه الجزيرة»!!

ثم يضع لنا نظرية التوطين:

«إن العامل المسيطر حتى الآن على حياة الصحراء، كان ندرة مواقع الماء، والمساحات القليلة للأراضي المزروعة، فيما لو قورنت بحجم الناس الذي يحتاجون إلى الغذاء، وهكذا يتحقق التوازن على مراحل، بين الطرفين، ومن ثم تعرف الصحراء عصر الهدوء، ولكن الواقع أيضا أن موجة جديدة قليلة جدا من المهاجرين كافية لتحطيم التناسب بينهما وخلق أزمة جديدة بزيادة السكان. وبذلك

تدخل الصحراء في حالة غليان، ويشهد العالم زيادة في العنف في المعارك التي تخوضها القبائل حول المصادر الطبيعية. ثم لا يعود التوازن إلا حين يطرد فريق من السكان نحو الشمال (وليه مش الجنوب يا خواجه؟) أو تتم إبادته على أن يكون مساويًا في عدد للفئة الطارئة من المهاجرين»!!

وهذه على ما يبدو، أعني حصر القادمين وإبادة عدد مساو لهم بالضبط، مهمة تقوم بها مصلحة الإحصاء في قبيلة ربيعة بالتعاون مع إدارة الهجرة في مضر!! وشفي الله أصحاب العقول والذين ينتشرون لهم!

ولحل المعادلة الصعبة، في منطق بنوا قرر ابن سعود زيادة المساحة المزروعة، ربما لأن تحديد النسل لم يكن معروفا!..

والحق أنه موقف صحراوي نبيل من جانب عبد العزيز، أن يهتم بهذه المعادلة، ويفكر في حلها، وهو لا يسيطر إلا على واحد بالمائة من الجزيرة! فلماذا يشغل باله بمعادلة السكان والإنتاج!

وكتاب ميشان، هو خليط غير متجانس من المعلومات المشوهة، والأكاذيب المتعمدة، والاستنتاجات الخاطئة الغبية، ولذلك نراه في الصفحة التالية يقول: «إن هذه المستعمرات لم يكن يقصد بها إنتاج الحبوب والثمار وحسب، بل أن تكون مشاتل لإنتاج الجنود.. إنها ستكون منتديات للمؤمنين، ولكنهم المؤمنون الذين يدعون للقتال والسيوف في أيديهم، من أجل انتصار العقيدة الحقيقية».

لماذا لم يقل إن عبد العزيز فكر في الأسلوبين لحل معادلة السكان والصحراء.. زرع ليزيد الأكل، وحصد الرؤوس بالحرب ليقل عدد الآكلين!.. فاتته هذه النكتة لشدة غبائه، ولأن الرب قسا قلبه!..

وقد انفرد بنوا ميشان برواية مناقشة عبد العزيز مع العلماء حول «الهجر» وقد أوردها في صيغة مسرحية، حافلة بتظرفه الموجع، وشروحه الصبيانية، ولكنه لم يذكر مصدرًا ولا سببًا معقولا لزعمه برفض العلماء للمشروع، مما يجعلنا نستبعد القصة تماما..

قال ميشان بعد المقدمة التي لابد وأن تحتوي على خطأ تاريخي، وهو الزعم بأن «جوهرة» هي حفيدة عبد الوهاب وأم «تركي وسعود وفيصل ومحمد»!!.. قال إن عبد العزيز عرض مشروع الهجر على العلماء «وأصغى العلماء إليه بهيئة مهيبة وقور ولكنها غير مؤيدة... وهز الفقهاء رؤوسهم متساءلين إلى أين يقودهم هذا «العبد العزيز» بأفكاره الغريبة المتطورة. هكذا تفحصوا عرض الملك، وقلبوه على وجوهه كلها، وتذاكروا خلال ساعات ثم أصدروا قرارهم: أن الخطة التي عرضت عليهم لا يمكن أن تجد التأييد المطلوب لأنها ليست متوافقة مع تعاليم القرآن وأوامره»...!!

وبعد أن ينفث ميشان عدو الإسلام، غيظه وحقده على «علماء الشريعة» بحجة الدفاع عن عبد العزيز، ويصفهم بضيق الأفق، وضعف الخيال والتفسير الجامد، ويزعم أن عبد العزيز تمنى لو استطاع جمعهم في مسجد ونسف المسجد بهم!.. يعرفنا أنه من حسن الحظ أن تدخل «عبد الرحمن العجوز»! (يقصد الإمام عبد الرحمن والد الملك). فمنع الانفجار وهدأ ولده.. الذي بدأ «يتملق نفوس العلماء» «واستمرت المناقشة أسبوعا كاملا فكشف عن الأهمية والفوائد العميقة التي يمكن أن يخرجوا بها من وجود فيلق وهابي، تخصص جهوده لنشر عقيدتهم.. أي العمل على تنمية تأثيرهم في البلاد».

لا علينا من اعترافه بأن المشروع هو لتكوين «فيلق وهابي» وليس مدرسة مشتهر الزراعية. ولكن تأمل كيف ينفث حقده ويشوه دوافع الجميع وينفي إيمانهم، من حاكم يحتال على العلماء ويتمنى أن ينسفهم وفي مسجد بالذات! إلى علماء يرشون بإغراء «زيادة نفوذهم في البلاد». فوافقوا!..

واتهام إخلاص المشايخ، ورشوة ابن سعود لهم، لم ينفرد به بنوا ميشان، بل ردده الفائز بجائزة الملك فيصل فقد نقل من مجلة العالم الإسلامي[1]: «لقد استطاع الملك عبد العزيز إقناع رؤساء القبائل بالحضور إلى الرياض والدراسة في مسجدها الكبير للأمور الدينية على مشايخ أعدهم لهذه الغاية، وقد أغرى الشيوخ بالهدايا والعطايا، إذ أصدر أمره بإعطاء شيوخ القبائل بيوتا في الرياض، وشكل منهم الرئاسة العسكرية، وبهذا استطاع الملك أن يستقطب الجميع لقبول مشروعه».

فالخطة محبوكة بني عيد العزيز والمشايخ ورؤساء القبائل: الملك يدفع للعلماء والرؤساء، لحقن الجماهير بالأفيون المعروف في كتب الماركسيين!..

وإذا كان هاريسون يصف الإخوان كما رآهم رأي العين، بأنهم أناس يعيشون للآخرة فما عليك!.. الجماهير تعيش للآخرة، والقيادة تتقاسم الدنيا وتضحك في كمها من سذاجة البدو!..

الحمد لله!.. شهادة هذا البريطاني الذي زار الرياض عام ١٩١٨-١٣٣٦ وبالتالي لم تكن تساوره أية أمال حول تسويق كتابة بالمملكة، ولا واجهته محاذير الكتابة عن «الهجرات» فجاء وصفه مطابق لنظرتنا، إذ رأى «الناس يعيشون للعالم

---

(1) The Moslem World 101: 22/1932-Wahabism and Ibn Saud, by W. F. Smally p.22.

الآخر، مئات يدرسون في المساجد، ليكونوا معلمين دينيين للبدو بين القبائل» أي «دعاة» بالإصلاح الإسلامي، أو أطرأ باصطلاح جيش التحرير الجزائري أو «كادرات» بالإصلاح الشائع في روسيا ومن أتبعها.

صحيح أنه كمسيحي غربي التبس عليه الأمر فبدت له نوعا من الأديرة، تخرج رهبانا، وليست مراكز إسلامية تخرج رهبان الليل، وفرسان النهار. ولم يعرف أن المسلم يعيش لآخرته، كأنه يموت غدا، ويعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا.. إلا أنه على أية حال لم يجد مجتمعا زراعيا، وتحولا اجتماعيا، أو انتقال من الرعي إلى الزراعة، بل شاهد تجمعا عقائديا.

ويستمر انحطاط الفكرة مع المؤلف، أقصد المجمع، فهو يتلقط من كل كتاب فقرة، ويتبناها بدون مناقشة، فنرى الإخوان بالنقل من ديكسون يتحولون إلى عمال التراحيل في مصر أو السخرة قبل الإنجليز! «كان الملك عبد العزيز مرنا إذ سمح لكل قبيلة كبيرة أن تبقى قسما من أفرادها في الصحراء يعملون في الرعي، أما الباقون فيرسلون إلى الهجر للقيام بالأعمال الزراعية، فكانت مرونة النظام وسهولته من العوامل المشجعة للبدو على قبول المشروع»!

٣م –وقد وصفت دائرة المعارف البريطانية «الهجر» بالمستعمرات، وإن كان الزركلي قد وضعها بين مزدوجين!

وقالت إنه بعد مقتل ابن رشيد سنة ١٩٠٦ –[(١)] ١٣٢٤ عدو ابن سعود الأكبر، شرع ابن سعود في إقامة الأسس لبناء عظمته في المستقبل. بوضع خطة جديرة بالإعجاب، نمت عن جرأة وبراعة، فقد بسط يده بقوة على مكان «الغلو» في نفوس

---

(١) وهذه تعزز رواية راندل باكر في جعل تاريخ الحركة ١٩٠٨-١٣٢٦، والنص من ترجمة الزركلي.

رجاله ليستخرج منها عنصرا بعيدا عن عنصر القبيلة، أو أقل ما يمكن من تلك العصبية، راميا إلى دمج الكتل العشائرية بعضها ببعض لتظهر بعد ذلك في مظهر الشعب المتجانس، وكان بناء «المستعمرة» الأولى للإخوان -الأرطاوية -عام ١٣٣٠ (١٩١٢) أول خطوة لتنفيذ برنامجه الحازم للقضاء على نظام العشيرة، وتحويله إلى المصلحة القومية، وكان مثل هذا الهدف يعتبر خروجا عن حدود السياسة العملية، قبل أن يتبناه ابن سعود. «وتكونت من كل قرية فرقة من الجيش الوهابي الجديد الذي كان أول اختبار له عام ١٣٣١ (١٩١٣)».

وقد وصف «جون حبيب» الهجر بأنها «تنظيم شبه عسكري» وقال: «باعتبارهم تنظيما شبه عسكري يتطلب الاستعداد للتعبئة للحرب في أية لحظة فإن ذلك يمنع انشغالهم في مهنة أخرى مثل الزراعة أو التجارة. ولذا فإن مساعدة الحكومة لهم، ولو كانت في شكل إعانة إلا أنها ليست إعانة تبطل بل لخدمة أهداف حيوية للدولة، وهي الاستعداد العسكري واستبقاء حالة التعبئة العامة». ص٧٨.

«وهم كبدو يحتقرون الزراعة، وكإخوان يعتقدون أن الانشغال بالدنيا لا يتفق مع مفهومهم للإسلام». ص١٥٤.

وشرح بتفصيل أكبر استنادا إلى دراسته الميدانية كيف كانت المهن تالية للاحتراف الديني -السياسي -العسكري فقال: «في البداية تفرغ المهاجرون في الهجر للعبادة، وتجنبوا العمل أو الزراعة وحمدوا الله أنهم أصبحوا إخوانا وتخلوا عن مشاغل الدنيا. وكان هذا الموقف يرجع إلى الكسل وإلى جهلهم لأية مهنة ضرورية لحياة الجماعة. ولكن السبب الأساسي هو قناعتهم أن الاهتمام بجمع المال يتعارض مع تفرغهم لله والعبادة فتحرك ابن سعود بسرعة لتصحيح موقفهم

بإرسال رجال الدين الذين أقنعوهم بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن الله يحب يد العامل، والمسلم القوي خير من المسلم الضعيف. وعندها فقط بدأت الهجر تأخذ طابع المستوطنات فأصبح هناك المزارع والتاجر والراعي ورجل الدين. الكل يساهم في خدمة المجموع في ظل ابن سعود الذين كان على استعداد دائم لمساعدة الإخوان بأية مساعدة يحتاجونها».

وقال: «الحياة الدينية في الهجر كانت مطابقة لمثيلاتها في أي تجمع ديني متطهر، حياة مكرسة للصلاة والتأمل، إذا لم تقطعها غارة. الحياة اليومية لا تتوقف إلا بوصول رسول يحمل أنباء من الرياض، أو بتعليق بنديرة الحرب في ميدان المدينة وهي تعني إعلان التعبئة. وليس في المدينة موسيقى ولا رقص ولا رياضة، وحتى لعب الأطفال لم يكن يشجع». ص١١٤.

وخلاصة فكرة جون حبيب أنها بدأت كنوع من التكايا فكرة التفرغ للعبادة، على أن يتفرغ الآخرون لإطعامهم، ثم تحولت بفضل التوعية إلى مستوطنة دينية -عسكرية، تسد احتياجاتها بنفسها أو الاكتفاء الذاتي، فلا مجال للحديث عن مشروع زراعي.

وقد فند فيلبي أيضا فكرة الإصلاح الزراعي، وقال: «لو كان المشروع اجتماعيا حضاريا لحرص ابن سعود على الحديث عنه مع زواره الأجانب ودعاهم لمشاهدته ولكنه على العكس من ذلك حرص على كتمانه وكان يتحاشى قدر الإمكان الحديث عنه حتى مع الريحاني. وقال إن خلق حركة الإخوان قام على أساس طموحات ابن سعود السياسية -العسكرية في الجزيرة، ومن هنا كانت رغبته في إخفاء هذا التطور عن الإنجليز أطول مدة ممكنة بسبب تأييد الإنجليز للملك حسين».

٤م -قدم الريحاني صورة للتعاليم أو التربية التي كانت تجري في كل مكان في نجد، وفي المساجد، وفي الهجر وحول الآبار، ومع القوافل، وذلك في مالقنه.. «هذول» لقافلة الريحاني عن الإيمان أو مبادئ الحركة قال الريحاني: «أخذ هذلول» يعلمنا دين التوحيد: يجب على كل مسلم أن يكون عالما بثلاثة أصول: من أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النار.. ثانيا: إن الله لا يرضى أن تشرك معه في عبادته أحدا، لا ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا. ثالثا: أن من أطاع الرسول ووحد الله، لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله».

كيف يجد الاستعماريون الذين حادوا الله ورسوله، متعاونا من الإخوان، أو عميلا، وهذه هي التعاليم التي يتلقنها منذ اليوم الأول لانضمامه للمشروع.

٥م -وقد أورد الريحاني أيضا قصة ثلاثة من البدو كانوا في طريقهم للرياض، فلما قابلوهم في الطريق سلموا عليهم.. ولكن بعد التعارف، شكوا في الريحاني ورفضوا ادعاء مرافقه بأنه سوري جاي يتاجر في الإبل، معتقدين أنه «إنكليزي كافر» وعليه أصروا على أن يستردوا سلامهم!.. وانتهت الأزمة بأن أعلن المرافق: «سلامكم رد لكم»! واطمأنوا وانصرفوا وكأنهم استردوا سلاحهم الذي وضعوه جانبا بإلقاء كلمة السلام، التي لا يجوز أن تعطى «لإنكليزي كافر».

هذه هي التربية التي تؤهلهم لقتال الإنجليز، والتي أرعبت المسئولين البريطانيين من لورنس إلى وينغت.

ويقول وهبة إن «عبد الله بن جلوي وغيره من آل سعود، وكبار آل الشيخ كانوا ينصحون الملك عبد العزيز بالتبصر في غلو الإخوان وخروجهم عن حدودهم».

٦م -كتب هاملتون المقيم السياسي في الكويت. في ديسمبر ١٩١٨ -ربيع أول ١٣٣٧: «كان الجميع ضد ذهابنا إلى الأرطاوية، التي كما قيل لنا تشكل مركزا

متقدا للطهر المحمدي، وحيث لا يرحب ليس فقط بالأجانب، بل كل الغرباء يوضعون في الحجز لفترات متفاوتة حتى تمتحن سلفيتهم». وأضاف جون حبيب إن حاكم الأرطاوية الحالي أخبره أن القادمين من الكويت بالذات كانوا يذهبون إلى الكويت كانوا يوضعون في الحجر حتى يثبت أنهم لم يتدنسوا بزيارة الكويت» (الذي يبدو أنه كان يعتبر بلدا موبوء!!).

«حتى فيلبي لم يسمح له بزيارة الأرطاوية فاكتفى بمشاهدتها بالتلسكوب قائلا إنه لم يشأ المخاطرة بجلده بالذهاب للأرطاوية. وقال عنها إنها كانت علامة فاصلة في التاريخ، فحتى في هذا الوقت المبكر (١٩١٨-١٣٣٧) كانت مرهوبة في طول البلاد وعرضها» (فيلبي في بلاد الوهابين).

وتشهد تقارير هذه الفترة تيارين، تيار يتخوف عن حق أن تكون هذه الحركة هي شرارة ثورة كبرى، وتيار يحاول نفي الأصالة عنها باتهامها بالشيوعية والانتماء لمؤامرة عالمية..

فقد كتب القنصل الأمريكي في اسطمبول (١٧/ ١٢/ ١٩٢١-١٣٣٩) إلى حكومته يقول: «لا توجد معلومات عن البعث الوهابي في الجزيرة وما إذا كانت لهم علاقة بالانتعاشة السنوسية في أفريقيا؟ والحركة الوطنية في الأناضول (انتفاضة الأتراك والمسلمين من غير الترك ضد الغزو الأوروبي لتركيا بعد الحرب العالمية الأولى) وبصيغة أخرى هل هي جزء من حركة إصلاح إسلامية عامة؟».

والقنصل يشير إلى الدور الذي لعبه السيد أحمد السنوسي في إثارة المقاومة الوطنية بالأناضول تحت قيادة مصطفى كمال قبل أن يشهر هذا عداءه للإسلام وقد التحق السيد أحمد بعد ذلك بخدمة ابن سعود. وكان له دوره في دعم عمر المختار).

وفي ٢٤/ ١٠/ ١٩٢٤ -ربيع أول ١٣٤٣ قالت صحيفة اسطمبول التي كانت قد تنكرت للخلافة: «توجد نفحة اشتراكية في الوهابية لأن محمد عبد الوهاب يركز على اقتسام الثروة». وقال تقرير القنصل الأمريكي أن السعوديين ينتوون تحرير كل الشعوب العربية». (٢/ ٦/ ١٩٢٤ -شوال ١٣٤٢).

وقال تقرير بريطاني إنها قد تكون مدفوعة من الأتراك» ٢٥/ ٩/ ١٩١٨ -٢ آخر ذي الحجة ١٣٣٧، وأفتى المندوب السامي البريطاني في العراق بأنها «حركة اشتراكية حيث يقتسم الأغنياء ثورتهم مع العامة. وقد حدثت عدة وقائع منح فيها شيخ القبيلة جماله لاتباعه». (١٢/ ٥/ ١٩١٩ -شعبان ١٣٣٧).

أما الملك فيصل ملك العراق فقد رفع النفحة الاشتراكية إلى الشيوعية فوشى للإنجليز بأن «الوهابية مرتبطة بالشيوعية، وأن الوهابيين يجب قتلهم فهذه هي الوسيلة الفعالة» (مخطوطات الخارجية البريطانية).

وأضاف إنها «جزء من مخطط عالمي هو الذي حرك الثورة في أفغانستان ومصر والهند وتساءل «لماذا لا تكون هذه الحركة الوهابية جزءًا من هذا المخطط؟ أو على الأقل يمكن أن تجذب انتباه منظمي تلك المؤامرة الذين سيستخدمونها كأداة للدعاية وكجسر للوصول إلى حرم الإسلام لكي يحققوا أهدافهم. فنحن نرى النار ولكن اليد المحركة لا تزال خافية. فإذا كان العالم الغربي يعتبر البلشفية كمرض اجتماعي يهدد الحضارة.. فلماذا لا ينظر إلى الحركة الوهابية في الشرق الأدنى نفس النظرة؟ على الأقل مادامت يحركها نفس الجهل والتعصب»؟! (رسالة فيصل إلى جنرال اللنبي ١٩١٩-١٣٣٧).

ومن أنبأك أن الغرب لم يفعل أيها الملك الشريف العالم المتسامح جدا؟..

وقد غنى فيصل ورد عليه وينغت فقال «للملك حسين الحق في الاعتقاد ببلشفية الوهابية في وجود دعاية سرية معادية لنا وله».

وكتب ماجور كورتني في تقرير لمدير المخابرات الحربية البريطانية بتاريخ ٣/ ٩/ ١٩١٩ –ذي الحجة ١٣٣٧. إن أحد مصادره الإسلامية، قالت له «إن أفضل وسيلة لنشر البلشفية في البلاد الإسلامية هي نشر الوهابية التي تعتبر صيغة منقحة للإسلام البلشفي أو البلشفية المسلمة (!) والتي ستنتشر أكثر من البلشفية»!

وكتب القائم بالأعمال البريطاني في جدة يقول «إن الملك حسين يردد أن الإخوان هم مثل البلشفيك إذا لم نقمعهم الآن فقد نضطر إلى القتال في الجزيرة العربية كلها التي ستحترق وتزول منها كل آثار التقدم».

وهذه التشنيعات، كانت تستند إلى حقيقة، ثورة الحركة، طابعها التحريري المعادي للمصالح الغربية والاستعمار الغربي، روح الأخوة التي سميت اشتراكية.

وقال «الن دلاس» إياه في مذكرة لوزارة الخارجية الأمريكية «إن الإسلام اليوم أكثر خصوبة وتعصبا في السعودية منه في أي مكان آخر، وليس لدينا من مصادر للمعلومات عن هذا الجانب من العالم إلا الاعتماد الكلي على البريطانيين». ١٦/ ١١/ ١٩٢٢ –ربيع أول ١٣٤١.

٧م –قال تقرير القنصلية الأمريكية في القدس بتاريخ ١٣/ ٢/ ١٩٢٨ –شعبان ١٣٤٦: «ألقي القبض على الريفرنس جورج بريدن والريفرنس وليم سمالي اللذين يعملان مع بعثة الحدود العربية التابعة لهيئة التبشير المسيحي المتحد (٢٦٠ وست شارع نيويورك نيويورك) وكانا قد قاما برحلة إلى الحجاز في نوفمبر ١٩٢٧ –ربيع ثاني ١٣٤٦، عن طريق معان والعقبة بهدف بحث إمكانيات بدء نشاط تبشيري

وتعليمي في البلاد. وقد ألقى القبض عليهما ورحلا عبر جدة، مع وضع تأشيرة على جوازاتهما بمنع دخولهما الحجاز أو نجد ويبدو أن المستر فيلبي هو الذي نصح بالإفراج عنهما وتحرير خطاب للمفوضية الأمريكية لتحذيرها من إرسال مبشرين إلى نجد والحجاز مرة أخرى».

وقد تصرف الأمير فيصل بحزم وكتب باسم وزارة الخارجية في مكة ٨ ديسمبر ١٩٢٧ -جمادي ثاني ١٣٤٦، إلى القنصلية الأمريكية في القاهرة: «إن الحكومة لن تسمح أبدا مهما كانت الأسباب لأي شخص بأن يمارس التبشير بالمسيحية في الحجاز، والحكومة لا تتحمل أية مسئولية عن مصير أي مبشر يدخل البلاد بدون علم وإذن منها».

وقال المبشران في تقريرهما الذي يطفح جهلا وتعصبا: «إن الأمير فيصل هو المسئول عن كل ما نزل بنا من نكد وأصابنا من متاعب».

وجاء في التقرير إنهما حاولا تبشير الجندي الذي رافقهما فكان رده «أقسم بالله لولا هذا البحر الذي يحجزنا لذهبنا إلى الغرب وأدخلناكم جميعا في الدين الصحيح»، فسألته كيف؟ قال بالسيف وهكذا دلت إجابته على روح الإسلام الأول»!!

وقال نيافته إنه حينما سمح له بالبقاء ومعاملة الناس كانوا يحبونه فقد كانت هذه هي أول مرة يقابلون فيها من يعرف عيسى المسيح»!

أي والله! نيافته هو هذا الرجل الأول، أما العرب الذين يقرأون سورة مريم، ويصلون على المسيح عيسى بن مريم من ١٤ قرنا فلم يعرفوه.

وزعم أن حارسا أسود طلب منهم نسخة من الإنجيل!

ربما ليقرأ فيها لعنة نوح على ابنة حام وإقرار عبودية الأسود إلى أبد الآبدين!

وقال إنه يأمل أن تقرأ الأناجيل التي صادروها منهم في مكة والمدينة!

وأكد أنه لابد من توجه مبشرين آخرين، لأن «أي بلد مغلق في وجه رسل الإنجيل يجب أن يشكل إغراء للذين يتبعون القائل: «إن هذا الإنجيل سيكون شاهدا على جميع الأمم».

إن كان يقصد المسيح صلوات الله عليه، فلابد أنه يتحدث عن إنجيل آخر لأن الأناجيل التي صادرتها السلطات السعودية كتبت بعد اختفاء المسيح من هذا العالم بثمانين سنة!..

وقد كتب الدكتور س. م زويمر الرئيس الميداني لجمعية الأدبيات الأمريكية المسيحية للمسلمين The American Christian Literature Society for Moslems تقريرا للمفوضية الأمريكية في القاهرة ١٧/ ٢/ ١٩٢٨ -رجب ١٣٤٧، وقد عرفته المفوضية بأنه من أكثر المبشرين المسيحيين العاملين في العالم الإسلامي حماسة وصلابة» (هذه حماسة وصلابة أما عند المسلمين فهي تعصب) وقالت إنه يعتقد بوجوب السماح للجمعيات التبشيرية المسيحية بإنشاء المدارس ومراكز الإنجيل والقيام بكل النشاط الذي تمارسه الآن في أراضي المسلمين الأخرى. وأن الدكتور ج. ر. الكسندر المتحدث باسم المبشرين في مصر يؤيد آراء الدكتور زويمر ويرحب بأية فرصة لإنشاء معهد تبشيري في جدة. ولا يعتقد أن ما يسمى بقدسية الحجاز سيشكل عقبة لا يمكن تخطيها بل يري أن بداية صغيرة في جدة يجري تمويلها من الوطن (أمريكا) إذا ما أديرت بحكمة فإن السلطات الحجازية سترحب بإنشاء مدرسة أمريكية في جدة ومن هذه البداية فإن التنظيم التبشيري الأمريكي القائم الآن في مصر يمكن أن يقوم مثله في الجزيرة.

«وقد عرضت هذه الآراء على وزارة الخارجية حتى تضع في اعتبارها عندما تبحث قضية الاعتراف بحكومة ابن سعود أن أحد العوامل التي تجعل هذه الحكومة تتردد في الاعتراف هو عدم سماح الحكومة (السعودية) للنشاط الأمريكي المسيحي التبشيري».

وقال زويمر في تقريره «لا أعتقد أن هناك أية سلطة دينية أو قانونية تدعي قدسية كل الحجاز بمعنى منع التبشير المسيحي من أداء واجبه».

وبالطبع فشل زويمر وأمثاله، ووقفت لهم الحكومة السعودية بالمرصاد، حتى اقتنع الأمريكيون بأن زيت المحركات أجدى عليهم من زيت التعميد فاعترفوا بالمملكة. ولكن هذه النشاطات كانت تصل للإخوان مضخمة بفعل فاعل أو حتى بمجرد عادة المبالغة في النقل.

٨م -ولذلك ليس من الإنصاف اتهام عبد العزيز أو آل سعود باضطهاد الشيعة، فالصحيح أن عبد العزيز هو الذي حماهم، وواليه ابن جلوى الذي كان يلقب بجبار آل سعود كان يحظر دخول الإخوان الأحساء. ولولا النظام السعودي لفتك الإخوان «برافضة» القطيف كما كانوا يسمونهم عن خطأ بالطبع. أما التفرقة والاتهامات المتبادلة، فهي ظاهرة مؤسفة عمرها سابق على النظام السعودي بألف سنة، وليس موقف المجتمع السعودي منها بأسوأ من أي نظام أخر في المنطقة كلها..

٩م -وقال أسد عن ابن بجاد هو «شيخ قبيلة عتيبة وصهر الدويش، الذي فتح الطائف ومكة عام ١٩٢٤-١٣٤٣. فلماذا في نظره يجب أن يقنع بمنصب أمير الغطغط فحسب. لماذا لم يعين هو، بل أحد أبناء الملك أميرا على المدينة؟ لماذا لم يعين أميرا على الطائف على الأقل».

ولكن محمد أسد، يعرف أن تعيين الأمير محمد بن عبد العزيز كان أحد شروط تسليم المدينة. إذ اشترط أهلها أن يسلموا لأحد أبناء الملك ليأمنوا ما جرى في الطائف التي لم يكن من المعقول تعيين ابن بجاد عليها بعد ما جرى فيها أو حتى بعدما أشيع. كذلك لم يكن من الحكمة تولية «الإخوان» على مدن الحجاز ولم يتم فتحه بعد، لأن ذلك كان سيخلق شعورا متوجسا ومعاديا لصالح الهاشميين.

وقد نسب العطار للإخوان كل فضل فتح الحجاز فقال إن «الملك عبد العزيز لم يكن يفكر في غزو الحجاز أو احتلال مكة، بل كان سيترك الطائف ويعود إلى نجد، وربحه السلم بين الحجاز ونجد، وحج النجديين وحسن العلاقات والجوار الذي يثمر التبادل التجاري والاقتصادي بين الشعبين والبلدين فلم يكن في ذهن ابن سعود غزو الحجاز واحتلال مكة وتهديد حسين في عرشه. ولكن الله شاء ما لم يشأه ابن سعود فدخل جيش الإخوان مكة، واحتلوها دون أن يعلم ابن سعود ذلك إلا باخرة. وما كان دخول مكة إلا بتصرف خالد بن لؤي خارج أمر ابن سعود، وكان غنم ابن سعود من احتلال مكة عظيما، فقد مهد له السبيل لاحتلال الحجاز كله وحكمه».

فإذا كان هذا رأي مؤرخ صقر الجزيرة، في دور الصقر، والإخوان في فتح الحجاز.. أليس من حق الإخوان أن يحسوا بالغبن لأنهم ساقوا «ملك الحجاز» إلى ابن سعود ضد مشيئته.. فاستأثر به دونهم؟!!

١٠م –قال بعض المعاصرين إن «فيصل الدويش» كان مؤمنا صادقا، ولكن نقطة ضعفه هي ابنه عبد العزيز أو عزيز، الذي لم يكن متدينا بل ومتهورًا. له أطاعه في الحكم والنفوذ. وهو الذي أفسد على أبيه أمره. بالإضافة إلى دخول كثير من

المرتزقة وأصحاب الأغراض إلى الحركة بعد أن انتصرت وتوسعت الدولة، ورجحت كفتها...».

وهذا الجزء الأخير صحيح جدا فإن الذين ينضمون بعد النصر يكونون أكثر تطرفا ومغالاة، وتدفعهم الرغبة في لعب دور أي دور، وكذلك تسيطر عليهم روح التحدي للمؤسسين والتقليل من شأن إنجازهم. ذلك هو ما يسمى بجبل الثورة، الذي لم يثر!..

١١م -اعتبرت السعودية بناء المخافر مخالفا للمادة الثالثة من بروتوكول العقير التي تقول: «تتعهد الحكومتان، كل من قبلها بألا تستخدم الآبار الموجودة على أطراف الحدود لأي غرض حربي، كوضع قلاع عليها، وألا تعبئ الجند في أطرافها». ولكن الإنجليز ردوا بأن المقصود بأطراف الحدود هو مسافة رمية بندقية.

١٢م -وقد أورد غلوب قائمة بالهجمات الإخوانية وهي «بألفاظه»:

١- ٥ نوفمبر ١٩٢٧ -جماد أول ١٣٤٦، أغار المطيريون وذبحوا العاملين في بناء قلعة بصية.

٢- ٩ ديسمبر ذبح الدويش الرعاة العراقيين في المنطقة المحايدة. وكانت الطائرات البريطانية تحلق فوق أرض المعركة، خلال المذبحة، ولكنها لم تتبين ماذا يجري!

٣- الدويش لم يرجع إلى مقره، بل اتجه غربا نحو رعاة زياد في ١٩ ديسمبر.

٤- ٤ ديسمبر ١٩٢٧ -جماد ثاني ١٣٤٦، أغار ابن شقير على قبائل الكويتيين.

٥- ٢٧ يناير ١٩٢٨ -رجب ١٣٤٦، أغار ابن عشوان على قبائل الكويت عند أم الرويصات في الكويت.

٦- في ١٩ فبراير ١٩٢٨ -شعبان ١٣٤٦، أغار الدويش على منطقة تبعد خمسين ميلا من القاعدة البريطانية الجوية في شعيبة. وقد جرى ضرب المهاجمين بالطائرات في ١٩ و٢٠و٢١ فباير. وسقطت طائرة واحدة، أصيبت بطلقة من الإخوان.

٧- في يناير ١٩٢٨ -رجب ١٣٤٦، أرسلت سيارة مصفحة تابعة للسلاح الجوي (البريطاني) إلى بصية لحراسة العاملين هناك.

١٣م -ومنذ عام ١٩١٨ -١٣٣٦، أدعى فيلبي أن الرقم القياسي لعدد القتلى الذين قتلهم شخص واحد بيديه كان ٩٩، قتلهم فيصل الدويش.

ومع تحفظنا على قصص فيلبي وأرقامه، وخاصة ما كتب لتسلية القارئ الأوروبي عن عجائب المخلوقات الشرقية. إلا أن الرواية تدل على أن سمعة فيصل الدويش كانت ذائعة، ومرعبة للذين كفروا، ومنذ عام ١٩١٨/ ١٣٣٦...

١٤م -ابن بجاد سلطان الدين قضى في السجن حوالي ٥ سنوات. ولم يترك إلا ابنة باعث كل ما ورثته عنه في الغطغط.

وشيخ الغطغط الجديدة، لأن القديمة دمرت تماما، هو الشيخ محمد بن ماجد بن خثيلة، وقد التقيت به.

وقد نفى بشدة أن تكون هناك أية اتصالات مع الإنجليز. وقال إن الملك علمهم أن الإنجليز كفار، فكرهوا كل تعامل معهم، وقال إن أباه قاتل مع ابن بجاد وجرح في معركة السبلة. وفسر الأزمة بأن الملك هو المسئول لأنه علمهم أن المسلم لابد له من محاربة الكفار، فلما جاءت مرحلة التعايش مع الكفار لم يستطع تغييرهم.

وفسر هزيمتهم بأنهم كانوا يقاتلون بالإيمان وحكمة عبد العزيز، فلما تخلت عنهم حكمته تمزقوا وهزموا.

وهو بالطبع يأخذ الموقف المضاد تماما لحفيد الدويش، فيقول: «إن الدويش هو الذي حرضهم على القتال والوالد نصحهم بعدم القتال».

ورأيه في الدويش أنه مسلم أخطأ وقاد الناس إلى الخطأ واستنكر فرية الدعم الجوي لعبد العزيز، وقال إن الطيران البريطاني اشترك في معركة القصور ولكنه لم يساهم مع عبد العزيز في المعركة.

وقال إن عبد العزيز قبل وفاته بستة شهور، سمح بإعادة الغطغط والسكن فيها، «فجاء الوالد وأحياها». وهي تضم الآن عشرة آلاف نسمة، وبها مدارس ابتدائي ومتوسط وبنات، ولكن الكبار في السن مازالوا يلبسون العمامة «الوالد ظل يلبسها إلى أن مات» أما هو فخلعها.

وقاتل إن أباه كان لاجئا في الهند بعد أن قتل حفيد قاتل جد جده وكان يشرب الدخان وتزوج ٤٥ زوجة، وعاش ١٢٥ سنة، وأنجب ستين لم يعش منهم إلا ١٤. وهو شخصيا له ابن أمريكي لا يعرفه!.... وما جد هذا هو الذي دخل على عبد العزيز فلم يلق عليه السلام عشية معركة السبلة وقد طابت صحبته بعد ذلك مع عبد العزيز واصطحبه معه عند اجتماعه بالرئيس روزفلت! ومن بناته الدكتورة هند والأستاذة شيخه، وهما من خريجات الولايات المتحدة، ويعملان بالجامعات السعودية. وقالت الدكتورة هند للمؤلف أن والدها الشيخ ماجد هو الذي دافع عن حقها في السفر للولايات المتحدة بعد الشهادة الثانوية ضد معارضة العائلة. وكان دائما الأكثر تفهما وتسامحا.

وعن الهجر قال محمد: «إنها مشتقة من هجرة الرسول، من بلاد المعصية إلى بلاد الطاعة».

«من حياة الأعراب الذين لا يعرفون لماذا خلقهم الله إلى حيث كان عبد العزيز يقول لهم: «إن الله خلقكم لتعرفوه» وأكبر مزرعة لم تكن تتعدى ٢٥٠٠ مترا مربعا، وأكبر مزارع كانت «ابن بجاد والوالد» ومزرعة ابن بجاد بيعت بـــ ٣ آلاف ريال وهي الآن تساوي ٣ ملايين.

وقال إن المشروع لم يكن زراعيا، ولكن بعد معركة تربة حصلوا على ذهب ومنهوبات فتجمع لديهم رأس مال فتوسعوا في الزراعة.

وقال عن أراضي الغطغط القديمة، إنها أراضي شهداء، فلا مالك لها!... (لقاء معه في الغطغط عام ١٩٧٩-١٣٩٩).

١٥م –ونستطيع أن نستشف سرور بريطانيا بزوال الإخوان، شوكة ابن سعود، من الشماتة التي ظلت تفترس قلب غلوب نصف قرن، حتى طفحت في كتابه الصادر منذ عام، إذ يسجل شماتته في الإخوان قائلا: «وبعد ثماني سنوات من الرعب، كان منظرا مثيرا أن أرى الإخوان العصاة يلتمسون حمياتنا».

«في ٢٨ ديسمبر هاجمت حرب الموالية لابن سعود قبيلة مطير ففر هؤلاء بدون قتال، تماما كما كان الرعاة العراقيون يفعلون في الماضي، ما أروع سقوط الجبار[(١)] «وضعت شروطا لمنح حق اللجوء، وهو استسلام مشايخ القبائل، ونزع سلاح قبائلهم وتجميعهم في مكان واحد، ووافقت بغداد على الشروط (أي القيادة البريطانية في بغداد).

---

(١) وما أبشع شماتة الجبان المتأمر.

وفي يوم أول يناير ١٩٣٠ -رجب ١٣٤٨، جاء إلى معسكرنا فيصل الدويش ونايف بن حثيلان، فأبلغنا بالشروط. فطلبا مهلة ١٢ ساعة حتى يستشيرا قبائلهما في هذه الشروط. وذهبا فلم يعودا».

«ولكن في الخامس من يناير دب الذعر فجأة في جموع الثائرين، وانطلقوا هائمين في الصحراء تاركين خلفهم متاعهم وماشيتهم. وكم رأيت مثل هذا الذعر يجتاح قبائل العراق على يد هؤلاء الإخوان الذين لا رحمة في قلوبهم... حتى دار الزمان»!

أما السطور التالية لغلوب، فيصعب التعليق عليها: «وأخيرا انقلبت الأدوار، وأصبح الإخوان هم المشردون، الذين خلفوا قطعانهم وراءهم. وقد أمطرت الحكومة العراقية بسيل من الرسائل أطلب فيها السماح لنا بنهب الإخوان الهاربين لتقديم تعويض رمزي[1] لضحايا غاراتهم عندنا، أو اشتراط إجلائهم من الكويت مقابل تعهد ابن سعود بالتعويض عن غاراتهم خلال السنوات الست الماضية، ولكني لم أتلق إلا موافقة مترددة من الحكومة على أن أقوم بمصادرة جمال الإخوان التي أجدها في الأراضي العراقية، وأوزعها بين ضحاياهم».

١٦م -أورد الريحاني قصة امتياز هولمز هذا، فقال في تقرير سري كتبه لوزارة الخارجية الأمريكية: «كان المأجور فرانك هولمز موجودا في مؤتمر العقير وهو ضابط سابق في الأسطول البريطاني، ويعمل لحساب «جنرال أيسترن سنديكات ليمتد» في لندن. وهو مهندس عمل قبل الحرب مع هربرت هوفر في أستراليا والصين، وله علاقة مع هافميرز بنيويورك وهو يتكلم ويتصرف كأمريكي أكثر منه

---

(١) الأحرى أن يقول «تنكيل» رمزي

كإنجليزي. ويطوف شبه الجزيرة العربية باحثا عن النفط وامتيازات النفط. وهناك عقد في جزيرة فرسان ابن سعود في لندن بطلب من «سنديكات» لامتياز في إقليم الحسا. وكان العقد قد كتب ووقع عندما وصلت أنا، مع أني قابلت هولمز على الباخرة القادمة من البصرة إلى البحرين، الذي أخبرني أنه متوجه للاستشفاء في الأحساء! وقد عرفت مرضه عندما طلب مني السلطان أن اقرأ عقد الامتياز وأقول رأيي فيه كما طلب مني الاشتراك في مناقشة العقد، وبعد تعديلات أضفتها نصحت بقبوله».

«ولكن شركة النفط الأنجلو -إيرانية التي تمتلك الحكومة البريطانية سبعين بالمائة من أسهمها اعتبرت هولمز مزاحما لها. وقد أخذ السير برسي كوكس جانب الشركة باعتباره يمثل الحكومة البريطانية. ونجح في جعل السلطان يؤجل إعطاء الامتياز لهولمز حتى يتصل كوكس بالحكومة في لندن وقد استجاب السلطان لرغبة كوكس».

وبالطبع استند كوكس على معاهدة ١٩١٥-١٣٣٣، التي تمنع ابن سعود من إعطاء الامتيازات. ولكن عبد العزيز كان مصمما على ألا يرى الشركة الأنجلو -إيرانية تعمل في بلاده، وتجر عليها ما جرته على إيران. وكان يفضل التعامل مع شركات مستقلة حتى وإن اضطر إلى الاختيار داخل الإطار البريطاني. وإذا كانت المعاهدة قد حرمت إعطاء امتيازات إلا للإنجليز فإنها لم تذكر «الحكومة البريطانية». وشركة هولمز إنجليزية ومن ثم ليس لها حق الاعتراض. وقد زعم الريحاني أن هذه هي فتواه للسلطان، ولكن لا نظن أن ابن سعود قد غاب ذلك عن فطنته وقد اصر السير برسي كوكس على أن يكون الامتياز للشركة الأنجلو -إيرانية حتى صرخ هولمز: «حكومتي تعمل ضدي»!

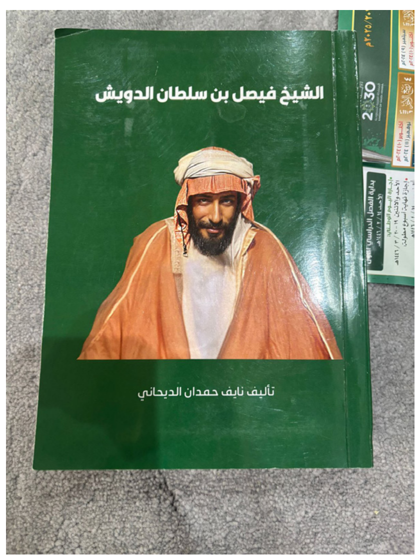
ولكن السلطان عبد العزيز وقع العقد مع هولمز في ١١ مايو ١٩٢٣ -رمضان ١٣٤١.

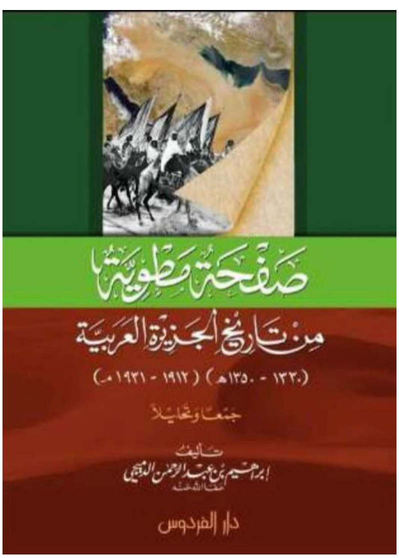
ولكن أهم شرط فيه أن شركة هولمز هذه لا تتنازل ولا تبيع ولا تحول الامتياز أو جزءا منه إلى الشركة الأنجلو -إيرانية».

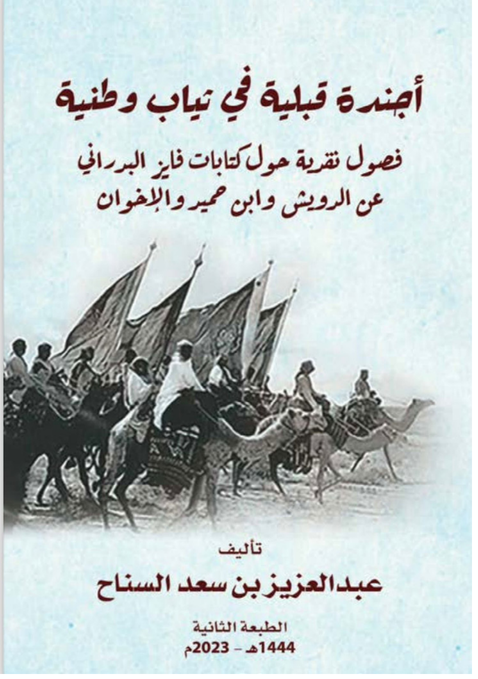
بعض أهم المراجع و الرسائل العلمية التي تتحدث عن فيصل الدويش و اخوان من طاع الله في نجد

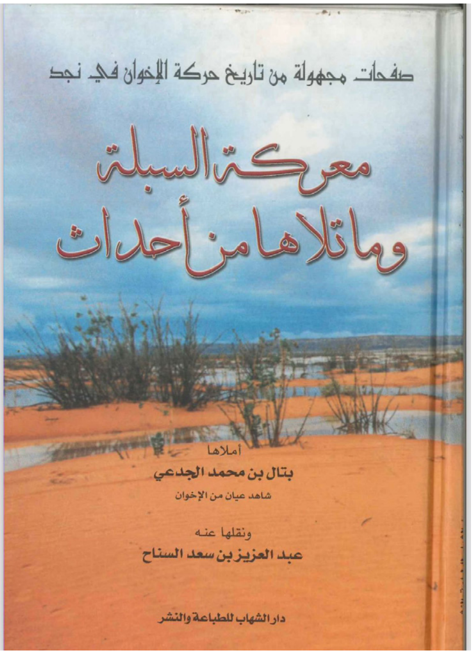


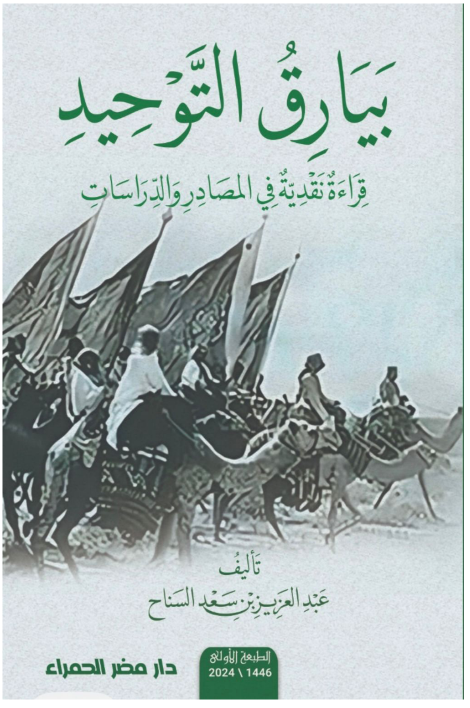


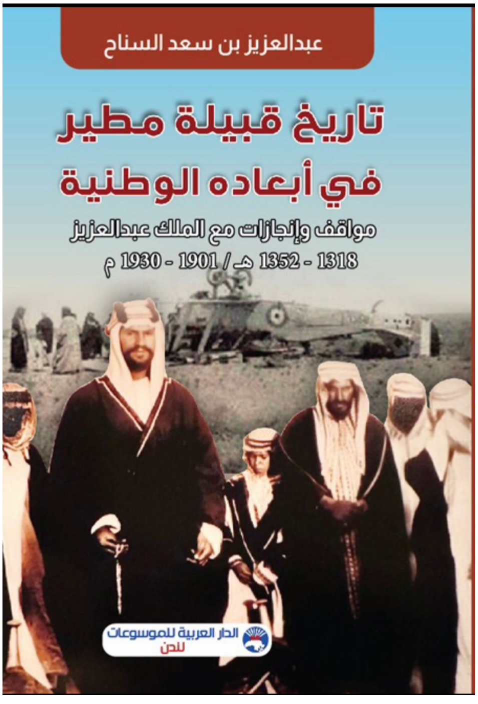





أجندة قبلية في ثياب وطنية
فصول نقدية حول كتابات فايز البدراني
عن الدويش وابن حميد والإخوان
تأليف
عبدالعزيز بن سعد السناح
الطبعة الثانية
1444هـ - 2023م


صفحات مجهولة من تاريخ حركة الإخوان في نجد
معركة السبلة
وما تلاها من أحداث
أملاها
بتال بن محمد الجدعي
شاهد عيان من الإخوان
ونقلها عنه
عبد العزيز بن سعد السناح
دار الشهاب للطباعة والنشر


بيارِقُ التَّوحِيدِ
قِرَاءَةٌ نَقدِيَّةٌ فِي المصَادِرِ والدِّرَاسَاتِ
تأليف
عبدِالعزيزِ بن سعدِ السناح
دار مضر الحمراء
الطبعة الأولى
2024 \ 1446


عبدالعزيز بن سعد السناح
تاريخ قبيلة مطير
في أبعاده الوطنية
مواقف وإنجازات مع الملك عبدالعزيز
1318 - 1352 هـ / 1901 - 1930 م
الدار العربية للموسوعات
للنشر

فهرس الموضوعات

الفهد يستقبل كشك



□ سموه لدى استقباله لجلال □

تشرف الكاتب والصحفي المعروف الاستاذ جلال كشك بمقابلـة صاحب السمو الملكي الامير فهد بن عبد العزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء، حيث قدم لسموه نسخة من كتابه الجديد «السعوديون والحل الاسلامي». وقد تقبل سموه هدية الزميل شاكرا.

هذا الكتاب

هو الفصل الخاص بفيصل الدويش وإخوان من طاع الله من كتاب (السعوديون و الحل الإسلامي) للكاتب الكبير محمد جلال كشك والذي تم تكريمه من قبل الملك **فهد بن عبد العزيز آل سعود** رحمة الله عليه، مع بعض الأقوال التي ذكرها بعض المتخصصين عن سيرة فيصل الدويش

مكتبة الرضوان